

مزيجاً بين التاريخ والخيال

أسامة الطرابلسي

دار كتاب للنشر والتوزيع



مسئول النشر
طارق رمضان
مدير التوزيع
عمر عبد السميع
مدير العلاقات
مها عادل

الطبعة الأولى
الكتاب : ابن زكريا
تأليف : أسامة الطرابلسى
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : عبد الرحمن سندوبى
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠٧٦٩ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي : 4 - 33 - 6597 - 977 - 978

العنوان : ٤٧ تقاطع الفلكي مع محمد محمود - القاهرة - مصر
التليفون : ٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨
Email : darkitabone@gmail.com

هذه الرواية مزيجاً «بين التاريخ والخيال، لا
تمت لواقعنا العربى بأى صلة من قريب أو
بعيد، ذلك لأننا تعلمنا قديماً» أن التاريخ لا يعيد
نفسه، كما أن الإنسان لا يكرر أخطاءه.

افتتاحية

تلك أولى أوراقي، تلك أولى كلماتي، تلك سيرة عائلة تروي مأساة جيلا» بأكملـه، تلك سيرة عائلتي.

سأحاول كي لا أجن أن أعبر عن كل لحظة مرت على تلك العائلة، سأكتب كي لا أنسى، أو كي أنفّس عما بي من غضب ومرارة وحسرة، مشاعر كثيرة تتنامى إلى وجداني، أمسك بريشتي أحاول أن أضعها في الحبر كي أخرج سوادًا على ورق أبيض ليطفح بمرارة الأيام.

اليوم قد أثبت لنفسي أني أمتلك مهارة الكتابة التي اكتسبتها من والدي، وإن كنت امتلكتُ أدواتها فقد وجب عليّ أن أخرج هذا الغول من داخلي كي لا يلتهمني أو يحرقني ويقضي علي، ذلك الغول الذي قضى على والدتي المستلقية أمامي ناعسة بعد مشقة مسيرة يومين، لا نمتلك إلا الصبر وقليلا من الماء وطعامًا لا يكفي معدة خاوية، ولكن إلى حين، فذات يوم سأشب رجلًا قادرًا، وسأطالب

بحق والدى الذى تركته معلقا» على باب زويل وحق أمي الضائع، لكن، ممن؟

فصراعي مع كيانات ودول وليس مع أشخاص، بل هو صراع مع أشخاص امتلكوا دولا، وكلاهما مرٌ قادم، بل هو مصيرٌ ليس له أبراج مشيدة تمنعه أو تعوقه، فمصيري هو الخطر، سواء هربت منه أو نفذت إليه، فإن كنت أشتاق للقصاص كاشتياق النبات للماء لكن واقع الأمر يقول إني أنا وأمي أصبحنا صيدًا ثمينًا تسعى الكلاب وراءه، فأنا ضحية أقدار دول، وأطماع رجال كبار وأنا لم أزل في طور البلوغ وبداية الشباب، وطوال الأعوام السابقة، ومنذ قدومي لتلك الدنيا وأنا مجرد مفعول به، لا حول له ولا قوة، أحاول أن أعي ووالدي يجيبني بإجابات مبهمة، بدأتُ في تفهمها مع تصاعد الأيام.

الآن أنا أجلس بجوار أم ثكلى مصابة في زوجها وحبيب عمرها، ومصابة في وطن، وما زالت تصارع للحفاظ على البقية الباقية لها من الحياة، أنا، تهرب بي للبعد عن الخطر القادم، ولكن في كل لحظة تُذكرني بكل ما عاشته لأحفظه في يقيني، فهكذا تقول لي دائمًا «لن نموت دون الثأر لوالدك، دون أن نعيد حقًا مسلوبًا، دون أن ننعم بوطن حر».

***

1

الشيخ زكريا

إنـه النعيـم والشـقاء، أنـه الـترف والتقشـف، أنظـر حولـك فـترى أبراجـاً مشـيدة عاليـة العمـدان تقـف فى فخـر أمـام بيـوت مـن طـين وأنـين، حيطانهـا مهـددة أن تزروهـا الريـاح لتصـير أنقاضـا متهدمـة، هـذا هـو حـال المحروسـة، عبيـد وصلـوا إلى قمـة المجـد والحريـة والسـلطة، وأحـرار زادت احتياجاتهـم فلطخهـم السـؤال وبـات الـرق والسـخرة مصيرهـم، رجـال قـدروا وأرادوا وأزهقـوا دمـاء وأذلـوا نفوسًـا، ورعـاع أملـوا البقـاء يحلمـون بيـوم العـدل ويـوم الإنصـاف.

تلـك هـي المحروسـة ومـا فيهـا بـين أمرائهـا وأبنـاء البلـد، هنـا وقـف يحيـى بـن زكريـا بـين هـذا وذاك، فالأصـل مملوكـي مـن أولاد النـاس، أي مـن الجيـل الثـاني مـن أبنـاء المماليـك الذيـن

ولـدوا بالمحروسـة، لم يـذق طعـم الـرق كـما صـادف والـده في رحلـة حياتـه، فوالـده هـو الشـيخ زكريـا بـن الجيعـان الـذي ترجـع أصولـه إلى القوقـاز، كغـيره مـن أبنـاء تلـك المنطقـة فى ذلـك الزمـان، سرق كالدابـة مـن قريتـه في سـن العـشرة أعـوام عـن طريـق بعـض النخاسـة، وسـاقوه إلى المحروسـة ليبـاع للأمـير برسـباي الـذي قـدم قبلـه إلى مـصر أيضـا كعبـد، وصـار بعـد ذلـك سـلطانًا، سـبحانه وحـده جاعـل العبيـد سـلاطين، سـبحانه مـن لـه الملـك، مـن هنـا بـدأ الأمـير زكريـا أول حياتـه في المحروسـة وكغـيره مـن أبنـاء القوقـاز الذيـن اشـتهروا بالبنيـة القويـة وشـجاعة الكـر، أصبـح مـن أهـم قـادة سـلطانه برسـباي، وزادت قوتـه لينعـم معـه بـكل القـوة التـي أوتيهـا سـلطانه، وأصبـح طريـق الترقـي في المناصـب داخـل الدولـة مهيئًـا، فمـن مقـدم بالجيـش وحتـى مقـدم ألـف، فجمـع مـن الثـروة الكثـير والقـوة الكثـير بـل وأكثـر مـن أى مملـوك أخـر فى زمانـه، هكـذا دانـت لـه الأيـام ليشـتري مـن المماليـك الكثـير لكـي يعتمـد عليهـم في صراع السـلطة الـذي يحسـم في مـصر بثلاثـة عوامـل إلى اليـوم، المـال والعـدد والمؤامـرات، وقـد تمكـن مـن كل هـذا وفـاق عليهـم بـأن ناسـب السـلطان برسـباي ليؤكـد اسـتحكامه عـن باقـي المماليـك فعـاش في حيـاة لا يعكرهـا شيء، حتـى صراعـات وانقسـامات المماليـك

اليومية كانت بالنسبة له داعم لقوته وتمكينه، فحتى اتفاقاته بينهم أظهرت قوته في أن يكون صاحب الحل والربط والأمر والنهي، دانت له الأيام وزاد قلبه إشراقا بأن رزق بأول أبنائه، وبات مع المال والبنون أن ينسى عقدة العبودية التي ترعرع عليها، أنسته تلك البهجة لحظات الخطف والذل، رأى في ذلك الولد الكثير من الأحلام، فبمجرد أن رزق بأول أولاده حتى قرر أن يمكن نفسه من تلك الأرض التي قدم إليها منذ عقود، بعد أن جعلته الذرية يرى مكانا له في تلك الديار، أرسل ليبحث في موطنه القديم عن أبناء عمومته ليجد القليل منهم، فأقدمهم إلى مصر ليكوّن عائلته، وبات يبحث في كل مكان في بلاده البعيدة عن أي قريب ليزيد ترسانة العزوة التي ستعطيه القوة عندما يؤول الأمر للسيف لمنصب السلطنة.

في تلك الأيام كانت بلاده البعيدة خاوية من الناس بعد ما تعرضت له منطقة القوقاز من أهوال الغزو المغولي والتتري، فقد تحولت المنطقة بأكملها إلى ساحة صراع يأتيها الطوفان من كل اتجاه، تتصارع أمم وتنصهر فيها ما بين مغول وترك وتتار، ولكن ظلت مصر كما هي قوية البنيان كعمود سنط لا يهاب الرياح ولا التغييرات، كانت الملاذ لكل من هرب من أوطانه ليجد من مصر وطنه. كان حلم زكريا الأكبر في

التمكـن أكثـر للتملـك كغـيره مـن السـلاطين الذيـن تسـلقوا إلى السـلطة بـكل الطـرق غـير المشروعـة، وكان الابـن هـو الامتـداد لـكل تلـك الأحـلام والطموحـات، وكأنّ الله أراد لـه المزيـد مـن الأمـل والأحـلام، فبعـد ابنـه الأكـبر طـه رزقـه الله بطفلـه الثـاني يحيي، ثـم بآخـر فكان صـلاح الديـن، وظـل يحلـم بـأسره عريقـة في الحكـم يمتـد ذكرهـا كذكـرى دولـة الأيـوبي أو قـلاوون، فـكان ينتظـر اليـوم بعـد اليـوم ليشـب أبنـه طـه مـن مرحلـة التكويـن ليبـدأ في تعليمـه بـكل مـا يلـزم لهـذا الحلـم، فـكان لا يدخـر مـن الجهـد ليعلمـه كل مـا يلـزم عـن الفروسـية والكـر والفـر وكيفيـة القتـال وكيـف يكـون أمـيرًا في كل شيء، فكـم مـن أبنـاء جنسـه اسـتطاعوا أن يحكمـوا بعـد الـرق، ولكـن المؤامـرات لم تبـقِ عـلى دولتهـم أو ذريتهـم ليكملـوا المسـيرة، فـكان يعلمـه أيضـا الأهـم مـن ذلـك كلـه، علـم السياسـة والدسيسـة والدهـاء، واسـتقدم لذلـك مـن كل خبـير في علـم مـن تلـك العلـوم مـا يأخـذ منـه العلـم لولـده، حتـى يشـب جاهـزًا لمعاونـة والـده في تثبيـت نفـوذه الـذي بـات قريبًـا لزكريـا عـلى مـا سيؤول في المسـتقبل.

كل هـذا والأمـير زكريـا يفكـر ويدبـر والمحروسـة عـلى حالهـا مـا بـين أبنـاء العامـة والأمـراء حـكام مـصر الفعليـين الذيـن إن اقتتلـوا زادوا مـن بـلاء ومعانـاة العامـة، وإن تصالحـوا فالحـال

واحد، فلا حربًا أو سلمًا يفرق كثيرا في شقائهم، كلاهما بؤس يضاف إلى جهلهم وقلة حيلتهم وأمراضهم التي كانت تحصد من أرواحهم كل يوم بالمئات أو في بعض اللحظات الفارقة بالآلاف.

***

2

الموت الأسود

غـزا الطاعـون البـلاد، جـاء المـوت الأسـود، ولا أحـد يعلـم مـن أيـن جـاء، لكـن باتـت المحروسـة مهـددة بهجـوم شرس أقـوى وأفتـك مـن التتـار، هجـوم لا يمكـن أن يمنعـه أحـد إلا الله، إنـه المـوت الأسـود الـذي جـاء مـن آسـيا الوسـطى ليـضرب المحروسـة بـلا رحمـة، شـبح خفـي لا جسـد لـه أو صـوت، رائحتـه هـي رائحـة المـوت، جـاء ليهجـم عـلى كل دار سـواء كان قـصرا» أو عشـه عـلى ضفـة النيـل، لم يقتـصر مهاجمته فقـط عـلى أبنـاء العامـة، وحـده المـوت الـذي لا يفـرق بـين أمـير وصعلـوك، كان بـه شراهـة جعلتـه يغـزو كل حـى وربـع، غنـي أو فقـير، ففـي كل يـوم كان يُسـمع العويـل والنـواح قادمًـا مـن منـزل أو دار أو قـصر، فـكل الحناجـر في الحـزن لهـا نفـس الصـوت المثكـول، أصـوات النـواح كانـت هـي الأعـلى فبلـغ

حجـم الضحايـا الألـف يوميـا، وتـوفى الكثـيرون حتـى أقـر البعـض أن المحروسـة فقـدت وحدهـا مائتـين وخمسـين ألـف نفـس، كان في كثـير مـن الأحيـان عجـزت الأسر فى أن يجـدوا أكفانـًا لكـي يجهـزوا موتاهـم لسـكنتهم الأخـيرة، كل مـن هلـك هلـك إلى أن تلقـى زكريـا الخـبر مـن أحـد خدامـه، الـذى جـاءه والرعـب فى عينيـه ليبلغـه أن هنـاك طفـح أسـود أسـفل كتـف ابنـه طـه، جـاءه الخـبر وهـو داخـل قـصره المشـيد بالظاهـر، وكانـت تلـك آخـر ليلـة يقضيهـا الأمـير زكريـا في ذلـك القـصر شـديد الحراسـة، شـديد الثـراء.

كل مـن شـاهد زكريـا ذلـك اليـوم وهـو يركـض بجـواده حامـلا جسـد صبيـه وهـو ملقـى أمامـه،، لقالـوا إنـه يفـر مـن المـوت ذاتـه، يطـير بفرسـه بأقـصى مـا يمكـن أن يحتملـه الفـرس، خلفـه حراسـه يحاولـون أن يلحقـوا بـه دون أن يعرفـوا إلى أيـن وجهتـه يحـاول أن ينقـذ ابنـه، أن يبعـده عـن شـبح المـوت، حتـى فرسـانه لم يـروه مـن قبـل في مثـل هـذا الجنـون أو الذهـول، فعقلـه قـد طـار وظهـرت نظـرات عينيـة المضطربـة وهـو يتلفـت في كل اتجـاه يحـاول أن يجـد سـبيلا للهـروب مـن هـذا المـوت الأسـود الـذي يطـارد أهـم مـا يملـك، دون أن يحسـب لهـذا اليـوم فقـد رأى أن مسـتقبله كلـه مهـدد بالمـوت، أنـه يجـب أن يهـرب منـه مهـما بلـغ بـه الترحـال. ظـل يركـض

حتى وجد بعض المستنقعات التي تفصل الظاهر عن الصحراء الشاسعة فعبرها، قرر أن يفرش خيمته هناك في وسط الصحراء الشرقية، فقد رأى أن جو الصحراء الجاف قد يكون الجو المناسب لانسحاب أعراض الموت من جسد ابنه اليافع، قرر أن يعالجه بعيدا وسط الجفاف في كل شئ، فظل أياما جالسا بجوار الفتى، يقتسم معه بعض الخبز الجاف وبعض التمر وجرعات من الماء، والفتى بجواره يئن، تطفوا بجسده كل يوم إحدى الجزر السوداء، وزكريا يشاهد الجسد الملقي أمامه بعين زائغة ما بين الذهول والشرود لا يدري ماذا يفعل، يتمتم بعبارات غير مفهومة أو واضحة لا يفسر منها إن كان يحاسب نفسه ويحادثها أم يحادث الموت، فقد شهر سيفه على أعناق العباد ليدين له الجميع بعد أن كان عبدا» أضعف وأدنى منهم، ضرب بسيفه كل خطر وقف سابقا» أمام طموحه ونسى القهر الذى تربى عليه حتى كاد أن ينسى أنه كان في يوم من الأيام عبدا» بل لقد خلق في هذا الأرض وهو سيد في يداه ذلك السيف. الآن يرى سيفه ملقى بجواره وهو بكل قوته وجبروته لم يستطع أن يفعل شيئا سوى الهرب، فكر أن يهرب بالجسد إلى مكان أبعد وأبعد، لكن أصبح واضحا أن الموت قد زرع نبتته بهذا الجسد وأخذت تنبت شيئًا فشيئًا، أصبح وأمسى وهو يرى الجسد ينتفض

أمامـه ويـزداد شـحوبًا فيعـي ولأول مـرة معنـي خـروج الـروح مـن الجسـد، فقـد أزهـق أرواحـا كثـيرة مـن قبـل، ولكنـه لم يـر هـذا المشـهد، تلـك المـرة هـو يـرى احتضـار ولـده الأكـبر، حلـم المسـتقبل بـكل أمالـه، حتـما تلـك الـروح بالنسـبة لـه أخـذت معهـا شـيئا» مـن روحـه بصعودهـا، حقـا» أحـس لأول مـرة معنـى أن تزهـق روحـا»، لحظـة خروجهـا جاءتـه مشـاعر متضاربـة، فتخيـل لـه فى وهلـه أنـه رأى أشـباحًا، فتسـاءل أهـذا المـوت ذاتـه جـاء لينـزع روح ولـده مـن صـدره، فأمسـك بسـلاحه يترقـب اقترابـه ليصارعـه، أخـذ ينتظـر ويفكـر، تـراه مـلاك المـوت الـذي يـأتي بأمـر مـن الله لينفـذ مشـيئته لا تمنعهـا قـوة بالوجـود، ليسـقط السـيف مـن يـداه وتخـور قـواه، يسـقط جسـده بجـوار جسـد الصبـي، ويبكـى بـكاء يصـل نحيبـه ليمـلأ الصحـراء الخاويـة، أخـذ يبكـى وهـو يشـاهد ولـده وهـو يلفـظ آخـر أنفاسـه، يسـمع شـهقة النفـس التـي تخـرج مـن الجسـد متحـررة فـلا تعـود، شـعر برعشـة الـروح وهـي تكـسر قضبـان السـجن التـى وضعـت فيـه، صراع سـجن الجسـد وحريـة الـروح التـى إنتهـت بانتصـار الـروح لتصعـد ويصمـت الجسـد إلى الأبـد.

بكـى زكريـا، بكـى كثـيرًا وكثـيرًا، بكـى أمـام هـذا الجسـد الصغـير، بـل أعتـبر ولـده قربـان قدمـه إلى خالقـه، قـدم معـه

كشـف حسـاب عـلى كل مـا اقترفتـه يـداه، كانـت تلـك الخيمـة محـراب أقـام دعائمـه ليسـلم بيديـه فيهـا ابنـه إلى بارئـه، غفـل قليـلًا بعـد مـا فقـد، أخـذت الأحـلام والكوابيـس تهاجمـه ياتيـه النـور في منامـه، ثـم يتبـدد، ليفيـق بعدهـا وكأنـه قـد ولـد مـن جديـد، فقـد ظهـر بعـض الشـيب في لحيتـه وشـعره بعـد تلـك الغفلـة التـي لا يعلـم كـم مـضي بهـا أو كيـف جاءتـه، أخـذ ينظـر لـكل مـا حولـه بهـدوء، حتـى ذلـك الجسـد الـذي رقـد أمامـه فبـات كل شيء هادئـا، كانـت تلـك الغفلـة بدايـة حيـاة جديـدة لزكريـا الـذي قـد قـرر أن ينـصرف عـن حيـاة الأمـراء ومـا فيهـا مـن صراعـات وحـب الشـهوات بعـد أن دفـع ثمنهـا باهظـا بفقـده للولـد، حينهـا أقسـم أنـه لـن يعـرض أبنـاءه الآخريـن لنفـس المصـير، لـن يكـون مـن جديـد الأمـير زكريـا.

بـات هائـمًا أيامـا بعـد دفـن ابنـه في تلـك الصحـراء بـين خيمتـه والصحـراء الشاسـعة يجـول، فـكان يتوضـأ ثـم يأخـذ في الابتهـال والمناجـاة حتـى الغـروب، يأتيـه فرسـانه بطعامـه وشرابـه ويعـودون في اليـوم الثـاني ليجـدوا الـزاد كـما وضعـوه، تـاركا» الحيـاة بـكل متاعهـا وملذاتهـا ، لم تعـد تلـك النفـس قويـة ومتكـبرة كـما كانـت مـن قبـل، لم تعـد تمتلـك القـوة في أن تتحكـم فيـه أو أن تدفعـه وراء أهوائهـا دون قيـد، بـل باتـت نفسًـا منكـسرة لا تبتغـي مـن الحيـاة شـيئًا.

مـرت الأيـام وهـو عـلى حالـه حتـى جـاءه عبـد السـلام خادمـه المخلـص، بعـد أن علـم وأحـس مـن فرسـان سـيده أن بـوادر الانقـلاب بـدأت تـدب وسـطهم، سـمع مـا بـين ثقـوب الحوائـط عـن طمـع البعـض منهـم في سـيدهم الذيـن ظنـوا أنـه فقـد عقلـه، فبـذات الطمـوح الـذي كان فيـه، رأى البعـض مـن رجالـة أن الأمـور قـد تبدلـت، وأن أمـوال سـيدهم وكنـوزه التـي اختزنهـا هـي أكثـر مـن أن تهـدى لأسرتـه، بـل رأى بعضهـم أحقيتـه في تلـك الأمـوال، والبعـض الآخـر بـات عـلى الحيـاد، هنـا قـرر عبـد السـلام أن يسـير إلى سـيده لعلـه يفيـق أو يفهـم منـه أو يـرد عليـه مـا يطمئنـه، فأعـد لزيـارة سـيده وقـد قـرر أن يصطحـب معـه أبنـاء سـيده الاثنـين، يحيـى وصـلاح، قـد يراهمـا سـيده فـيرق قلبـه لهـما، ويفيـق مـن حالـة الحـزن التـي أفقدتـه كل شيء، امتطـى جـواده وأركـب الصبيـين عـلى فـرس وشـد عدتـه وسـار للبحـث عـن سـيده الـذي اتخـذ مـن خيمتـه مسـجدًا للصـلاة التـي لم يركعهـا منـذ عقـود، كان همـس الصبيـين هـو أول مـا ميـزه زكريـا وسـط السـكون، اندفـع الصبيـان إلى خيمتـه وارتميـا في حضـن والدهمـا، للحظـات ظـل زكريـا صامتًـا، والصبيـان يبكيـان في حضنـه، ينظـر إليهـما في سـكون، يتحسسـهما ليتأكـد مـن وجودهمـا، ظـل عـلى هـذا الحـال حتـى خـر باكيًـا، امتـلأ الفـراغ الفسـيح بنـوح الأب وأبنائـه الصغـار بينـما ظـل عبـد السـلام ثابتـا ينظـر إليهـم في تأثـر، تـذرف

دموعـه في سـكوت تـام، انتهـت حالـة الحـزن وبـات الصبيـان ينظـران لوالدهمـا يحثانـه أن يهـم معهـما للعـودة إلى قـصره، وهـو سـاكن لا يحاوبهـا، لحظـات مـن الصمـت ثـم تبسـم لهـما أولى ابتسـاماته منـذ شـهور، ابتسـامه حنـان لأب فقـد أغـلى أبنائـه، لا يـود أن يجيبهـما لكـن بـشيء مـن الهـدوء طلـب منهـما الخـروج للهـو خـارج الخيمـة حتـى يتحـدث مـع خادمـه الـذي وقـف أمـام سـيده ناظـرا للأسـفل متحدثـا بصـوت خافـت...

– كيف أصبحت يا سيدى؟

– الحمـد لله، ثـم ناظـرًا إليـه يتأملـه، مـاذا جـاء بـك يـا عبـد السـلام؟

– جئت أحثك على العودة إلى ديارك.

– لم تعد دياري، هنا داري وسأظل هنا حتى يحين أجلي.

– لكن، المؤامرات تحاك من حولك يا سيدي.

– لم يعد يعنيني ذلك.

مـرت لحظـات مـن الصمـت يـود عبـد السـلام أن يكسرهـا، يخشـى الحديـث، يـتردد ثـم ينطـق...

– لكـن أبنـاءك في خطـر، جنـودك يدبـرون لأمـر مـا، سـكت قليـلًا ثـم بصـوت مضطـرب، يقولـون إن الأمـير فقـد عقلـه.

ألقي عبد السلام الكلمة، كما لو أطلق سهمًا ليسكن كبد زكريا، صفعه أفاقته وجعلته يسترجع ليلة الخروج وهو يحتضن ابنه، فجاءه صوت عبد السلام ليعلوا مجددًا بشيء من العقل.

- أعلم يا سيدي مدى فجيعتك، لكن إياك أن يؤثر هذا على حال أبنائك أو سلامتهم.

سكت عبد السلام مجددا، ينتظر الرد من سيده، يتفحصه في حيرة وهو صامت، ينظر إلى السماء دون رد أو جواب، أغمض زكريا عيناه للحظات ثم بادره بصوت هادئ متزن.

- لا عليك يا عبد السلام، فقد رتبت وقررت وليفعل الله ما يشاء.

***

3

بركة الرطلي

بـات زكريـا إنسـانا جديـدًا إثـر عودتـه إلى العـمار، فقـد عـزف عـن مـا كان عليـه مـن حيـاة الأمـراء، بـل اقتنـع عـن يقـين أن مـوت الابـن كان إنـذارًا مقـدرًا مـن الله عـز وجـل، جـاء لـه في لحظـة فارقـة في حياتـه، كان يخطـط فيهـا بـكل ذرة في عقلـه دون التفكـير في أمـر السـماء، فكانـت قراراتـه أيضـا فارقـه، بعـد أن مـات معظـم أبنـاء السـلطان برسـباي بسـبب نفـس المـرض وباتـت معركـة الحكـم قريبـة، فأصبـح لا محالـه مـن حسـم كل شيء، كانـت أولى خطواتـه نحـو الأمـان قديـما بـأن يكثـر في العبيـد والمماليـك الأشـداء، أمـا الآن فـإن مطلـق الأمـان هـو أن يسرحهـم بعـد أن يعطيهـم مـالاً يجعلهـم لا ينقلبـون عليـه، بـل زادهـم حتـى اكتفـوا، وسـار إلى السـلطان ليسـتأذنه في الاعتـكاف، الأمـر الـذي أراح كثيريـن كانـوا

يكيـدون لـه ويكيـد لهـم، أولهـم الأمـير جقمـق الـذي تسـلطن بعـد السـلطان برسـباي ولقـب بـ الظاهـر سـيف الديـن جمقمـق الشركـسي، وقرقـماس الشـعباني الـذي لقـي حتفـه عـلى يـد السـلطان جقمـق بعـد ذلـك، كـما تزكـى بالكثـير مـن المـال، ولم يـترك لابنيـه إلا بعـض المـال وأرض الروضـة لكـي يعيشـا مـن ريعهـا وزراعتهـا، أمـا هـو فقـد أخذتـه قدمـاه إلى تلـك المسـتنقعات التـي مـر عليهـا مـن قبـل أثنـاء رحلتـه إلى الصحـراء، وقـد كانـت إحـدى المناطـق التـي بناهـا الفاطميـون وسـميت ببركـة الرطـلي، ثـم هُجـرت ثـم أعيـد سـكناها مـن قبـل بعـض الغجـر، وكانـت مـلاذا لـكل مجـرم حيـث كانـت أول أرض فى مـصر يـزرع فيهـا القنـب الهنـدى، فعمـد عـلى تهذيـب المنطقـة وبنـا جـسرًا خشـبيًا لربطهـا بمنطقـة أرض الطبالـة، التـي سـميت كذلـك نسـبة إلى راقصـة السـلطان الفاطمـي المسـتنصر بـن الظاهـر خامـس الخلفـاء الفاطميـن، وكانـت تدعـى طـرب، أهداهـا تلـك المنطقـة بعدمـا أعجـب بقصيـدة ألقتهـا عليـه، فـكان أول أعـمال زكريـا في تلـك المنطقـة سيئة السـمعة قديـمًا بـأن أنشـأ مدرسـته لتعليـم القـراءة والكتابـة ثـم أضـاف عليهـم الفقـه والسـنة وعلـم الفلـك، الـذي أخـذ يدرسـهما ثـم يدّرسـهما مع الأيـام، أخـذ مـن علـم كل عـالم حتـى صـار في غضـون سـنوات حجـة العلـم بـين أهـل المحروسـة، وصـار يمتلـك أنـدر الكتـب التـي جلـب

بعضها من الأندلس وغرناطة، وجمع البعض من كتب بغداد التي أنقذها البعض من يد التتار، فاستأنس الناس السكن بجواره، ولم تمر أعوام حتى أعيد إعمار بركة الرطلي من أبناء العامة، وتناسى العامة أصل زكريا المملوكي، وانغمس ابنيه يحيى وصلاح بينهم.

هكذا نشأ يحيى منذ مهده على الحرية مع فسحة من العيش الرغد، أيضا لم يتأثر بالمؤامرات بعد موت برسباي ولم يدفع ثمنا لعلاقات والده القديمة، فشب يحيى بما هو أشبه بأبناء المصريين، فورث كل الطباع المصرية الصميمة من نكات ومن مواقف عاشها في مدرسة والده، أو من رحله تعلمه بالأزهر، كما اهتم زكريا أيضًا رغم ذلك أن يعلمه طباع المماليك والأمراء بجانب طباع المصريين، فكان يحثه على أن يكون على دراية تامة بكل من الحاكم والمحكوم، فعلمه كافة البواطن، حاول قدر المستطاع أن يعطيه كل الدروس المستفادة من حياته حتى لا ينغمس في مثل ما لاقاه هو من شقاء في صباه، فإن كان أراد له طريق العلم الذي برع فيه يحيى ليأخذ عن والده الطريق من بعده، إلا أنه تعلم الفروسية والرماية والمبارزة وهو ابن الرابعة عشر، ودرس خصال عظام رجال عصره وكل ما جاء في أثرهم فأصبح عالما جليلا في الطرق الفقهية، وشرب

من منابع الشافعية، وقرأ كل مخطوطات نهج البلاغة للإمام، وحفظ عن كبار شعراء عصره، بالرغم من ذلك أصبح فارسًا يعْلم فنون القتال على يد أكفأ المعلمين بعد أن تعهد لوالده ألا يستخدمهما قط، فكان هدف الأب أن يقي ولده بإجراء احترازي، لعل الدهر يجلب عليه ما لا يمكن حله بالعلم، وأن يكون الضرب والركوب والكر والفر هم ما ينجياه.

هكذا ترعرع أيضا صلاح الدين ببركة الرطلي، فشبا الاثنان على طاعته وعلى الإدراك قبل كل شيء، وارتبطا معا كأشقاء، ارتباطا حميما رغم اختلاف الهوى بينهما.

فقد ظل عرق الفروسية يزوم على صلاح الدين بشكل أكبر، فعشق رحلات الصيد، وكان يتلذذ بالحديث عنها بين أصدقائه من المماليك الذين هوى صحبتهم وأعرافهم، أما يحيى فكان يهوى الفروسية كمثل حاله من الشباب، ولكن كان يفضل عنها في كثير من الأحيان التأمل والاعتكاف مع أشعار كبار شعراء زمانه في وقف الروضة، وبجانب هذا الهوى فقد غلب عليه حب آخر، ألا وهو حب الاختلاط بالعامة من المصريين، حتى صار مصريًا صميمًا يذكر اسمه في عديد من أسواق المحروسة، بدءًا من سوق النحاسين ووصولا إلى سوق المغربليين

وجبل قلعة الكبش معقل العياء والشطار، ينادي عليه بالتحية من كل محبيه من أصحاب الحرف والدكاكين، فهو ابن العالم الجليل الشيخ زكريا، وله من العلم والفضل بين العامة بالكثير، فعلا شأن الوالد وولده، الذين لم يدخرا شيئًا في تعليم أبناء العامة، حتى أصبح لقب بن الجيعان رمزًا للعلم والنور للعوام، هكذا كان يحيى مملوك الأصل، مصري الهوى.



4

الدرس

تتلاحـم الأزمنـة بزكريـا وأبنائـه، كـما تتلاحـم بمـصر المحروسـة، فإنهـا السـلطنة التـي ورثـت الدولـة العباسـية في الـشرق بعدمـا أوقفـت جحافـل التتـار واسـتطاعت أن تؤسـس دولـة امتـدت حتـى بـلاد فـارس وضمـت كل الأراضي المقدسـة لمسـلمين ومسـيحيين ويهـود، هـي الدولـة التـي أخضعـت باقـي الصليبيـين ودانـت لملكهـا ممالـك الهنـد الإسـلامية، قـرون وقـرون وعقـود تـدور فيهـا الدهـور عـلى كل سـاه ولاهٍ، وكـم مـن الأمـم غلبتهـا الدهـور، والآن هـذا الجسـم القـوي الكبـير الممتـد في أرض الـشرق يشـهد صحـوة المـوت البطـيء، مـازال الجسـد واقفًـا في ثبـات يهابـه الجميـع، لكـن مـن الداخـل فإنـه عليـل بـكل آفـة ومـرض، تتلاعـب بـه العلـل مـن كل شـكل ولـون، بينـما يحـاول الأشرف قايتبـاي أن يعطـي لهـذا الجسـد

قبلة الحياة، والجسد به ما به والأخطار تحوم من كل حد كما تحوم الذئاب على فريستها.

علا ضجيج الحي بأكمله، من أصوات النحاسيين الذين أخذوا ينقشون زخارفهم داخل القطع النحاسية المتجلية في وسط النهار إلى أصوات البائعين على بضائعهم، حتى النسيم يهب على الحي بفحيح البخور القادم من أقصى الشارع الكبير الممتد شمالا حتى جبل المقطم العملاق، وجنوبًا إلى الحسانية، مع كل تلك الأصوات وصليل الخيول، تطايرت أنباء يهمس بها الهامسون من العامة، تتطاير في الهواء كتطاير البخور، الغلمان يلهثون وراء الأنباء التي تتطاير، تتطاير من كل دار إلى دار وبيت لتدخل إلى مدرسة الشيخ زكريا، يصمت الجميع وتهدأ النفوس وهم يتطلعون في وجه شيخهم بعدما اقتحم عبد السلام الدرس وهمس في أذن الشيخ، يتطلعون في قسمات وجه، البعض يتساءل...

- أهو أمر جلل؟

- هو كذلك، فهل يجرؤ أحد على مقاطعة الدرس إن لم يكن كذلك؟

يقطع صوت الشيخ همس تلاميذه، صوت قوي وثابت يدل على ما وراء صاحبه من أعوام ذاق فيها ما ذاق.

- لقد خلقنا الله جميعًا يا أبنائي معجونا بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والأخلاط المتباينة، من الحر والبرد والبلة والجمود والمساءة والسرور، ووهب لنا ميزان العقل وبصيرة القلب للتدبر، فمن أحسن فقد أحسن لنفسه ومن أساء فقد أساء لها، أستغفر الله العلي العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، هكذا أنقضى درس اليوم وإن شاء المولى لنكمل الغد.

اتكأ الشيخ الجليل على عموده الرخامي وأخذ ينظر إلى أعلى وهو يسبح، ومن حوله أصوات وهمس الطلاب وهم ينصرفون، أخذ يغمض الجفن وهو يردد «اللهم لا اعتراض على حكمك، اللهم ارحمنا و ارحم أهل هذا البلد وهون علينا تقلب الدهور».

وقف الشيخ بعد قعدته مناديا على خادمه عبد السلام ليساعده على الصعود إلى صومعته التي بات يقضي بها أغلب أوقاته، ليأتيه صوت مباغت قادم من الرواق الخارجي للمدرسة...

- إن كان عبد السلام بالخارج، فهل لي أن أكون خادما للعالم الجليل؟

يلتفت الشيخ بعدما علت الابتسامة على وجهه..

- لقد خدمتك أنت وأخيك صغيرين، لكي تخدماني وأنا شيخ كبير.

اندفع يحيى مقبلًا ليد والده، ثم أخذ بيديه ليعتليا السلم الخشبي...

- إن عبد السلام بالخارج يتحدث مع العامة كعادته.

- لعل الحديث اليوم يا ولدي غير كل حديث.

- يا والدي عادة العامة الحديث.

- لعل لا يملك عبد السلام أو غيره من عامة المحروسة سوى الحديث.

أجلس يحيى والده على مقعده الخشبي الضخم وهو يتطلع إلى الطاولة وما عليها من كتب وأوراق، ثم بصوت به شيء من الأسف...

- قد أتفق معك أن ما سمعته خطير، أحقا بعد زواج فريدريك وإليزابيث قد يشنوا حملة على غرناطة؟

- حدثني قبل ذلك عن حال الأندلسيين الذين قدموا بالأمس.

- صادفتهم بالأزهر بعطفة المغاربة، ولكن ما يقال من أخبار مخيف.

- لم يعد شيء مخيف، تلك أقدار ستطولنا جميعًا.

دائـمًا تأتيـه كلـمات والـده صادمـة، مخيفـة، كأنـه يقـرا شـيئا مسـتورًا أمامـه، أخـذ يحيـى ينظـر إلى والـده الـذي أخـذ في القـراءة غـير مبـال للحديـث الدائـر بينـه وبـين ولـده، كـما لـو كان يتحاشـى الحديـث، بينـما هـو يتأمـل صومعـة والـده التـي طالمـا رآهـا، في كل مـرة يدخلهـا ويتطلـع فيهـا كـما لـو أنـه يراهـا أول مـرة، مـا هـذا المكان الـذي فضـل والـده الحيـاة فيـه عـن أي مـكان آخـر، غرفـة فسـيحة غطـت حوائطهـا مجلـدات مـن الكتـب لا حـصر لهـا، بهـا سريـر مـن القـش وطاولـة وكـرسي، فـلا شـيئًا أكثـر مـن ذلـك، رائحـة الحـبر والأوراق هـى الطاغيـة عـلى المـكان، هـل هنـاك معنـى لـكل هـذا؟ هـل والـده يـرى العـالم مـن حولـه مـن تلـك الصومعـة، هـل الحيـاة مـا نـراه أو إنهـا شيء آخـر مختلـف نكتشـفه يومًـا بعـد يـوم، أفـاق مـن شروده وأعـاد السـؤال عـلى والـده...

- هل يمكن أن تسقط غرناطة؟

لم يرفـع الشـيخ عينيـه عـن كتابـه، ولكـن بإجابـة مقتضبـة أجابـه.

- قل ماذا بعد غرناطة؟

انقلب وجه الفتى وضاقت عيناه الزرقاء، بدا رافضًا حتى التفكير في الأمر...

- لا يا والدي، نحن دولة قوية والسلطان قايتباي أعاد الكثير من أمنها وقوتها.

- لو هذا رأيك، إذن أنت تعتمد على البصر لا البصيرة.

- بصوت تملوه الحدة... ألست تتفق معي أن العامة حالهم أفضل بكثير الآن، ألم تكن تحدثني عن الفساد قبل اعتلاء السلطان، حجم الفتن التي وئدت، وعبث الأمراء في الأسواق الذي قل، ألم تحدثني من قبل عن الفساد والغش وسك العملات المنقوصة. سكت قليلا كما لو أنه يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع والده... الدولة تعود يا والدي ونحن نختلف عن الأندلس.

- تتحدث كثيرًا، قالها مبتسمًا، تلك عادة الشباب، معك في كل ما قلت وأنت تعلم علاقتي بالسلطان منذ أن كنا صغارا، ولكن أنت قلتها، لم ينتهى كل الفساد، ولكن إلى متى سنصمد؟

صدمته الكلمات ثانية، تستوقفه الكلمات، يخطو بقدميه إلى الخلف محاولا أن يجد لظهره متكئًا، ينظر إلى والده الذي أخذ يبحث بين الأرفف عن ضالته...

- دائـمًا تخيفنـي كلماتـك عـن المسـتقبل، ولكنـى أعلـم أن مـصر تختلـف عـن الأندلـس.

- لا يمكـن أن نهـرب مـن الحقيقـة يـا ولـدي، فالمصـير واحـد والـكل سـيذوق منـه إن لم نسـتيقظ.

أنهـى الشـيخ بحثـه بـين الأرفـف، ثـم محـاولًا أن يغـير الموضـوع وبصـوت مداعـب...

- قـل لي مـا أتي بـك اليـوم إلى مدرسـتك القديمـة، هـل فقـط للحديـث عـن الأندلسـيين؟

- لا شيء، بـل أردت أن أعلـم إن كنـت سـتحضر حفـل السـلطان بالغـد؟

- أهذا ما جاء بك؟

انقلـب وجـه الفتـى مـن الوجـوم الـذي كان عليـه منـذ قليـل إلى الابتسـام، متسـائلا بـشيء مـن المكـر...

- كنـت أريـد أن أعلـم إن كنـت سـأصطحبك باكـرا مـن عدمـه؟

- ومـا يعنيـك في ذلـك؟ إن كان ذلـك كنـت سأرسـل لـك مـن دون شيء. سـكت قليـلًا.. أنـت تعلـم جيـدا أني لا أحـضر مثـل تلـك الحفـلات.

- كيف هذا، لو قررت الذهاب، أكيد سأحتاج بعض الأغراض لهذا الحفل.

- وماذا لو قررت عدم الذهاب؟

تقدم يحيى حتى خطا إلى جانب والده وهمس في أذنيه متحاذقًا...

- أعلم أنك ترفض الحضور في تلك المناسبات، ولكن أعلم أيضا أن هناك رسول جاءك من السلطان يحثك على القدوم في تلك المرة.

توقفت عين الشيخ عن المطالعة ثم نظر إلى ولده مبتسمًا وهو يحدث نفسه بصوت عال...

- لا أحد يعلم بهذا سوى عبد السلام، ثم سكت قليلًا، لا يمكن أن يكون عبد السلام الواشي، بل هو صديقك المملوك طومانباي، لعله علم من مولاه الغوري بأمر الرسول. ثم ابتسم ابتسامة أظهرت ثناياه، لكنك لا تعلم ما كان ردي علي هذا الرسول؟!!.

تفاجأ يحيى بالرد الذي لم يتوقعه، طارت كل آماله فى حضور حفل السلطان، كم يتمني حضور هذا الحفل، كم يعشق تلك اللقاءات، خاصة بكونه ابن الصديق الشخصي للسلطان، كم يهوي الجلوس بين رجال السياسة والقلم

ليعلم ويتعلم، كم يهوي العاب الحفلات من لعب للكرة والمبارزة في الساحة رغم رزانته في كثير من الأحيان إلا أن عرق أبن البلد يستهويه ذلك، فهو يرى نفسه مصريًا حتى النخاع، وأن عشرته بالمصريين جعلته يرى ويعي حقيقة الأمور، فذلك يجعله سعيدًا دائمًا بإذلال أولاد المماليك المتعاليين على خلق الله فى ألعابهم وسط إحتفالاتهم، فكرهه لكل ظلم واقع عليهم يجعله سعيدًا بالتشفي فيهم في كل نزال وكل حفل، كما يعلم أنهم يكرونه أيضا يعيبون عليه إنه يحاكي المصريين ويقل من نفسه فى معاشرتهم بعكس أخيه صلاح، يفضلون صلاح عنه، لكنه دائمًا يهزمهم في أي نزال كأعتى فارس.

لم يطل الشيخ حيرة ابنه فبادره بالإجابة دون أن ينظر إليه أو يفيض عليه بالكثير، بل بهدوئه المعتاد، أجابه بأن يجهز نفسه للغد لكي يصحبه إلى حفل السلطان، ثم أشار بيداه معلنًا انتهاء الحديث وهو لازال يقرأ في كتابه.

من بركة الرطلي وحتى قلعة الكبش رحلة طويلة يقطعها يحيي على جواده مرورا بالشارع الكبير، يتخللها المرور على أطياف وبشر كل في حرفته أو كاره، يبذلون الجهد والعرق الأشبه بطين الأرض التي جاءوا منها، ليحفروا في أيديهم وجبهاتهم شقوق العمر والآلامه، كفاح يومي، تتشابه فيه

الوجوه في تلك الرحلة مرورا من النحاسيين حتى سوق السلاح ثم المغربليين ووصولا إلى بركة الفيل، لتختفي ملامح الشقاء شيئا» فشيئا» وتحل بدلا» منها الأغصان المثمرة بألوان الفاكهة المبهجة، فكل التناقضات بالمحروسة.

يكمل مسيرته بين تلك الحدائق الثرية، حتى نهايتها لتقل ألوان البهجة شيئا فشيئا إلى أن يحل لون الصخر المقابل لتلك الحدائق، وصولا إلى الجبل الشاهق والذي يسمى بجبل الكبش، أو كما جاء في بعض الأثر بجبل يشكر، نسبة إلى كليم الله موسي عليه السلام الذي شكر ربه عليه واستغفره، ولعل تلك الرواية ما دفعت أحمد بن طولون بزمان في أن يقيم جامعه ومدرسته عليه، ثم أنشأ بعد ذلك مدينة بأكملها لعسكره سميت بالقطائع، لا يطولها الفيضان، ولكن دوام الحال من المحال، إذ انتهى أمر المدينة بانتهاء دولته، وعاد المصريون ليسكنوا هذا الجبل، بل أصبح حكرًا لهم، قلما صعدت عليه أكثر كلما قلت الألوان المبهجة، اللون الغالب فيه هو اللون الأزرق، لون البؤس والشقاء، وأصبحت الكبش قلعة طبيعية للساكنين بداخلها. كم شهد هذا الجبل الكثير والكثير من مغامرات المصريين وأولاد البلد ضد الكثير من المماليك الذين افتروا وطافوا في الأرض فاسدين.

قد يكون هذا هو المكان الذي يشعر فيه يحيى حقًا بأنه مصري، وقد يكون أيضا المملوكي الوحيد المسموح له بالصعود إلى تلك الحدرة، بل أن الجميع يتعامل معه أيضا على أنه مصري، فهو الصديق الأقرب للعياء الذين بهروه بألعابهم وهو صغيرا»، بل وصادق أحد أبنائهم بالدراسة وصارا رفيقي درب، فتعلم منهم بعض ألعاب العياء التي هي حكر على العياء وحدهم، إرث من المبارزة وخفة الحركة ولعب الدبوس، فن التحطيب وفن التخفي والتنكر، هنا يحيى واحد منهم، وهنا أيضا لا يجرؤ أي مملوك أو فارس مهما كانت درجة شجاعته أو تسليحه بأن يخاطر بدخول الكثير من مناطق وحواري الجبل، فالاقتراب خطر يقيني قد يذهب بالمغامر إلى داهية تودى بحياته، فالمعركة هنا غير أي نزال، فقد لا يتوقع الفارس وهو فوق جواده بأن يلقى عليه سيل من الماء المغلي من قبل نساء الحي، فما بالك برجاله وعيائه والشطار المحصنين بمغاراته، حتى الأطفال الصغار، فبقليل من الفلفل الحار أو عصا مدببه في مؤخرة الجواد كفيلة بأن يرى الفارس ما لم يراه من قبل في ركوب الخيل، فأصبحت عادة لدى يحيى ممزوجة بحالة من التلذذ في كل مرة يهم فيها للصعود إلى حدرة الكبش من ناحية جامع طولون، أن يتلفت يمينًا ويسارًا، يصول صوت بداخله يصرخ، هل

من مملوك أو أحد أولادهم قادر على تخطي هذا المكان؟ هواء منعش يدخل إلى صدره وهو يتلذذ بإجابة السؤال، وهو يرى الضيق في عيون المتربصين من المماليك.

***

5

قلعة الكبش

تتشابك الأبواب والبيوت كأنها أحجار وضعت بجانب بعضها البعض، تتشابه في الحجم، تتراص دون تساوي، سلسله متشابكة من علب الخشب والأحجار مختلفة الأحجام مرصوصة يكاد القانتين بداخلهم لا يعرفون معنًا لكلمة حرمه الدار، الكل عام، الكل على المشاع، لا يوجد أي فسحة من الانفراد بالذات في تلك السكنى، ولكن يظلون متشابهين في حالة البؤس، يتقاسمون أمراضهم وجهلهم، الكل عوام لا كبير ولا صغير إلا بالسن أو بالأفعال، يحيون دون عبء للغد، فاليوم عندهم أهم من الغد، أصبح مبدأ العيش أنه طالما استطاع أن يقهر يومه فهو قادر على إخضاع الغد مهما بلغت وقائعه.

أخـذ يحيـى طريقـه وهـو يتطلـع إلى وجـوه الأطفـال التـي تبتسـم لـه، يتسـكعون أمـام بيوتهـم بملابسـهم الرثـة، يتشـاجرون أحيانًـا، يتشـاطرون مـا يحصلـون عليـه أحيانًـا أخـرى، فجـاة يـصرخ أحـد الأطفـال بعدمـا سـمع صيـاح العيـاء، ينطلـق الأطفـال مهرولـين إلى مـكان الحلقـة التـى يبـدأ فيهـا العيـاء تمارينهـم في السـاحة بالقـرب مـن درب السـاقية أعـلى التبـة.

تتصاعـد الأتربـة مـن داخـل الحلقـة البشريـة التـى اكتظـت بالناظريـن، يتلاحمـون، فلـم يتركـوا مكانـا لقـدم، يتزاحـم الجميـع، الأطفـال يشـبون يحاولـون النظـر داخـل الحلقـة التـى بـدأ فيهـا النـزال وهـم يـرون العصـا وهـى تنهـال عـلى العصـا، الواحـدة تهـوي عـلى الأخـرى، تترافـع الأيـدي، يـدور المتنافسـان وسـط الحلقـة، يتربـص كل منهـما بالآخـر، يـدوران في الحلقـة الضيقـة، يحـاول الخصـمان أن يتصيـدا أي لحظـة سـهو مـن الآخـر، تنهـال العصـا مجـددًا فتحـدث فرقعـة تسـخن الـصراع، تترافـع الأيـدي مجـددًا معلنـة عـن النديـة ومقاومـة كل طـرف للآخـر باسـتماتة، فيصيـح الرجـال ويشـهق الصغـار مـن الحماسـة، فيطـول النـزال، وتتسـارع الخطـى وتكثـر الفرقعـات، تنـزل العصـا بقـوة لتهـوي عصـا رجـب وتخـور معهـا قـواه، يندفـع علياّ نحـوه ليسـدد لـه ضربـة حـاول بهـا أن يحسـم النـزال،

فالثانيـة والثالثـة، حتـى تطـير عصـا رجـب، يصـول عليـاّ وسـط الجمهـور وهـو يرفـع عصـاه لجماهـيره المحتشـدة، ترتفـع معهـا أصـوات الهتـاف والمـدح والزغاريـد التـي جاءت مـن المنـازل المجـاورة للحلقـة، ينحنـي عليـاّ ليلتقـط عصـا صديقـه وزميـل دربـه، يتعانقـان ثـم يسـيران معـا مـن إحـدى فتحـات الحلقـة وسـط تصفيـق الجميـع، ينتهـي النـزال ليجـد عليـاّ صديقـه يحيـى يرقبـه عـلى بعـد أقـدام مـن الحلقـة وهـو يصفـق ويصيـح لهـما، يتبـادل الصديقـين العنـاق، ينـزوون عـلى إحـدى حـواف الجبـل ينظـرون خلفهـم لبسـاتين بركـة الفيـل الخـضراء...

- هلا بالحبيب ابن الحبيب، أي شرف حظينا به اليوم؟

- اشـتقت لتلـك الألعـاب، عـلى فكـرة مسـتواك تحسـن بعـض الـشيء.

قالهـا ضاحـكا هـو ينظـر إلى صديقـه الـذي ظهـرت عليـه ملامـح الإرهـاق وهـو يمسـح عرقـه.

- أين كوب الخروب الخاص بي؟

- يـا رجـب أحـضر بعـض المـاء بالنعنـاع وشراب الخـروب مـن الـدكان، ثـم التـف إلى صاحبـه.

- الآن أخـبرني ألم تقـل إنـك جالـس بالوقـف حتـى نهايـة الأسـبوع.

- بلي قلت، لكن غدًا حفل السلطان وكان لابد لي من شراء ثوب جديد.

- آه، حفل السلطان، متى أنول هذا الشرف مثلك أيها المملوك.

- أنا مملوك يا علياّ، قلها ثانيًا وسأجعل منك عبره أمام الجميع.

- إذن أنا المملوك، لا تنفعل.

ضحكا كما هي عادتهما في سمارهما، ثم تبادلا الأخبار، يظل يحيى الأكثر علمًا وإلمامًا بحال العوام رغم غيابه بالوقف في كثير من الأحيان، إلا أن علياّ كان يعطيه كافة الأخبار بحجم علاقاته بالعياء والشاطر حسن أسطورة العوام...

- أخبرني، لماذا لا يوجد في الساحة غيرك أنت ورجب؟

- البقية في الجبل في زيارة للريس حسن الجني، ألم تسمع عن العركة الماضية؟

- أي عركة؟

- خلال اليومين الماضيين، حدثت مناورات بيننا وبين صالح أغا.

- ابـن السـلحدار! قالهـا ثـم سـكت قليـلًا، لذلـك رايتـه اليـوم يتربـص بمدخـل الجبـل.

- وهل رآك؟

- نعم وكان ينظر لي بغيظ شديد، الآن فهمت.

- شـاب ممـروع، يمتلـك الكثـير مـن الرجـال والكثـير مـن الـشر معًـا.

- يكفيه والده أغا السلحدار ليتعلم منه كل قبيح.

أخـذ يحكـي علياّ عـن العركـة التـي حدثـت بالبركـة، فأعلمـه أنهـم قـد نزلـوا منـذ أيـام إلى البركـة لقطـف بعـض الثـمار، وعنـد عودتهـم اصطدمـوا بصالـح السـلحدار ورجالـه.. سـكت يسـترجع الواقعـة بتفاصيلهـا ثـم تحـدث قائـلًا:

- هجـم علينـا ودار قتـال وحاولـوا أن يحاصرونـا حتـى لا يفلـت أحـد منـا، كـدت أن أهلـك يومهـا يـا يحيـى.

- وكيف تمكنتم من الهرب؟

- انشـقت الأرض بالريـس حسـن يظهـر فجـأة ومعـه عـدد مـن رجالـه.

- حسن الجني؟! ببركة الفيل وصالح السلحدار.

- لا تصدق، قالها ضاحكًا، استحر القتال وانكسر صفهم ،وكاد أن يهلك صالح فلاذ بالفرار إلى الشرق ليستنجد بحرس أبيه بباب السلسلة.

- متى حدث هذا بالضبط؟

- أول أمس بعد المغرب، ولكن لا تقلق فالرد قريب جدًا.

- الآن فهمت لماذا كان ينظر لي بهذا التحدي؟

- عليك أن تحرص منه يا صديقي، لا تنس أنك المملوك الوحيد الذي يتصرف بهذا الشكل، أنت الوحيد الذي تعامل من جانب ولاد البلد على أنك واحدا» منهم.

بادره يحيى بنظرة تنم عن الغضب، معاتبًا...

- ستظل أجهل أهل عصرك ما دمت تنكر علي كوني مصريًا.

ضحك علياّ ضحكة انتصار...

- اهدأ يا مصري وأخبرني ماذا تعتزم للغد؟

وقف يحيى ثم أدار وجهه إلى خلفيته الخضراء وأخذ يتطلع إلى البساتين...

- غـدا سـأقابل السـلطان قايتبـاي، سـأجلس غـدًا عـلى الدكـة السـلطانية وأسـتمع إلى حديثـه.

- حديث الكبار.

- حديـث الكبـار ونفـاق الأمـراء وزينـة الفرسـان فـوق خيولهـم.

- الم يشبعوا هؤلاء القوم ويتركوا بعض الفتات لنا.

- نعم، بل جميعهم ينعمون ومع ذلك لا يكتفون.

- وماذا عن السلطان؟

- أعتقـد أنـه مقيـد بهـم، فهـو يجلس فى قلعتـه يـرى الأمـور مـن أعـلى، وهـم يسـعون للإسـقاط الدولـة.

- ألا يكفيهـم كل هـذا النعيـم، ولكـن حسـن الجني لهـم بالمرصـاد.

أتـى رجـب حامـلًا الخـروب والمـاء ويضعهـما أمامهـما عـلى جـدار السـور الجالسـين عليـه...

- تفضـل يـا سـيدي يحيـى، ألم تشـاهد العركـة بينـي وبـين عليـا ؟، ثـم وقـف بحركـة استعراضية.. لقـد كـدت أن أهزمـه لـولا الزحـام، أنـت تعلـم أنـا لا أجيـد اللعـب أمـام العامـة.

- أعلم يا رجب، كما علمت أنك كدت أن تهلك أمام صالح أغا أول أمس.

- سيكون له يوم وسأخبرك به عندما يحين.

ضحك عليا ويحيى ثم أكملا شرابهما... وقف يحيى ليستعد للرحيل.

- قاربت على المغرب وعلي أن أرحل.

- بادره عليا ساخرًا، أتريد حراسة معك في النزول حتى لا ينفرد بك صالح أغا.

ركب يحيى فوق جواده، ناظرا إلى صديقه قائلا بما أشبه الغناء.

حصـــاني كان دلال المنـايا

فخــاض غبارهـــا وشري وباعا

وسيفي كان في الهيجا طبيبا

يداوي رأس من يشكو الصداع

***

6

ساحة الرميلة

لا تزين ساحة الرميلة بتلك الزينة، ولا تفرش الأرض بالرمال إلا عند نزول السلطان من القلعة، هكذا تهامسوا العامة فيما بينهم، وهم يرون العمال والعبيد منذ شروق الفجر يقومون بأعمالهم للانتهاء من التجهيزات الخاصة بالحفل الذي أعده السلطان قايتباي، العبيد يلهثون لإنهاء أعمالهم، منهم من يعلق الزينات والأعلام، ومنهم من يسوي الأرض ويمهدها، كتيبة من العبيد يبدرون الرمال الناعمة، وخلفهم كتيبة أخرى يرشون الماء الممزوج بالريحان والنعناع ليثقل الرمال وتفوح الساحة بالروائح العطرة، امتدت أعمال التحسين من مدرسة السلطان حسن وحتى القلعة حيث باب العزب، ذلك الباب الواقف وسط الجبل بشموخ وحوله أبراجه الحصينة، ينادي العوام

أن السلطان سيخرج من هذا الباب مع أمرائه، إنه المشهد المهيب الذي يتطلع الجميع إلى رؤياه، أهل القلم ووجهاء القوم، هو يوم من الأيام التي يتحدث عنها العوام لأسابيع، إنه حدث ينسيهم بؤسهم ويلهيهم عن الحياة إلى حين، يتبادلون الحكايات عما سار من جانب السلطان، ومباريات الحفل، من هزم من في العاب الفروسية، ومن أنعم عليه السلطان من وجهاء القوم أو الأمراء، يوم من الاستعراضات يبدأ منذ الصباح وينتهي بغروب الشمس.

تمضي الساعات وهم يعملون بأسرع من الخيال قبل أن يجتمع الجمع ليلهون غير مبالين بمن عانى من بؤساء أو كم من عرق أهدر، ليمهدوا كل هذا الترف.

تعالى صهيل الخيول وغبارها، تتعالى الأصوات معلنة عن بدء توافد أكابر القوم من الأمراء، يوفدون الواحد تلو الآخر، وجوه محمرة الوجه، وعليهم زينة الدنيا مافيها من مرح وكنوز، أحزمة من ذهب مرصعه بالماس، أحجار كريمة بأحجام مختلفة تتوسط العمة أعلى كل جبهة تكشف عن مراتبهم، حلالات من حرير بخيوط من ذهب يلتقون، كرنفال من الألوان، يتحدثون إلى بعضهم البعض، يتبادلون الابتسامات بالظاهر ولكن بالباطن كل واحد منهم يتربص بالآخر، ألوان مزركشة كألوان الطاووس بها

يختالـون، والمصلحـة والعـداء تجمعهـم، يتلفتـون بتعـالي لعيـون العامـة الزائغـة مما تـراه.

تفتـح أبـواب القلعـة ليخـرج موكـب السـلطان في كامـل حلتـه، يرتـدي عمامتـه السـوداء التـي ألبسـها إيـاه مـولاه المتـوكل عـلي الله بـن يعقـوب بـن المتـوكل خليفـة المسـلمين العبـاسي، عندمـا كان هنـاك دولـة عباسـية في أحـد الدهـور، يتوسـط أمرائـه بوجـه يتحـلى بالـورع، تعلـو وجهـه ابتسـامة مقتضبـة، كأنـه يخفـي وراءهـا شـيئًا، بجـواره الخليفـة العبـاسي وخلفهـم القضـاة الأربعـة يتبعهـم أمـير السـلاح وغيرهـم مـن كبـار رجـال الدولـة، تـتردد الهتافـات مـن كل جانـب وركـن، أن يطيـل الله مـن عمـر السـلطان، وهـو يلـوح بيديـه رادًا عـلى التحيـة حتـى يصـل إلى دكـة السـلطنة، ثـم يلـوح بيديـه ليعلـن بـدء الاحتفـال.

كان الحشـد بـكل مـا فيـه صـورة تعكـس للأذهـان حجـم هـذه الدولـة، ومـدى قوتهـا ونفوذهـا، رغـم السـوس الـذي أخـذ يسـوس عظامهـا، إلا أنهـا ظاهـرة أمـام الجميـع أنهـا مهابـة يراهـا البعـض كسـليمان العظيـم، الـذي ظـل جسـده مهيبًـا لعبيـده مـن الجـن حتـى نخـر النمـل عصـاه، ولـولا ذلـك مـا كانـوا يعانـون، الـكل يراهـا مـن بعيـد ويأتيهـا معكوسًـا بتاريخهـا وحجمهـا، فحـضر بجانـب السـلطان أحـد الضيـوف

قـادم مـن البندقيـة الحليـف التجـاري الأول للمملكـة، وآخـر قـادم مـن الهنـد، وآخـر مـن الصـين لزيـارة الإمبراطوريـة التـي تحتكـر طريـق التجـارة الأهـم بالعـالم.

إن كانـت تلـك الدولـة قـد اسـتطاعت أن تتحـدى لأكثـر مـن القرنيـين كل العواصـف التـي عصفـت بغيرهـا، مـازال هنـاك رجـل واحـد يملـك الـروح، يحـاول أن يعطـي لهـا أي محاولـة أخـرى للبقـاء، لكـن كـم مـن الأيـادي تسـعي للهـدم وكـم مـن المتربصـين، فالـكل يمـرح وسـط الاحتفـال ولكـن كـم مـن الأسرار تظـل مدفونـة داخـل السرائـر.

أخـذ الشـيخ زكريـا يحـدث نفسـه بـكل تلـك الأفـكار وهـو في طريـق صعـوده إلى سـاحة الرميلـة، يشـاهد الأمـراء فيبادلهـم الابتسـام بهـدوء، وبينـما يسـير إلى جـواره أبنيـه، يتبعانـه في صمـت، تاركينـه لأحاديثـه الداخليـة، يتلفتـان كمـن أصابهـما مـس مـن كثـرة الحركـة والزينـة والمهرجانـات التـي تلعـب مـن حولهـما، يتطلعـان في الخطـى للقـاء السـلطان، حتـى وصلـوا إلى آخـر السـاحة وأصبحـوا عـلى مرمـى البـصر مـن الدكـة.

- أسـتأذنك يـا والـدي، سـأترك لـك يحيـى وسـأذهب للقـاء بعـض الرفـاق.

أشار الشيخ إلى ولده بابتسامة وهم إلى الصعود ومعه يحيى لمقابلة السلطان، أخذ يصعد السلالم وهو يتمتم بصوت خافت «دخلت عليكم وأعوذ بمالك الملك، معي يا الله بشفاعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وشجاعة سيدنا علي»، حتى أصبح في مواجهة السلطان مباشرًا فانحنى وخلفه يحيى يتبعه.

- أسعد الله صباحك مولانا السلطان وحفظك الله وصانك لعبادك.

قام السلطان من مجلسه لملاقاة صديقه القديم...

- بوركت يا شيخ زكريا.

أمسك بيديه ليجلسه بجواره، ثم أشار باستمرار العروض.

تقدم الساحة عشرة من الفرسان، انقسموا إلى فريقين، بعضهم يمسك بسرج جياده المطعم بالأحجار الكريمة، وقد أمسك الجميع عصا سميكة في اليد اليمني تزيد سماكتها بالأسفل، فأصبحت الساحة مسرحًا لمباراة كرة بين الفريقين، بدأ الجميع بالهتاف والتشجيع، بينما لاعبوا الفريقين يصولون داخل الحلبة بجيادهم محاولين التحكم بالكرة، يقومون بتمريرها فيما بينهم لتسجيل هدف بالفريق

الآخـر، الجميـع يتابـع عـن كثـب، الجميـع عـلى رؤوسـهم الطـير، إلا اثنـين بقيـا شـاردين عـن العـرض يتحدثـان بصـوت خافـت، ليـس وحدهمـا المنشـغلين بأمـر آخـر، بـل ظـل يحيـي يتابـع بطـرف عينيـه حديـث والـده الجانبـي مـع السـلطان، مـن الناحيـة الأخـرى كان الأمـير سـيباي البرديـسي يحـاول هـو الآخـر أن يتلصـص ويـسرق السـمع.

بمجـرد انتهـاء المبـاراة وقـف السـلطان ثـم طلـب مـن الشيخ زكريـا أن يسـير معـه، أخـذ بيـده كأشـقاء، سـارا في اتجـاه بوابـة السلسـلة شـمالا، الجميـع وقـف ينظـر لهـما حتـى نـادا رئيـس السـلاح باسـتمرار العـرض.

كان آخـر لقـاء قـد جمعهـما منـذ سـنوات، يتذكـر زكريـا هـذا اليـوم جيـدًا، كان آخـر رأي أبـداه لقايتبـاي كصديـق، وكان قايتبـاي يستحسـنه إلا أمـراء القـصر، وبعـد ضغـط جعلـوا قايتبـاي يعـدل عـن رأيـه ويرضـخ لهـم، كان الموضـوع خـاص بالتجريـدة التـي أعـدت لتأديـب حسـن الطويـل زعيـم إمـارة ذي الغـار عـلى حـدود المملكـة مـع دولـة الفـرس، بقيـادة يشـبك الـدودار، كانـت الأفـكار تتطايـر بينهـما أثنـاء السـير...

- مـضى عمـر عـلى حديثنـا يـا صديقـي، كـما لـو أنـك أثـرت الحديـث معـي وقـررت مقاطعتـي.

- حاشا الله يا سمو السلطان، لكن الأيام دارت ولم يعد لي قول أقوله سوى علم الفقه.

- لكن هذا لا يمنع أني دائمًا أحتاج لمشورتك؟

ابتسم زكريا وحاول أن يواري ما بداخله، أخذ يدعم حجته...

- لسموك رجال، يقفوا جميعًا ينتظرون الإشارة لإعطائك الرأي.

تقدم السلطان حتى وقف مواجها لزكريا، وبصوت يحمل الغضب...

- أنت تعلم ما يحاك في الخفاء من رجالي والأمراء.

لم يجد زكريا مفرًا في أن يبسط الحديث، كما تعود قديمًا مع صديقه، فقد كانا قديما جنودا وقوادا وأمراء يتعاهدون بينهم على الصدق والإخلاص، صداقة رق تحولت إلى ما أشبه القرابة لطفلين فقدا وطنهما وأهلهما.

- ألم أرشدك من قبل، إن مغامرة الأمير يشبك غير محسوبة العواقب، لقد قتل، وكان أكثر رجالك إخلاصا، وانهزم الجيش المصري من إمارة ضعيفة، وأطمعت الجميع فينا.

- والآن أطلب منك أن ترشدني.

- رجالـك يـا قايتبـاي، الكثـير منهـم عـلى ود برجـال الـروم، الجيـش منقسـم بـين أمـراء وأتبـاع، أري الـروح تطلـق صحـوة المـوت، سـكت لحظـات... ثـم أكمـل، سـترد عـلي و تقـول إنـك تحـاول الإصـلاح، لكـن الأمـر أكـبر منـك يـا مـولاي.

أقـترب وجـه قايتبـاي ومـن وجـه صديقـه، نظـر إلى عـين زكريـا، حـاول أن يشـكك في أي ممـا قـال، لكنـه لم يسـتطع الجـواب، المـرض يسـتشري وهـو يعلـم ذلـك، لكنـه لم يسـتطع عـلى رده، اقـترب زكريـا مـن قايتبـاي إلى أن بلـغ أذنيـه.

- لابـد أن تتجـه إلى العـوام، فهـم طـوق نجاتـك ونجـاة تلـك الأمـة، هـم عزوتـك الحقيقيـة الآن أمـام تلـك المهالـك وسـندك ضـد أمرائـك.

- أرى أنـك تحمـل الكثـير داخـل صـدرك، لا يجـرؤ غـيرك عـلى الحديـث معـي هكـذا، ابتسـما وقـد عـدلا وجهتهـما إلى طريـق العـودة ثـم أكمـل قائـلا».

- أنت تعلم يا صديقي أني ورثت دولة مثقلة بالهموم.

- أعلم يا مولاي، لكن الوقت ليس في صالحنا.

- بلى، الوضع يزداد سوءًا، يكفيني ضبط الأسواق والفساد حتى الدفاع وحماية الثغور من الأوربيين وفرسان الإسبارية، أحاول أن أوحد جيش مصر ليكون درع الإمبراطورية، الأوربيين يكتشفون أنواعًا جديدة من الصناعة وأنواع من صهر المعادن يحدثون بها المدافع وأنت تركتني وسط هذا واعتزلت.

- بل أعمل في خدمتك وأقوم بأجل خدمة لك، وعندما أنير عقول العامة ويزول الظلام من حياتهم، وتزول الأمراض من أبدانهم، سيكونوا الخط الأخير القادر على الوقوف معك.

***

7

النزال

كان يحيى يقف بين الجمع، أسفل السلم الذي يربط الساحة الرئيسية والدكة السلطانية، ينتظر والده، يريد أن يستاذن مثل أخيه، يتشوق للألعاب بعدما أنفرد الحديث بين والده والسلطان، زائغ البصر بين الأمراء وهم يستعدون للمنافسات إلى أن بادره صوت من خلفه.

– تدل وقفتك والتفاتاتك على أنك أحد أولاد الشيخ زكريا.

التفت يحيى ليجد رجلًا وقورًا يبتسم له، متوسط القامة، منتفخ الوجه، وقد وقف بجواره يتطلع هو الآخر إلى الرفيقان بعد أن أنهيا حديثهما.

– بلى أنا.

- والـدك مـن أهـم المقربـين لنفـس السـلطان، لكنـه يغيـب كثـيرًا عـن القلعـة.

- والـدي رجـل مسـن الآن يـا سـيدي، هـل لي بمعرفـة الكريـم؟

قالها بحذر، فضحك الرجل ضحكة عالية.

- معـك حـق، لم تلتـق بي مـن قبـل، أنـا أغـا السـلحدار يـا ولـدي، هـل لـك معرفـة بهـذا الاسـم؟

كاد وجـه يحيـى أن يتغـير، أنقبـض قلبـه مـن ذكـره لإسـمه فقـط، لكـن بسرعـة بديهـة تغلـب عـلى نفسـه، و لكـن الأمـير بـادره...

- والـدك أبعدكـم كثـيرًا عـن معشرنـا، أرى فتـى مثلـك شـب ليقـف وهـو يتطلـع إلى والـده هكـذا وليـس بـين الرجـال للنـزال.

قالهـا كإبليـس عندمـا أغـوى آدم، قالهـا وفحيـح صوتـه الممـزوج بالسـم يخـرج مـن فمـه، كانـت كلماتـه ونظـرات عينيـه يحـاول بهـا أن يستكشـف يحيـى مـن داخلـه، يغـوص فيـه، يحـاول أن يكشـف معدنـه، بينـما يحيـى في صراعـه مـع نفسـه يتمالـك تعبيراتـه فهـو يعلـم مـن يكـون أغـا السـلحدار وكيـف اسـتطاع أن يتربـع عـلى الكثـير مـن المناصـب والألقـاب في نفـس الوقـت، فهـو قريـب مـن السـلطان بحكـم قوتـه

بـما يمتلـك مـن أمـراء إينالـيـة يدينـون لـه بالأسـتاذية، الأمـر الـذي يجعلـه قريبًـا مـن السـلطان في بعـض الأحيـان عـلى غـير إرادتـه، لم يـشرد ذهـن يحيـى طويـلًا، وكأنـه قـرر أن يبـادر هـو بالحديـث، بـل بالهجـوم وإن أمكـن، فابتسـم ابتسـامة لاذعـة يعنيهـا...

- بـل حـضرت اليـوم أبحـث عـن أفضلهـم، ولقـد سـمعت أن لصالـح ولـدك بـاع في المبـارزة والنـزال، فـلا يمنـع مـن أن نلتقـي إن كان هـذا السـمع صحيحًـا.

ابتسـم السـلحدار ابتسـامة نـصر، ثـم التفـت وراء يحيـى ليجـد السـلطان والشـيخ زكريـا أمامهـما مبـاشرة، انحنـى السـلحدار بينـما ظـل يحيـى واقفًـا متجهـمًا، لا يعلـم كـم مـن المفاجئـات التـي تأتيـه اليـوم، إلى أن أشـار لـه والـده بالانحنـاء.

- أيهما هذا يا زكريا، يحيى أم صلاح الدين؟

- هذا يحيى يا سمو السلطان.

أمسـك السـلطان بذراعيـه، يتأملـه، يحـاول أن يتذكـره منـذ رآه صغـيرًا.

- والـدك يـا يحيـى منعـك قديـمًا أنـت وأخيـك مـن معـاشرة الأمـراء والمماليـك، لكنـي أري فارسًـا ذا بـأس أمامـي.

- لي بعض المهارات يا مولاي، ثم نظر إلى السلحدار، وقد أستطيع أن أبرهن.

- بل برهن أمامي يا مولاي، قالها السلحدار كالصائد الذي ظفر بصيده.. بل أعلن عن تحديه لابني صلاح.

نزل الخبر كالصاعقة على الشيخ زكريا، أيتركه دقائق ليعود فيجده مع السلحدار، بل أسقط نفسه في هاوية، كان يحيى واقفًا يتطلع إلى والده، يحسب الموقف الذي هو فيه، بعد لذة الحماس، يأتي العقل ليدب بالجسم رعشة الخوف، كانت ذلة أوقعته في نزال سيدعو له السلطان ذاته، إنها هاوية، بل تحد لذيذ، تضارب في المشاعر، مواجهة لابد منها...

- نعم يا مولاي، قلت ذلك ولا أرجع عنه.

- ها قد أصبح لولدك يا سلحدار منافسين يطلبوا لقاءه بالميدان.

ضحك ثم عاد ينظر إلى يحيى مبتسمًا...

- لكن أتمنى يا يحيى أن تكون في حكمة والدك عند اختيارك من تنافس، ثم مشيرًا بيديه ناحية الدكة السلطانية، دعونا نجلس ونرى شباب اليوم ماذا لديهم؟

سارا حتى وصلا إلى الدكة فجلس السلطان وحوله الشيخ زكريا والأمير أغا، بينما ظل يحيى واقفًا وبداخله الآلاف الأفكار المتطايرة تضربه بلا رحمة، فقد حلم بيوم العرض السلطاني مع والده، لكن لم يشطح به الخيال أن تتم الأمور بهذا الشكل، سيواجه أرذل أبناء المماليك وأكثرهم سماجة وعلوًا، يعلم من الحكايات كم أنه خسيس، وقد لا يتردد أثناء القتال في قتله.

كم من الجيد أن يهزمه، قالها لنفسه، بل هو أمر لا مفر منه، هكذا أقر داخل نفسه، ظل يصارع أفكاره في انتظار قدوم صالح أغا للمثول أمامهم.

جاء صالح إلى الدكة السلطانية، وقدم التحية السلطانية ثم بدأ النزال بينه وبين يحيى بالعينين قبل أن تتقابل السيوف، هذا والشيخ زكريا جاحظ العينين، ينظر إلى ولده بنظرة غضب وتأنيب، يلتفت بين حين وآخر ليتابع وجه الأمير أغا، بينما الآخر أخذ يتابع نظرات الشيخ زكريا له ثم ينظر إلى يحيى وهو مبتسم، منتش، دار صراع النظرات بينهم واشتدت حواسهم جميعًا إلى أن جاء صوت السلطان حاسما لهذا الصراع ليبدأ صراع جديد.

- هذا يا صالح، يحيى ابن الشيخ زكريا، وقد سمع عن مواهبك في الفروسية وتشجع لنزالك.

- مولاي السلطان، قالها ثم انحنى مرة أخرى، بي شيء من التعجب يا مولاي، فلم أر يحيى من قبل بين أبناء المماليك، فمن أين جاء بمهارات الفروسية؟

ثم موجهًا حديثه إلى يحيى بكل ما يحتمل الكلام من إستعلاء.

- أنصحك أن تترك الفروسية لرجالها وتعود إلى الرعاع وأولاد البلد الجهلاء، فهؤلاء أقرانك، كادت كلماته أن تخرج يحيى عن سيطرته لنفسه، كاد أن يجن أمام الدكة السلطانية، بعمل قد يندم عليه عمره بطوله، كان يحاول جاهدًا الإمساك بانفعالاته قدر الإمكان، بات واضحًا حجم الكره القائم بينهما، فإنه ليس بنزال لاثنين فرسان، بل هو اقتتال ضدين، الماء والنار، النهار والليل.

- يا ولدي، قالها السلطان ناظرًا إلى يحيى، إكرامًا لوالدك قد أتغاضي عن اندفاعك فيما قلت، وقد تجلس بجوار والدك على الدكة السلطانية فتنول الفخر وتحافظ على نفسك من الهلاك.

لم يعط الشيخ زكريا أي فرصة ليحيى لكي يرد على السلطان، فكان قد سبقه بصوته الثابت...

- لا يا مولاي، إذا أذنت لي، فقد قال يحيى ما قال وليس له فخر إلا بأن يسير فيما قال.

لم يتحدث يحيى، بل ظل ينظر إلى والده وهدوءه، فقد أيقن الآن أن صراعه مع صالح تعدى لعب الهوى الذي كان يلعبه مع المماليك بالعروض السابقة، فانحنى وقد ارتسمت على وجهه تعابير جديدة، تحول وجهه إلى وجهه مقاتل، اتخذت قسمات وجه من الندية، فاحمر وجهه الأبيض، لمعت عيناه الزرقاوتان، اتجه مندفعا لاختيار درع له، بينما ذهب صالح ليعد فرسه ومن حوله أتباعه من المماليك، بينهم من يحمل سيفه والآخر يحمل له درعه.

ظل صالح يستمع إلى أحد المقربين إليه وهو يحدثه عن يحيى، أخبره أنه ليس بالجاهل بأمور المبارزة، حدثه عن إذلاله من قبل لكثير من أبناء المماليك، أخذ صالح يستمع إلى صديقه فتزداد ابتسامة غروره وهو ينظر إلى يحيى الذي وقف في الجهة المقابلة ينتظر فرسه الذي حضر، فحمل سيفه ودرعه وهم بالركوب، حتى باغته صوت...

- إلى متى ستظل جالبًا للمشاكل أينما تواجدت؟

- طومانباي، لا وقت للعتاب وصديقك على حافة الخطر.

- لا تقلق، ولكن هل تعلم أن صالح لا يبارز إلا وهو فوق جواده؟

قالها ثم انصرف حتى اختفى بين الحشود، ضغط يحيي على لجام فرسه فاندفع نحو الساحة العريضة وكلمات طومانباي الأخيرة ترن في أذنه، انطلق صفير بدء النزال وقد قرر أن يماطل قدر المستطاع بأن يطيل النزال، فليكن شاغله الأول هو إرهاقه حتى تتاح له فرصة كي يسقطه من فوق جواده، لذلك قرر أن يقسم المبارزة إلى شوطين، الأول يمتص فيها حماسة الخصم إلى أن يفقد حماسته، حتى يضيق نفسه، ثم يبدأ شوطه هو، أما صالح فكان يريد أن ينهي النزال مبكرًا، فقد بادر بكل قوته حتى لا يعطيه أي فرصه للهجوم وليضعف معنوياته عن طريق الضغط المتزايد، ظلت المحاولات مستمرة من صالح في الضغط، وظلت محاولات يحيى الدفاعية، ينزل على درع يحيى ويحيي يناوش ثم يصول ثم يهدأ، ضربات متتالية الواحدة تلو الأخرى، يشب مندفعًا ليهوي بسيفه على يحيى ويتفاداها ببراعة، هو يرى خصمه قد تخلى عن تركيزه وفقد حرصه، بات يهاجم دون اتزان من فوق فرسه، غره دفاع يحيى، وأي دفعه مباغته قد تسقطه، زاد ضغطه ومعها زاد من نقاط ضعفه، استمر صالح في الضغط وقد علا نفسه

إعلانـا عـن بدايـة الإرهـاق فنـزل بسـيفه عـلى يحيـى الـذي انحنـى بسرعـة شـديدة ليمـر السـيف مـن فـوق رأسـه، ويندفـع صالـح بـكل جسـده للإمـام ممسـكا بسرجـه، كانـت تلـك هـي اللحظـة ليحيـي، ألقـى درعـه وأمسـك بثيـاب صالـح ودفعـه للأمـام ليزيـد مـن اندفاعـه فيسـقط عـلى الأرض وسـط غبـار الرمـال وعصـف المشـجعين، ينـزل مـن فـوق فرسـه وهـو ينظـر إليـه مبتسـمًا، والثـاني ملقـى عـلى الأرض يهـم بالوقـوف وقـد غمـره الـتراب، لتبـدأ الجولـة الثانيـة والتـي كانـت بمثابـة صراع بـين الذئـب والحمـل، فقـد ظـل يبـارزه حتـى سـقط سـيف صالـح مـن يـده، فلـم يكتـف يحيـى بذلـك، بـل زاده لكـي يجهـز عـلى آخـر ذرة لكرامتـه، رمـى هـو الآخـر سـيفه وتقـدم ناحيتـه وأمسـك بثيابـه...

- الآن وقـد رأيـت عمـل الفرسـان، حـان الوقـت لكـي تـرى شـغل العيـاء.

قالهـا وفوجـئ صالـح بـرأس يحيـى ترتطـم بأنفـه، ولم يـر أو يسـمع أي شيء بعـد ذلـك.

***

8

زينب

مـرت أيـام عـلى واقعـة الرميلـة، دارت حولهـا الأحاديـث مما حـدث مـن أمـر يحيـى وصالـح، بـل امتـدت الفضيحـة حتـى قـصر الأمـير أغـا السـلحدار، زحفـت فضيحـة السـيد بـين خدمـه وعبيـده، حتـى حريـم القـصر تمتمـوا في الـسر فيـما بينهـن، أمـا صـلاح الديـن فـكان غاضبًـا بشـدة مـن أخيـه عـلى إذلالـه لصالـح بتلـك الطريقـة، أخـذت تحذيـرات صـلاح تحمـل الكثـير مـن القلـق، مؤكـدًا أن الحـرب قـد دقـت طبولهـا بينهـما، وأنـه عليـه ألا ينـزل إلى السـوق في الفـترة القادمـة، وأن يسـتقر بوقـف الروضـة والـذي حولـه يحيـى إلى قطعـة مـن الجنـة عـلى شـاطئ النيـل.

كانت تلك المدة الأطول التي قضاها يحيى بالوقف، ربما ناداه هاتف داخلي أقر بأن ينصت إلى توسلات صلاح أخيه بالاختفاء حتى يتم نسيان الموضوع رغمًا عنه، لم يطق يحيى المكوث كثيرًا، ربط سرج جواده وانطلق لزيارة صديقه عليا بعد أن أرسل إليه رسول ليقابله بخان العباس المجاور لجامع شيخون، فتوجه إلى عطفة الحدادين حيث الخان الذي اعتاد هو وعليا السمر فيه كسابق عهدهما منذ أعوام، إنها نفس الجلسة التي لم تتغير كثيرًا، ذات الجلسة بذات الأرجيلة التي يلتهمها عليا طوال جلسته، وأقداح البن اليمني التي يتاجر فيها عباس صاحب الخان منذ عقود.

ما أن ظهر يحيى حتى وقف الجميع ليسلموا على البطل، قاهر المماليك هكذا تنادوا له، يشدون على ساعده، يدعون له بسلامة اليمين...

– عشرة أيام يا يحيي، ولا حديث إلا عن مبارزتك لصالح.

– حقًا، هل انتشر الخبر إلى ذلك الحد؟

– بصوت خافت، بل ذلغ بين العياء والريس حسن الجني يريد أن يراك، قالها متلفتًا.

لم تنطق شفا يحيى أي كلمة حتى يستوعب ما قاله صديقه، ثم بصوت متقطع...

- الشاطر حسن العايق؟

- نعم هو يا يحيى.

لقد تعدى الأمر حدوده، فمنذ أكثر من أسبوع كان لقاءه بالسلطان والسلحدار، لقاء لن ينساه هو أو السلحدار، والآن يردد أسمه بين العياء وكبيرهم يطلبه.

- أخبرني ماذا قال عني؟ وماذا يريد مني؟

جاءت الفرصة لعليا لكي يطلق لسانه بحكاياته، ليحكي له كل ما قيل وكل ما حدث في العشرة أيام الماضية، أخبره بما سمع من حسن الجني عنه، وكم يود أن يلتقي به في مغارة جبل زينهم حتى لا ترصدهم العيون، ثم استرسل في حديثه عما جرى من حسن الجني وآخر ألاعيبه ضد رجال الأمير جمقق وشاهبندر التجار، فقد انتحل الجني شخصية أحد تجار الروم، وذهب إلى السوق وأدعى أنه قادم ومعه حمولة ثلاثين بعير من الغلال، ثم التقى بالشاهبندر على مدار يومين يطلب منه مشاركته بالحمولة نظير أن يشح الأسواق من الغلال حتى يحتكروا سعره، ما أن اطمئن الشاهبندر حتى طلب الجني أن يريه المخزن

الـذي سـيعد لحفـظ الغـلال ومـا أن أدخلـه المخـزن حتـى ربـط الجنـي الشـاهبندر بالأغـلال وقـام بسرقـة كل الحبـوب الموجـودة بالداخـل هـو ورجالـه الذيـن كانـوا في انتظـار إشـارته، سرق كل الغلـة الموجـودة بالمخـزن، كـما اسـتولى عـلى بعـض صكـوك الديـن الخاصـة ببعـض التجـار، أخـذ يسترسـل في الحديـث ويحيـى يتابـع بشـغف إلى أن ظهـرت أصـوات صراخ تـأتي مـن آخـر العطفـة، رجـال يركضـون في حالـة فـزع وخلفهـم خيـول المماليـك يهجمـون عـلى الحـي، يسـلبون ويحرقـون، يأخـذون مـا تطولـه أيديهـم حتـى النسـاء والأطفـال، رمـى عليـا الأرجيلـة مـن يديـه وأخـذ بيـد يحيـى صارخًـا فيـه بـأن يركـض، لم يسـتوعب يحيـى مـا يحـدث، إنـما جـرى، اندفـع وراء صاحبـه، لا يـدري مـن يهاجـم مـن، أو مـن يكـون هـؤلاء، أخـذوا في الركـض حتـى وجـدوا إحـدى الـوكالات المجـاورة اسـتطاعا الاختبـاء فيهـا مـن الغـزو القـادم عـلى الحـي.

اسـتكانا خلـف بـاب الوكالـة وهمـا يراقبـان مـن خلـف البـاب الخشـبي، رجـالا ونسـاء يركضـون في كل اتجـاه، دكاكـين تنهـب وبيـوت تقتحـم، لم كل هـذا؟ مـن هـؤلاء؟ قالهـا يحيـى مسـتنكرًا

– قـد يكونـوا أمـراء الأمـير جقمـق، قـد أتـوا قاصديـن الحـي للتنكيـل بالشـاهبندر بعدمـا بعـث حسـن الجنـي لـه بإحـدى

أوراق الشاهبندر عن رشوة قدمها لصالح أغا لشراء منصب المحتسب لصالح أحد أقاربه. وسكت يتطلع للموقف بالخارج... الأمير جقمق كان يطمع بهذا المنصب.

لكن يحيى بدأ عليه الاندهاش، يتساءل ما مصلحة حسن الجني في أن يرسل لجقمق تلك الوثيقة وهو أحد أعدائه.

- لا فائدة شخصية يا صديقي، لكن من منطق أن تضرب الظالمين بالظالمين.

هدأت الأصوات رويدا وبات الطريق خاليا من الأخطار، رأى يحيى أن يخرج ليرى ما آلت إليه حالة الحوش بعد العدوان.

خطت قدم يحيى خارج المكان وهو ينظر متربصًا في عتمة الليل الذي انعكس على الحي بعدما تحطمت معظم المشاعل التي كانت تنيره، أخذ يخطو خطواته في حذر، واحدة تلو الأخرى، مشى حتى وصل إلى أول الحوش، يتلفت يمينًا ويسارًا، يعود ببصره في كل جهة وقد سكن كل شيء، لا وجود لبشري، الجميع هاجر الحي فرارًا ينتظرون خروج المماليك منه ليعودوا بأسى لكي يلموا ما بقي من متاعهم المبعثر، يعود ببصره ناحية اليمين،

ليقف متفاجئًا وهو يرى شبحًا يقف أمامه في الظلام في ثبات تام، خيال فتاة وقفت مثل فريسة فقدت القدرة على النطق أو الحركة بعدما تمكن منها صائدها، رداء أسود يغطي جسد من الرأس حتى القدم، عينين سوداء تتجلي وسط الظلام بلمعة أحس بها يحيى وتلقاها لتسكن داخله، عينين خائفة، تخرج من الظلام لتضيء الكون من حوله، تشعل النار بداخله، حالة جذب أم حالة مس لا يدري ما أصابه، كل ما يدري أن رائحة عبير غزت المكان تفوح بأنفه، لا يشتم سواها، اقترب منها، أخذ ينظر إليها وهي ترتعش في خوف، تنظر إليه وهي مكتومة الأنفس، فقد فقدت النطق من الخوف، امتلأت الجفون بالدموع، أخذت تنهمر دون أن تشعر، صرخ عليا مجددًا بعدما رأى ثلاثة خيول قادمة من أعلى الطريق، وصوت صياح وصراخ لما خلفوه من دمار...

لم يدرك يحيى نفسه إلا وذراعه يمسك بالفتاة، فتمنعت وحاولت أن تصرخ، لكنها فقدت النطق، صنم أصم لا يقوى على شيء، انجذبت بسحبته لجسدها الضعيف لتجد نفسها داخل دكان مظلم تفوح منه رائحة العطارة من كل صنف، لكن ظل عبيرها فى أنفه وانفاسه تعلو وسط السكون، لحظات باتت بجواره يسمع أنفاسها المتضاربة،

وتسـمع هـي أنفاسـه التـي غلبهـا الحنـان، أخـذ ينظـر إليهـا وهـى تنظـر إليـه بعدمـا أطمئنـت أنهـم مثلهـا فاريـين مـن الهجـوم، زال الخطـر عـن المكان بعدمـا أخـرج عليـا رأسـه ليطـل عـلى الشـارع الـذي خـلى مـن المـارة، أفـاق يحيـى مـن غيبوبتـه فاقـترب منهـا متسـائلًا...

- هل أنت من بنات الحي؟

لم تجـب الفتـاة، لكنهـا ظلـت تنظـر إلى عينيـه مـن خلـف وشـاحها ثـم أشـارت برأسـها بالنفـي.

- من تكوني إذن؟ ومن أين جئت؟

أخـذت تتلفـت بعينيهـا، تتطلـع إلى ملابسـهم، خاصـة إلى يحيـى بملابسـه المملوكيـة، تحـاول أن تسـتعلم هـي الأخـرى عـن أي شيء.

- أنا جارية الخوند ليلة ابنه مولاي أغا السلحدار.

- أغـا السـلحدار، صرخ عليـا، كاد أن يسـب، لكنـه سـكت بنظـرة عتـاب مـن صديقـه، ثـم التفـت إلى الفتـاه ليهـدئ مـن روعهـا سـائلًا مجـددًا عـن سـبب وجودهـا في هـذا المـكان.

- قدمـت مـع سـيدتي في زيـارة لبيـت الشـاهبندر، لكـن أثنـاء الهجـوم ركضـت وركضـت هـي، لكـن لا أعلـم أيـن هـي الأن،

لقد أضعتها، ثم أخذت تخبط بيديها على رأسها وتبكي، إذا عدت إلى مولاي دونها، فهذه نهايتي في الدنيا.

انكسر قلب يحيى لبكائها، أخذ ينظر إليها ويتأملها في حالها، قلبه ينبض، وعقله يفكر فيما يمكن أن يفعله لحل الموقف، ينظر إلى صديقه بنظرات حيرة واستنجاد.

– مالنا ومال أغا وابنته؟، لما نحن يا يحيي، ألا يكفيك ما حدث الأسبوع الماضي؟

– الفتاة تستجير يا عليا، كيف أمنع نفسي؟

– أغا يملك جنودًا كجيش النعمان، هو أولى بالبحث عن ابنته، قالها ثم ذهب ينظر إلى الخارج من جديد، يستطلع الطريق، بينما اقترب يحيى من الفتاة وبصوت خافت...

– ما اسم الفتاة؟

– زينب.

قالتها ورفعت وجها فقابلت وجهه فأحس أنه راها دون أن ترفع الحجاب فكر فى رفعه ولكن يداه تمنعت، ظل مندهشا» ثم صاح قائلا».

– إن ذهبت للبحث عنها، هل أكافئ على ذلك؟

انقلب وجهها تعجبًا، انقلب حاجباها وكادت أن تهم بالخروج، إلا أنه أمسك بيديها وهو ينظر إلى عينيها، كانت ثاني مرة يمسكها وأول مرة ليداه أن تمسك إمراه بتلك اللمسة.

- أريد أن أراك ثانية.

جذبت يداها وهي تستدير كي لا تنظر إليه.

- لا شان لي بالمماليك، لا أحب التعامل معهم، فلولا الزمان ما ذل مثلي لمثلكم.

- اهدئي يا فتاة، من أخبرك إني مملوك ألا يدل لساني عن أصلي.

أخذت تتفحصه بعينيها وقد تبسمت من جديد فأضاءت ما حوله.

- إذن لص سرقت ملابس مولاك، سكتت تتأمله، لكن هذا وجه شركسي، إذن من أنت؟

- أنا حقا» أصبحت لا أعلم، أنا... فأنا الهوى وابن الهوى وأبيه.

ضحكت الفتاة وسط الظلام، ضحكت وسط الخوف، ثم تغير وجها ثانية.

- اسمع يا هذا، ليس بنا لقاءات ولا يعنيني من تكون، أريد فقط أن أخرج من هذا الكابوس، قالتها وقد تملكها الخوف مجددًا.

- أمامك الفرصة الآن، أذكري لي أين نلتقي غدًا ولن أعود إلا ومولاتك معي.

أخذ الصمت يدب بالمكان، ظلت عيناها زائغة، تحاول أن تجد مخرجًا لهذا الوضع، تحاول هي الأخرى أن تمنع نفسها من النظر إليه، كادت للحظات أن تنسي مولاتها وكل ما تعانيه من رق، للحظات، في عز الخوف والظلام جاءتها لحظة بها إشراق، أمل ولو كان ضعيفًا سكن قلبها، لم يمهلها يحيى الكثير فقد عقله دون أن يشعر أو يحس، سألها مجددًا بما أشبه الإلحاح...

- بتردد أجابت، نلتقي غدًا يا فتي، بعد الظهر عند حمام يشبك.

- بسوق السلاح.

- نعم.

ما أن سمع ذلك حتى قفز وأمسك بعليا من أعلى ظهره معلنًا الخروج للبحث عن مولاتها، أخذت تنظر إليه وبصوت به شيء من الغضب.

- أتمنى أن توفق بعد كل هذا.

- سأجدها، ولي اللقاء غدًا.

مضى وقت طويل على زينب وحيدة في ظلمة المكان، تذكرت فيها يوم اختطافها من أهلها منذ سنوات، مر شريط العمر أمامها... أيام الطفولة السعيدة وسط الخضرة والحقول، وأيام الأسر والرق والدمع والذل، لحظات دارت برأسها كل الأفكار والخيالات، لكن ظل طيف يحيى أقوى من كل تلك الذكريات، من يكون هذا الفتى؟ وكيف ظهر أمامها كالشبح في عز الليل؟ كيف ارتابت منه أول ما رأته بزيه المملوكي فتوقف قلبها عن الخفق وظنت أنها لقيت حتفها، كم ارتاحت عندما أحست بحنوه عليها، عندما نهر صاحبه بسببها، ثم تعاود فتقول، بل كم هو جريء ووقح فى أن يطلب منى مثل هذا الطلب ما يريد مثله من مثلى؟، لحظات ثم تتساءل، ولو كان لكنه عذب ورقيق... يأخذها الأمل فتشغل به حينًا ثم يصرخ شيء بداخلها، يا خوفي ويا حزني إن فقدتها، يا ويلي إن لم يعثروا عليها، يا رب، كم من مصائب الزمان ألقاها في طريقي دون أي سبب؟ تندب حظها فتقول، أسرت منذ سنوات والآن سأذهب ضحية حفنه من المماليك، يتصارعون لسبب لا أعلمه أو يعنينى وأنا أضيع.

أفكار باتت تجول وتعصف برأس زينب، أفكار تذهب بها إلى السماء، تتذكر صعيد مصر وطفولتها السعيدة، وأفكار تطيح بها لتعيدها إلى هذا الدكان، إلى هذا الخوف، إلى هذا الظلام، طال غياب الغريبين، إلا أن الفرج يأتي بعد الصبر، لتجد يحيى وهو يفتح باب الدكان وعلى وجهه علامات العزة، وخلفه تدخل الخونده ليلى يتبعهم عليا الذي بات في غاية الضيق.

***

ولـــقـــد خَلَـــوْتُ مـــع الحَبيب

وبَيْنَنَا سِـــرٌّ أرَقّ منَ النسيمِ إذا سرى

وأبــــاحَ طَــــرْفِي نَـظْرَةً أمّلْتُهــــا

فَـغَـدَوْتُ مـعــروفـاً وكُنْتُ نَكَّـــرا

فَـدُهِشْتُ بـينَ جمالِهِ وجَـــلالِهِ

وغـــدا لســانُ الحـــال عنّي مُخْــبِرا

فـأَدِرْ لِحَاظَكَ في محاسن وجْهه

تَـلْقَى جميعَــا الحُسْنِ فيه مُصَــوَّرا

كان يغني وينشد وهو يمسك بسرج جواده ويسحبه، بينما تجلس ابنة السلحدار وخلفها زينب على الجواد، كان أشبه في غنائه بمنشدي حلقات الذكر، يخرج صوته إلى السماء بعذوبة وحنان لم يكن يتصوره من قبل، سمع تلك الأشعار وحفظها وسمع المنشدين يتفننون فيها فكان يعجب بنظم الشعر والبلاغة، إنما ألان هو يعى يقين كل كلمة مما قال، يحس بكل ما أراد الشاعر قوله، سار بهما وسط ظلال الشجر الكثيف والبساتين الخضراء على طول الطريق المؤدي إلى قصر أغا السلحدار، فالأشجار يمينًا ويسارًا بينهما الطريق الذي يتوسط البساتين قد غُطي من أوله إلى آخره بتكعيبات العنب لتزيد ظلال البساتين من حوله بهاءً.

كان قصر وحدائق أغا السلحدار بالأزبكية من أهم معالم المحروسة، فقد استطاع السلحدار أن يتحصل عليها من بيع الوظائف العامة بدءا من القضاء بمذاهبه الأربعة، فلم يترك مذهبًا إلا واستفاد منه، وحتى منصب المحتسب، وهو أهم منصب في إدارة الدولة، والخاص بالأسواق وتحديد قيمة السلع ومنع الغش والاحتكار وإخفاء البضائع، وعليه فكل وظيفة ولها تسعيرتها، ومن كل صفقة استطاع أن يبني هذا القصر الأشبه بالقلعة في استحكاماته، وبرع في

إظهـار مـدي صلابـة بنيانـه وعـزة ملكـه بـأن وضـع طابيتـين عنـد مدخـل القـصر ليؤكـد أنـه شـبيه السـلطان في قلعتـه، بمجـرد ظهـور يحيـى وهـو يجـر فرسـه حتـى صـاح الجنـد مـن كل جانـب، يتسـاءلون عـن ماهيـة القـادم، بعضهـم تقـدم لاعتراضـه، مـا أن شـاهدوا المشـهد حتـى صعقـوا برؤيـة ابنـة مولاهـم، هـرج ومـرج حـول الفـرس، ويحيـى يتابـع تحـركات الجنـد بـلا مبـالاة، فقـط يخطـف البـصر للنظـر إلى زينـب وهـو يتابعهـا والفـرس يبتعـد عنـه ناحيـة الحرملـك يسـوقه أحـد الجنـد، يـرى كبـير الحـرس قادمـا إليـه بنظـرة ترقـب توحـي بعواقـب غـير سـارة.

- من الفارس؟

لم يعطـه يحيـى أي فرصـة للتحقيـق أو التمحيـص، إنـما بـادره.

- أبلـغ مـولاك الأمـير بقدومـي للقائـه، أبلغـه يحيـى بـن زكريـا.

انحنـى قائـد الحـرس وأسرع لإبـلاغ سـيده، بينـما أخـذ يحيـى في تتبعـه سـائرًا خلفـه، ينظـر يسـارًا ناحيـة الحرملـك ثـم ينظـر إلى أعـلى المشربيـات، لا أثـر لعيـون مَـن سـحرته، يتسـاءل هـل لي فرصـة لقـاء أو حتـى نظـرة واحـدة مجـددًا، فـلا يجـد مـن

يلبي، يود لو بات الليل في ضيافة السلحدار وابنه رغم سخافتهما، رغم كل ما هم عليه، فقط ليستظل بأركان نفس الجدار التي هى وراءه.

- يحيى بن زكريا، لا أصدق إنك أنت من أنقذت ابنتي.

نظر يحيى أمامه ليجد الأمير واقفًا خارج أبواب القصر منتظرًا لقاءه، فانحنى لتحية الأمير شاكرًا له قدومه إلى بوابة القصر لاستقباله، ثم سارا معا إلى داخل القصر، قصر من قصور ألف ليلة وليلة كما كان يقرأ يحيى حين كان صغيرًا، هكذا رأه أول ما وطأته قدماه، فالمدخل عبارة عن فسقية كبيرة الحجم، يسري بها الماء المنقوع بالورد، حولها أصناف من الطير على كل شكل ولون بعضها موضوع في أقفاص والآخر طليق، قرأ عن عجائب الطير ولكن لم يراها فى حياته، رائحة المسك تعبئ المكان من كثرة نباتات مسك الليل الذي زينت أروقته.

- لك عندي دين بإنقاذك لابنتي، تمن علي؟

- لا أتمنى إلا السعادة لك يا سمو الأمير، أرجو ألا تكون قد غضبت من يوم المبارزة، فهذا مجرد احتفال.

- لا يا بني، فتلك لغة الشباب، أنت لا تعرف من كان أبوك في سنك، لكنك تذكرني به مع اختلاف يضاف لك،.

- وما هو هذا الاختلاف، قالها مستنكرًا.

- لم يكن لوالدك حينها تلك الشعبية التي اكتسبتها أنت من مخالطة الشطار والعياء، خبرني عنهم يا يحيى؟

كانت كلماته خبيثة، تحمل آلاف المعاني، ووجهه الأحمر بارد لا يعطي أي انطباع، لكن جلوسه بجانبه ترك في نفسه شيء من الخوف، طارت من يحيى كل خيالات اللقاء الجميل، الوعد بالغد، إنه الآن أمام إبليس، لا يعلم ماذا يريد منه منذ يوم الحفل؟ يلف من حوله، يدخل بين ضلوعه ويتخلله ويدك أي مناعة تقاومه، أرجع يحيى ظهره للوراء متكئًا على وسائد الفرش المملوكي المغطي بأثواب الحرير الكشميري، يحاول أن يخرج من ضغط السلحدار ونظراته، يكافح لإعادة الهدوء والاتزان، يعاير كل كلمة قبل أن تخرج من شفتيه.

- أتقصد أولاد البلد الذين يقدمون الحيل للأهالي، هم فقط عياء يا سمو الأمير.

- هؤلاء العياء يدعون علمهم بفنون القتال وبعضهم يتحدى المماليك.

- يتحدونهم؟!، بماذا؟، بعصا ودبوس، أهذا يخيف الأمراء؟

تغير وجه السلحدار، بات يعلم أخلاق من أمامه، إنه متمرس في ذلك، بالضغط يستطيع أن يظهر معدن من أمامه، هذا ابن زكريا، معدنه من معد والده.

- عمومًا يا مولاي، أنا لا تجمعني معرفة إلا ببعض أبناء العوام الذين تتلمذوا معي في مدرسة والدي، ثم سكت لحظات، ثم أكمل، وفي النهاية أنا بالنسبة لهم مملوك.

- لكني أراك في مكان أسمي عندهم، فأنت قادر على التقريب بيننا وبينهم.

ابتسم يحيى وهو يرى الفخ الذي ينصب أمام عينيه، يطمعه فيدخل إليه فتنقض أسنان الفخ الحادة لتهوي على رأسه، لتمزقه حتى إن حاول الهرب، فبهدوء تساءل...

- من أنتم؟

- أقصد الدولة، السلطان.

لم يتردد يحيى، بل هم واقفًا، فقد طال الحديث أكثر مما يلزم، هو يحاول أن يكمل خيال ليلته، فأتي هذا المتلائم، يحاول الإيقاع به، يوسوس له، هذا جزاء معروفة وإنقاذه لابنته.

- لقد نويت وعاهدت والدي أن أشتغل بزراعة الوقف، الذي هو معاشي وعلمي الذي به أطوي صفحتي من الدنيا.

قال كلمته وهو ينحني للسلحدار طالبًا الإذن بالرحيل، أخذ ينظر له السلحدار بنظرة تحمل الكثير من المكر، ابتسامته التي تؤكد هدوءه الذي لم يغادر وجهه طوال الحديث، رفع له يداه أذنًا له بالانصراف.

اتجه يحيى ليخرج من باب القصر الفسيح، يود أن يقفز للخروج من هذا المكان المليء بالخوف، فخامة القصر لا تدل على ما فيه من خوف، لكنه تذكر، تذكر أهم شيء لحظة خروجه من القصر، لحظة رؤيته لفرسه الذي كان يحمل تلك الفتاة، تذكر زينب.

***

ساد القاعة سكون لا يمكن أن يقارن بعدد الحاضرين، فالكل حابس النفس، الجميع يتطلعون في جلستهم إلى وجه السلطان المحتقن، وجه غاضب، الدماء تود أن تقفز منه، صوت واحد بالقاعة، يتحدث بصوت متحشرج، يتلعثم، صوت يحمل الجبن والخسة، وحده صوت المحتسب بالقاعة.

- يا مولاي، هذا الغلو سببه الشح الذي ضرب البلاد، فالقوافل تنهب من حسن الجني والعياء قبل أن تدخل البلد، يتقدم خطوات محاولا أن يضفي شيئًا من الصدق لحديثه، التجار يا مولاي تعساء، يعانون من استباحة قوافلهم، بل يرفضون تجهيز أي قوافل جديدة دون أن يعوضوا عما لحقهم من خراب.

ابتسم قايتباي بحسرة، بينما قفز مقدم الدرك من مجلسه ليقف بجوار المحتسب في لمح البصر، محاولًا أن يدرأ التهمة عنه.

- أعتذر عن المقاطعة يا مولاي، لكن بلادكم تنعم بالأمن، والأمن في أشد باسه، جميع القوافل يتم تأمينها من جانبنا بالتعاون مع العربان، أما اعتداءات حسن الجني فلم تتعد قافلة واحدة، ثم نظر إلى المحتسب، وكانت تلك القافلة مملوكة شخصيًا للمحتسب وشاهبندر التجار.

أخذا الثلاثة يتناطحون فى مجلسه كلا يحاول أن يدفع التهمه عن نفسه، نفس الصراع والجدل الدائم بين الأمراء، دائما تضيع الحقيقة داخله وتتبخر، نفس المأساة التي أطاحت بأمم سابقة، والسلطان يشاهد ولا يخرج من الأمر فى النهاية بشئ.

أنتهى النقاش فوقف السلطان معلنًا عن بدء هجومه الصارخ، وقف الجميع منتصبًا، كاتمين الأنفاس، لا يريد أحد منهم أن يصبح جزءا من هذا النقاش، أكثرهم سكونًا وهدوءًا وقف السلحدار بينهم، يتابع الحديث بانحناءاته، عينيه تتجول بالمكان، ترسم كل الشخصيات بانطباعاتهم، يبتسم حينًا، أما الشيخ زكريا الذي دعا للاجتماع دون أن يعلم سبب دعوته، فقد وقف يتابع هو الآخر في هدوء، كما لو أنه لم يحضر مع كونه أجدد الوجوه التي داخل القاعة.

- كفاكم، قالها صارخا، إني أعلم ما يدور بالأسواق، وأنزل في بعض الأحيان متخفيًا، كما أعلم ما في قلوب بعضكم، أخذ يمر أمام الواقفين ينقل بينهم حديثه، كما أعلم من منكم سيخرج الآن ليراسل ملك الروم ويوافيه بالأخبار.

ثم التفت إلى المحتسب الذي كاد أن يهوي على الأرض، قدماه تعانده، لا تقويان على حمله.

- أما أنت، فلا أعلم كم من المال اكتنزت عن سفه، لكن أعلم جيدا كيف سأخرجه منك؟

التف مجددا يخاطب الجميع وقد زادت حمرة وجهه، زاد صوته ارتفاعًا ليتردد داخل كل شبر بالقاعة.

- يا مقدم الدرك، اترك حسن الجني وأخبرني عن واقعة مماليك جقمق بالسوق الشهر الماضي، أهذا أيضا من فعل حسن الجني؟

- نعم يا مولاي، قالها مندفعًا يحاول أن يبعد كرة اللهب التي ارتمت على رأسه.

- نعم، كم من الجرائم ترتكب باسمك أيها الجني؟ أخشى أن يكون بدعة ابتدعتموها لتلهوني، أخبرني يا مقدم الدرك، ماذا يقال عن حسن الجني بين العامة؟

- بصوت خاشع أجاب، بعض الحمقى والدهماء يرونه بطلًا.

- بل كثير من العامة يرونه بطلًا ويرونك ورجالك لصوصًا وأنا زعيمكم.

مشى عائدًا إلى مجلسه في مقدمة القاعة، وجلس على كرسي حكمه...

- أريد أن يتم القبض على حسن الجني حيًا، سلامته مسؤوليتك، سأقوم بمحاكمته بنفسي، واعلم أن سلامته من سلامتك، كما أريد كشفًا بجميع القوافل القادمة والخارجة، وحجم بضائعها بصفة دورية، سكت يستجمع أنفاسه ثم عاد قائلا»، فليخرج الجميع، واتركوني مع الشيخ زكريا.

هـم الجميـع بالانـصراف يتدافعـون في عجلـة، يريـدون الخـروج والبعـض يـكاد لا يصـدق أنـه لم يكـن فريسـة السـلطان بالداخـل، يندفـع السـلحدار وسـطهم محـاولًا هـو الآخـر التخفـي، تركهـم يغـادرون، لكـن بقـي هـو، ظـل ينتظـر خـارج القاعـة في أحـد الأروقـة الجانبيـة، يتطلـع في سـقف القـصر، يمـر عليـه الوقـت دون أن يمـل، حتـى سـمع صـوت بـاب القاعـة وهـو يفتـح، فتربـص حتـى رأى الشـيخ زكريـا يهـم بالخـروج.

- الشيخ زكريا، قالها بحفاوة الأحباب.

- أهلًا بالأمير أغا، ثم هم بالذهاب.

- أردت أن أشـكرك عـلى حسـن تربيتـك ليحيـى، قالهـا وهـو يمسـك معصمـه، بـالله منـذ ذلـك اليـوم وأنـا أعتـبره أحـد أبنائـي.

- هو وصلاح ابناك.

- بـالله عليـه، اسـمح لـه أن يـزورني، خصوصـا أني علمـت أنـه دائـم المـرور بالأزبكيـة مـن أمـام قـصري دون زيـارتي.

أذهلـتْ الكلـمات الشـيخ زكريـا، كلـمات جاءتـه كصفعـة عـلى وجهـه، مـا الـذي يلمـح لـه هـذا الثعبـان، ابتسـم في وجهـه وبرأسـه صراعـات العمـر بـما فيـه مـن جـراح، ثـم هـم بالانـصراف.

***

يمتـد الطريـق المـؤدي إلى النهـر الخالـد في وقـف الروضـة، وتمتـد معـه عـلى جوانبـه شـجرات البرتقـال والتـين، اختـار عليـا إحـدى تلـك الشـجرات ليسـتريح بعـد مـا سـار مـن حـدرة الكبـش حتـى الروضـة للقـاء صديقـه، بينـما يسـتظل مـر صـلاح عـلى فرسـه مـن أمامـه.

- أهلا سيدي صلاح.

- لماذا تجلس هكذا؟

- أستريح من عناء السير، أين سيدي يحيى؟

- ستجده عند الشاطئ في خلوته.

استجمع قـواه حتـى وصـل ليحيـى الـذي جلـس شـارد الذهـن مهمومًـا، ينظـر للنيـل كـما لـو أنـه يناجيـه، اقـترب منـه بهمـس..

- ما بك يا صديقي؟

نظـر لـه يحيـى مبتسـمًا، يـواري وجهـه الحزيـن بابتسـامة هزيلـة كحالـة.

- انظـر إلى نفسـك، لم كل هـذا الهـم، تختفـي بالأسـابيع وأجـدك هكـذا؟

- لم تحضر يا عليا في الموعد.

- لم تحضر! أي موعد؟ سكت ثوان، أخذ يهمهم ثم صاح، أتقصد جارية الأغا؟

- التفت إليه مستنكرًا، اسمها زينب يا عليا.

- لكنها هي في نفس الوقت يا يحيى جارية الأغا، اليس كذلك يا صديقى.

- لا يعنيني هذا، لكن أحس بالضيق، أحس بعدم الراحة.

- لكنك لم تر حتى وجها.

- بل رأيته، نعم رأيته.

أحس علي لوهلة بأنه أبله، ثم عاد يتطلع لصاحبه إن كان قد جُذب أو فقد عقله، فعاود يحيى للأنين...

- لقد أصابتني تلك العيون.

- أصابتك بمرض أم هوس.

- بل هو الهوى.

- الهوى؟! وما الهوى؟

سكت قليلا» ثم أباح بصوت يملؤه الحنين.

أخفي الهوى ومدامعي تبديه وأميته وصبابتي تحيه

ومعذبي حلو الشمائل أهيف قد جمعت كل المحاسن فيه

أخـذ يشـاهد صاحبـه، محـاولًا إدراك مـا يقـول، يفكـر مـاذا يفعـل لصاحبـه؟ كيـف يمـد لـه يـد العـون، هـو لا يعلـم عـما يقـول شـيئًا، لحظـات مـن الصمـت تركـت كل منهـما فريسـة لأفـكاره، أنهاهـا صـوت الميـاه المنبعـث مـن غـرق حجـر ألقـاه يحيـى مـن يديـه.

- شهر وأنت على هذا الحال ولم تخبرني.

- لقـد فقـدت عقـلي، لا أعلـم مـا بي، كـدت أن اقتحـم القـصر لرؤيتهـا، وليكـن مـا يكـون.

- لقد جننت يا ابن زكريا، أين ذهب عقلك؟

- بـل هـو العقـل ذاتـه، مصريـة تتحـول إلى عبـده وعبيـد يتسـيدون عـلى أحـرار، أي زمـان وأي منطـق هـذا؟

- عجبت لك أيها المملوك.

ابتسـم يحيـى لمداعبـة صديقـه، فظهـر وجهـه البشـوش الـذي أخفـاه الحـزن.

- اتـرك لصديقـك هـذا الأمـر، لـن يمـر أسـبوع حتـى تلقاهـا.

أخذ يحيى ينظر إليه متعجبًا، لا يدري أهو صادق الوعد أم يهذي، يريد أن يسأله ولكنه يخشي من السؤال كي لا يُضيع الحلم.

- ما بيديك أن تفعل؟

- أترك العياء لمهامهم، أتحسب نفسك عليم بكل الأمور يا مملوك.

ابتسم يحيى ابتسامة أخرى، أكثر إشراقًا، ابتسامة تحيى بها من الأمل، حلم اللقاء.

***

9

الصراع

انتهى الدرس، وهمّ الأطفال بالرحيل، بينما جلس الشيخ زكريا كعادته متكئًا على عموده الرخامي، يسبح غامض الجفن منتشي الوجدان وهو يذكر ربه، لحظات من التأمل يدور فيها ذهنه أثناء التسبيح، تنقسم فرائسه وهو يبحث داخل ذهنه عن إجابات لما يؤرقه فهو الشيخ العجوز الدائم الخوف على أبنائه مما قد يصادفون في مستقبلهم من أحداث، هل سيكون حيًا لإعطائهم النصيحة وتقديم النجدة، هل قادر الآن على حمل مشاعل النور ليسير أمامهم داخل الأنفاق المظلمة، لكن ماذا عن مصر؟ ماذا بعد قايتباي؟ هل ستعود الدوائر تدور على التعساء؟ هل ممكن أن يكون هناك نظام أو عرف يضبط قواعد الحكم والإدارة كما يحدث بالدولة الصفوية في فارس أو عند الترك في بلاد الروم، يخاطب نفسه متعجبًا، كل هذا

الانفتـاح للمملكـة وكل هـذا الاحتـكاك الحضـاري ومازلنـا نعيـش في عقـود الجاهليـة، مـازال الجهـل يكتـم أفـواه الخلـق، الخـوف والحاجـة، أيبحثـون عـن حقوقهـم أم عـن لقمـة العيش؟، المعادلـة ذاتها، ظل مغمض الجفن حتى أتـاه صـوت عبد السـلام يناديـه، فيفتـح عينيـه مبتسـمًا.

- لا تخلـو أفـكاري دائـمًا مـن صوتـك المزعـج؟ هـل ذهبـت في طلـب يحيـى وصـلاح؟

- نعم يا مولاي منذ الصباح.

- إذن أعطني يداك لنصعد إلى الصومعة حتى يحضرا.

تقـدم عبـد السـلام ليأخـذ بيـد سـيده ثـم مشـيا معـا كلاهمـا، ليصعـدا إلى الصومعـة حتـى أقعـده خلـف طاولتـه العتيقـة، لحظـات وتـردد صـوت يحيـي وصـلاح صاعديـن إلى الصومعـة ليتركهـم عبـد السـلام لإحضـار الـشراب، يحييـان والدهمـا ويقبـلان يديـه، ليبـادر زكريـا ولـده يحيـى مباغتًـا.

- هل زرت السلحدار في منزله الشهر الماضي؟

وقـف يحيـى ثابتًـا، يحـاول أن يسـتوعب سـؤال والـده ثـم أجـاب بـشيء مـن الثقـة.

- ذهبت إليه حاملًا ابنته وجاريته بعدما أنقذتهما من غارة المماليك.

- هل يتضمن حمايتهم التجول حول قصره لأكثر من شهر؟

صعقته كلمات والده، لم يتوقع للحظة أن يباغته هكذا، قد يكون على علم بأمر الزيارة والهجوم على الحي، لكن كيف علم بأمر التسكع بجوار القصر؟ لحظات حاول أن يستوعب الموقف، يصرخ بداخله، أيكون السلحدار قد علم أيضا بهذا؟

- لا تجهد نفسك في كيف علمت، لكن أريد أن أعرف ما في نفسك يا ولدي؟

- لا شيء، لاشيء ليس لي شأن بالسلحدار، اطمئن يا والدي.

- لقد حذرتك من قبل أنت وأخاك، هؤلاء القوم هم قوم سوء ولن ياتى من وراءهم سوى الخراب.

- بادرهم صلاح، يا والدي لا أري سببًا لكل هذا الخوف، فالأمر واضح على وجه يحيى.

- إذن أنت تعلم شيئًا عن أخيك أريد أن أعرفه.

- نعم فقط الآن فهمت، فطوال الفترة الماضية وأنا أتفحصه، لكن الآن أري يحيى عاشق يتلوي يا والدي.

أخذ الذهول بالأب بينما نظر يحيى إلى الأسفل بخجل، لا يدري ماذا يقول فبادره صلاح فرحًا.

- لا أرى حرجًا في هذا يا والدي بل أراه أعظم شيء ممكن أن يحدث ليحيى ولنا.

أخذ الشيخ ينظر إلى صلاح مستنكرًا، ثم ينظر إلى يحيى بتحير، وصلاح يطير في شطحات أحلامه ويصول صوته في كل مكان.

- تخيل يا والدي، لو أن يحيى ناسب الأغا بقوته ونفوذه، أضف إلى مكانتك وفضلك بين العامة، تقدم ليمسك بساعد يحيى، إنها فرصتك يا أخي.

- اسمع يا ولدي، ليس لنا حكم في الهوى، إن كان كلام أخيك صحيحًا، ولكنى لن أرضى لك هذا الزواج.

- لما لا يا والدي، فلن يضيره شيء من خصومات السلحدار، بل سيكون المستفيد الأول، انظروا حولنا، لو رحل قايتباي قد نواجه أراذل الأمراء، تلك هي الفرصة الحقيقية.

التفت زكريا إلى ابنه الشارد مستنكرًا

- وما رأي العريس؟

أخـذ يحيـى ينظـر إليهـما، ارتسـمت ابتسـامة خفيفـة عـلى وجهـه، تحولـت فجـأة إلى حالـة مـن الضحـك، علـت صـوت ضحكاتـه وهمـا ينظـران إليـه في فضـول.

- اطمئـن يـا والـدي، لقـد زوجتـماني وأقمتـما الدنيـا ومـا عليهـا مـن لا شيء، لا يوجـد بينـي وبـين ابنـه السـلحدار أي شيء، بـل بالـكاد لا أتذكـر لـون ثيابهـا ذلـك اليـوم.

بـدأ عـلى وجـه زكريـا الارتيـاح، مـع إحساسـه بـأن مـازال هنـاك سر يخفيـه.

- إذن لا حاجـة لـك في الأزبكيـة، سـأتركك لـسرك، لكـن أحـذرك أنـت وأخـاك مـن هـؤلاء القـوم.

أنهـى الشـيخ كلامـه بإشـارته المعتـادة للواقفـين، فهـما إلى النـزول وهـو يـواري نظراتـه ليحيـى بـين صفحـات كتابـه المفتـوح.

نـزل الشـقيقان حتـى خرجـا مـن بـاب المدرسـة ليجـدا عليـا يقـف في انتظـار صديقـه، مـا أن رآه حتـى ابتسـم لـه ابتسـامة عريضـة، ابتسـامة تحمـل أخبـارًا لفـؤاده يتشـوقها، تلقفهـا يحيـى

وهـي تطـير، البشـارة، اندفـع نحـو صديقـه تـاركًا أخـاه خلفـه،

– ألم أقل لك أسبوع أيها المملوك.

كانـت كلماتـه تحمـل البهجـة، إن كان كذلـك فـلا حاجـة إلى التلصـص مجـددًا داخـل الأزبكيـة، اقـترب منـه حتـى لا يسـمع حديثهـما صـلاح، لكـن صـلاح لاحـق أخـاه حتـى وقـف بينهـما.

– ما وراءكما أنتما الاثنين؟

– لا شيء يا أخي، لا شيء.

– قـد يكـن، لكـن دون شـك هـو لـه يـد في أمـر الأزبكيـة الـذي لا نعلـم عنـه شـيئًا، أهويـت لعـب الشـطار يـا يحيـى، أوصلـت لهـذا الهـوان؟

– لك ما تحب ولي ما أحب يا أخي.

– معك حق، لكن أتمنى لو تنصت إلي كما تنصت لهذا المصري.

– كلنـا مصريـون يـا أمـير صـلاح، قالهـا سـاخرًا منـه وقـد زاده غضبًـا.

جـاء عبـد السـلام لينقـذ الموقـف المحتقـن، حامـلًا أكـواب الخـروب، لم ينظـر أحـد إليـه فالـكل متاهـب للآخـر، حتـى عبـد السـلام لم يـر مـن قبـل هـذا الانشـقاق بـين الأشـقاء.

- فلتروي صاحبك، قالها وتركهم ليمتطي جواده ويشد عليه بتحدي.

لحظات من الشوق اجتاحته، لم يتلفت إلى صلاح، بل وجه بصره ووجدانه إلى صديقه محاولا أن يأتيه بأي نبأ عنها، بينما أخذ عليا يحتسي شرابه غير مبال لما حوله، لم يتردد يحيى في رفع الكوب من أمام فمه، والغضب يخرج من عينيه...

- لا وقت للمزاح، أخبرني بما عندك.

- لا عليك يا صديقي، ستلتقي بها بعد غد.

- بعد غد؟! كيف؟

- لي جارية بالقصر ستدبر كل شيء.

- كيف ستدبره؟ وأين سنلتقي؟

سكت قليلًا، ثم تمتم بعبارة لم يسمعها يحيى، فصرخ فيه يستحثه على الكلام.

- ستراها داخل القصر.

- داخل القصر! أى قصر هل جننت؟

- لا حل آخر، لا تقلق، هي أعلم بما ستفعله.

تركت إجابة علي الكثير من الحيرة، أعيد له الأمل ثم تبدد في لحظات، وجد واحة النجاة بالمفازة وفجأة اكتشف أنه أمام سراب.

- لا أعلم، بل لن أجرؤ أن أدخل هذا القصر مجددًا، أتلصص ثم أكشف، قالها يحدث نفسه.

- فيما تفكر؟

- أريد أن أعلم كيف سيتم ترتيب دخولي؟ قالها بتحد.

- سأخبرك بعد غد.

***

حضر يحيى في موعده أسفل الهضبة العملاقة، إنه يوم اللقاء كما وعده صديقه، لكن كيف سيرتب ذلك داخل قصر السلحدار، هل العقل أن يغامر ويدخل باحثًا عنها وسط تلك الأسوار المهيبة، أم يرجع إلى رشده، وعقله الذي يحدثه بأن يتدارك المخاطر وأن يتجنب آتون السلحدار وجحيمه، أخذ يتطلع الوجوه المارة من أمامه، يرى البؤس يلون أيامهم، يقلبهم ما بين حاجة وهم، كم من العهود، بل قرون، مئات السينين تمر ولم يتغير شيئًا في مظهرهم وبؤسهم وحالهم، فنفس الأمراض والآفات التي قرأ عنها في القرون الغابرة وحتى ساعة وقوفه، لم يتغير شيئًا في معيشتهم، فمصر تحكم بالمماليك قرابة الثلاث قرون ومازال المصري يسكن الخرابات ويأكل من فضلات أسياده المماليك، إلا الحظوة

والنخبه منظر متناقض أخذ يتطلع إليه ما بين جفاف الهضبة الكبيرة و سيولة المياه العذبة التي تجري بمنطقة بركة الفيل، البساتين العامرة بما لذ وطاب، ينتبه يحيى لشبح قادم نحوه في الظلام الذي خيم على المكان ولم يعد سوى بصيص من المشاعل أخذت تضاء واحدا تلو الآخر.

- لم تأخرت؟

- كي أعد عدة الزيارة.

- كيف سأراها، ألم تخبرني بعد؟

- أصبر قليلًا، وستعلم كل شيء، هيا بنا نهم.

- لن أبرح مكاني حتى تكاشفني.

- لا تقلق يا صديقي، هناك أحد عيوننا داخل قصر السلحدار، إحدى الجواري، عندما كاشفتها علمت منها أنها أقرب صديقاتها.

أخذ يحيى ينظر إلى صديقه، يريد منه أن يسترسل ليكمل الحديث، يريد أن يتأكد من أنه سيلقاها، يريد أن يعلم أي معلومة عنها.

- لقد أعددت الخطة مع الجارية، أما هي فقد أقنعت مولاتها أن هناك فرقة تلعب على الآلات الموسيقية ويتغنوا

ويقدموا عروضا لخيال الظل، سكت قليلًا وهو يجذبه من يديه لكي يسير معه، واليوم هو موعد الحفل وسنقوم بالغناء والطرب من جانبنا، أما أنت ستتنكر في زي أحد العياء ستغطي جسدك بلون غير اللون حتى والدك بنفسه لن يعرفك.

- أتعلم ما سيحل بنا إذا قبض علينا؟

- ألم تقل لي إنك أردت من قبل أن تقتحم القصر، ها أنت تفعل دون قتال أو نزال، بل بالغناء.

- ماذا سيفعل والدي لو حدث المحظور؟

- اطمئن كل شيء سيسير كما رتبنا له، الزي والطلاء وكل شيء جاهز ومعد، لكن قبل هذا هناك أمر.

- ما هو؟

- ستقابل الآن حسن الجني.

وقف يحيى، غاصت قدماه بالأرض وأصبح لا يقوي على السير.

- هل سأقابل حسن الجني الآن؟

- نعم فهو يريد رؤيتك.

- أين سألقاه؟

- بمغـارة جبـل زينهـم، وقـف ينظـر إليـه، لعلـك المملـوك الوحيـد الـذي سـيحظى بهـذا اللقـاء، وأنـت أول مملـوك يدخـل المغـارة كضيـف وليـس كمخطـوف.

- كـم تمنيـت هـذا اللقـاء، لكـن اليـوم، لا اعلـم مـا يحـدث حـولى.

- لا تقلق ستغير ملابسك بالمغارة ثم ننطلق.

تابعـا السـير وقـد بـدأ الخـلاء يظهـر بعدمـا تعـدوا حـدرة الكبـش وأخـذا في الصعـود حتـى باتـت الصحـراء أمامهـما، بـدأت المشـاعل تقـل وكشـف القمـر بضوئـه عـن الصحـراء الخاويـة، أخـذا يتحسسـان طريقهـما وسـط ضـوء القمـر، بينـما عليـا متقدمًـا صديقـه، لا يهـاب الظـلام، قدمـاه تسـيران دون أي تخبـط أو تـردد، يعلـم طريقـه جيـدا، حتـى وصـلا إلى ممـر صخـري وعـر السـير، يتوسـط جبليـين مظلمـين، وقـف عليـا وخلفـه يحيـى يتابـع المغامـرة بترقـب، حـاول أن يتحـدث، لكـن طلـب منـه السـكوت والإنصـات، مـرت دقائـق طـوال حتـى سـمع صـوت همهمـة عاليـة صـادرة مـن يمـين الجبـل، التفـت عليـا إلى مصـدر الصـوت قائـلًا...

- هـذا عليـا النعـماني، ومعـي يحيـى بـن الجيعـان، نريـد مقابلـة الريـس.

لحظات من الصمت ثم يعود الصوت من جديد.

– سيرا حتى التبة القادمة ثم انعطفا يسارا ثم يسارا لتجدا المغارة.

أمسك عليا بيد يحيى وسارا وسط الظلام، تعجب يحيى كم هذا الظلام المحيط بالمكان، بل كان يرى نارًا قادمة من ناحية الجبل عكس سيرهم، ضحك عليا ثم أردف، إن تلك النار للتمويه، بل تضاء وتنطفئ في أماكن عدة بالجبل حتى يتشتت المماليك عن اللحاق بالريس أو معرفه مكانه، بل هناك عدد من المغارات ينتقل إليها بين الحين والآخر.

وصل الصديقان إلى الهضبة ثم مالا يسارًا ثم يسارًا آخر حتى صارا أمام الجبل، أخذا يسيران في مواجهة الجبل، وقد ظهرت فهوة كبيرة أسفل الجبل، أخذت تتسع شيئا فشيئا إلى أن وضحت معالمها، أصوات تنادي وسط الظلام، ترد على بعضها البعض، أخذ يحيى يتوقف للرؤية من أين تأتي الأصوات لكنه جذب من يديه ليدخل إلى المغارة التي وجدها ساحة شديدة الظلام وسط الجبل، لا يمكن أن تكون ساكنة ببشري، مكان أشبه بالكهف، قد يصلح سكنى للذئاب أو الوطاويط، أنجزع قلبه وثقلت خطواته وهو يسير إلى داخله، ينتظر أن يفاجأ بأي شيء

قد يظهر له، خطوات في ممر آخر أكثر ضيقًا من الفتحة التي دخلا منها، نفس الظلام يخيم على المكان، حتى ظهر بعض بصيص من النور كلما خطوا، حتى وصلا إلى منحى لليسار ما أن دخلاه حتى وجدا رجلان يقفان بسيفهما في هيبة أشبه ببلاط الحاكم.

ابتسما إلى عليا دليلا على معرفتهم بقدومه، ولم ينظرا أو ينحيا ليحيى بل أشارا لهما بالمرور فسارا في ممر طولي مضاء بالمشاعل المعلقة على الحائط، أخذا يسيران حتى ظهرت الحياة أمامهما، بهو أشبه بالسوق، يتواجد فيه رجال ونساء وأطفال، رائحة الطعام والطهي نافذة بالمكان، الأطفال يلهون غير مباليين أنهم غائصون في أعماق جبل لا يغطيهم فيه سوي الصخور المدببة، حي من أحياء العوام داخل الجبل!، أخذ يحيى ينظر حوله مندهشًا وهو يرى هذا الخان الكائن داخل الجبل، حتى ظهر لهما رجل ضخم يرتدي جلبابًا رمادياً بسيط المظهر، جلاليب العامة ذات اللون الأزرق والقماش الأشبه بالخيش، يضع على رأسه طاقية صفراء، يسير رافعًا يديه للتحية.

- شرفت مغارة العياء يا يحيى.

- الشرف لي يا ريس حسن، تقدم ليصافح الرجل.

– عرفتني بالحس أم بالمظهر.

– مبتسمًا، كنت أنتظر طله أخرى.

– كحال العوام، يصنعون الأساطير ويصدقونها، لكن الحقيقة أبسط بكثير.

– تتحدث مثل والدي يا ريس.

– والدك، الله يديم عليه العافية، عالم جليل.

– وأنت أمل التعساء.

ضحك حسن، ثم أخذ يحيى إلى مجلسه، كرسيان من الخشب في إحدى الزوايا، جلسا عليهما وقد اختفى عليا عن المكان.

– لماذا تريد تلك الفتاة؟

– لقد هويتها يا ريس، لم تغب عن بالي منذ ذلك اللقاء.

– أتهوى عبدة وأنت سيد أبن سيد.

– نحن من جعلنا من الناس عبيدًا وأحرارًا، لكن كلنا في النهاية عباد الله، أخشي أنك نسيت أن والدي كان عبدًا يومًا ما.

– كنت واثقا» أنك كما تخيلتك، لكن السلحدار يستجمع أخبارك، ماذا يريد منك؟

- لا أعلم، منذ لقائي به بعرض السلطان وهو يتطلع في بشكل غريب.

- إن أختاره لك القدر خصمًا، ستواجه خصمًا شرسًا يا يحيى، تعلم أن خطة اليوم كانت مرسومة لعمل كان سيقلب موازين القوى بالمحروسة، لكني سأتنازل عنه لك اليوم إكرامًا لهذا القلب المحب.

سكت يحيى لحظات ثم بصوت خافت قال...

- سيدي هل لي بسؤال؟ هل أنت مع قايتباي أم ضده؟

ضاقت عينا الرجل، رسم على وجهه ابتسامة توحي الكثير من المعاني...

- لعلي أريد أن أحميه يا ولدي ممن حوله.

- ولكن ستظلان متضادان؟

- نعم، سيظل هو السلطان روح القانون، رمز لسيادة الدولة، وسأظل أنا النوري، شبح في الظلام، مارق مطلوب للعدالة، وللعدل وجوه كثيرة.

بقيا يتحدثان كأصدقاء قدامى التقيا بعد سنين، تبسط مع حسن الجني إلى أبعد الحدود، صارا صديقين رغم ضيق الوقت، استأنس المكان رغم خوفه الذي كان يتملكه

لحظة دخوله، أحس أنه أصبح جزءًا من هذا المكان ولكن اليوم كان فيه شيئا» أهم.

***

لك بالحي، هالك بك حي في سبيل الهوى أستلذ الهلاك

عبد ما رق يوم لعتق لو تخليت عنده ما خلاكا

أخذ الجمع في الغناء وبينهم يحيى الذي تغيرت معالمه بين دخوله وخروجه، خرج من مغارة الجني بشكل جديد، لا يمكن أن يميزه أحد حتى صلاح أخيه، خرج عبد أسود حبشي فاقع السواد، لا يمكن تمييز أي ملامح له سوي عيناه اللامعتين بالزرقة، سار عليا ويحيي بصحبة خمسة من أتباعهما، يشملهما رجب صديق عليا وذراعه الأيمن، حالة من الصفاء والطرب وكل واحد منهم ممسك بآلته الموسيقية، حتى يحيى حمل تحت ذراعية طبل، وأخذتهم العربة الخشبية تزحف بهم وسط الصحراء للقاء الحبيب، كان الغناء والمرح والطرب هو أجمل ما سمع يحيى رغم علمه بأغلب أشعار العشاق، كانت الكلمات اليوم بمعانيها مختلفة المذاق، أخذت العربة الكارو طريقها بين الرمال الصفراء وصوت الإنشاد كان صوت سعادتهم وتعاستهم.

من هؤلاء التعساء، تساءل وسط بهجتهم ،أكل مشكلته في الحياة هي تعلقه بفتاة ولكن هم إحدى مشكلاتهم اليومية، هي تعلقهم بالحياة، أقل ما تسموا إليه نفس من متطلبات، تركوا الحضر وسكنوا الخراب من أجل الهروب، وها هم يتغنون ويداعبون بعضهم البعض، تظنهم ذاهبين إلى عرس، استمرت العربة في الزحف حتى الأزبكية، وقلب يحيى يدق مع كل خطوة تخطوها الدابة، أخذ جسده يرتجف شيئًا فشيئًا وهو يرى قصر السلحدار يظهر أمامه وقد باتوا على مقربه منه.

ما أن ظهر الحرس حتى ترجل عليا وتقدم العربة في مسيرها، ثم أخذ بلجام الدابة حتى توقفت، رفع يديه للتحية، معلنًا أنهم فرقة درب السماكين، دعوا لإحياء حفل لدي الأمير أغا.

دخل يحيى القصر متحسسًا خطاه، مستترًا خلف زملائه الذين التفوا حوله حتى يتوارى عن جميع الأنظار، اصطحبهم الحرس حتى الحديقة شرقي القصر، حيث مالوا إلى تكعيبة أعناب في ممر طويل تغطيه الأشجار وفي نهايته المجلس المعد للفرقة الموسيقية.

كانت عينا يحيى تتلفت يمينًا ويسارًا مع بدء ظهور الجواري الآتي زحفن كجيش من النمل يسعى لمهامه، أخذ

يحيى يستطلع الوجوه المضاءة أمامه بلا حجاب، بات قلبه يخفق في سرعته، باتت الأرض تزحف من تحت قدماه، ظل السؤال بذهنه هل سيعرفها؟ هل ستعرفه؟ أخذ يتطلع في زملائه وقد هاموا وسط الحدائق والجواري، فمنهم من أخذ يداعبهن ويلاطفهن كما لو لم يروا جنس حواء من قبل، وبعضهم أخذ يتطلع إلى الحدائق والأزهار المتوردة ناسيين جفاء الجبل، أما عليا فقد كان يحادث بالأعين إحدى الجواري، لحظات وقد أيقن إنها عين العيباء داخل القصر، ظل يتطلع إلى الحديث الجاري بينهما، يود لو قفز إليها سائلا عن زينب، حتى سمع صوتًا من خلفه.

- بعد إذنك يا أخي.

التفت يحيى للصوت، إنها ذات العينين، بلا حاجب، بلا خمار، وجه خمري يحمل كل ما هو جميل، بهاء لا يمكن أن يخطئه، لحظات عدت دهورا، وقف الزمان، ومضات ذاق فيها ما ذاق، لكنها محت وباتت يسيرة، بل بات عناؤه شيئا عذبًا حلو المذاق.

- أرجوك تنحى، قالتها وهي تنظر إليه بحيرة.

لم يرد يحيى، بل لم تأت منه أي إشارة، أخذت تنظر إليه ثم قالت بصوت خافت.

– أتعرفنى؟ قالتها بصوت مكتوم.

– الآن، عرفتك.

– لا أفهم، هل أنت من أهل الصعيد؟ هل تعرفني؟ هل تعرف أهلي؟قالتها متلفتة!

– يا ليت لي بمعرفتهم.

– لا أفهم من أنت؟

– أنا القتيل بلا أثم، أنا العليل بلا داء.

اقتحم عليا حديثهما فهم يأخذ بذراع صديقه، أعلمه بقدوم أهل المنزل الذين رآهم وهم ينزلون إلى الحديقة في طريقهم إليهم، بصوت أشبه بالهمس.

– لنا حديث يا زينب، ثم عاد إلى صفوف فرقته الموسيقية.

***

بلغوهـا إذا أتيتم حماهـا ... أنني مت في الغرام فداها

واذكروني لها بكل جميل ... فعساها تحن علي عساها

واصحبوها لتربتي فعظامي ... تشتهي أن تدوسها قدماها

إن روحى من الضريح تناجيها ... وعيني تسير إثر خطاها

لم يشقني يوم القيامة لولا ... أملي أنني هناك أراها

انتهى العزف الذي جاهد فيه يحيى قد الإمكان من منع نفسه عن رؤيتها وهي تقدم الطعام والشراب للجالسين، انتهى عرض خيال الظل، انصرف أصحاب القصر لاهين تاركين الفرقة والجواري ليقدموا لهم الغذاء بعد الغناء، أخذ يحيى يتطلع إلى الوجوه مجددًا، يبحث عنها في كل مكان إلى أن جاءه عليا، بشيء من الحذر أخبره بأن يذهب إلى جهة الحديقة التي بنهاية الممر وهناك سيراها.

أطلق يحيى قدميه للرياح، شاطحا بكل مخاوفه، لاهثا حتى ظهر خيال وسط الظلال المثمرة، دفعته قدماه حتى اقترب فرآها ورأته، ها بين أسور الأغا وحدهما دون أحد، باتت زينب تضغط على يديها تحاول أن تهدئ من ترقبها ويحيى كالصنم الباسم ينظر إليها وقد ربح كل شيء.

- من أنت؟ وكيف عرفت باسمي؟

- أتسألين مجددًا من أنا؟

- أخذت تنظر إلى عينيه، تذكرتك، المملوك الذي طلب اللقاء، لم أعلم أنك من العياء.

ابتسم يحيى لها، فبادرت

- ما لونك الحقيقي إذن؟

تقرب يحيى منها حتى هبت رائحة العنبر التي سحرته من قبل، دنا بجانبها.

- لا يهم اللون أو الشكل، كل ما يعنيني هو أنت، وهدفي في الحياة الآن أن أخرجك من هذا السجن.

نظرت إليه نظرة تشكك، عاد الحزن ليرتسم على وجها الصباح ليزيدها جمالا، نظرت إلى أسفل تواري نظرة الحزن التي اجتاحها.

- لكنك لا تملك شيئًا يا سيدي يحيى لإنقاذي.

اندهش يحيى من ذكرها لاسمه.

- إذن تعرفين من أكون؟

- كيف لي لا أعرف الشاب الذي أنقذني، ابن الشيخ زكريا، ثم تساءلت بحياء، أي مغامرة أتت بك إلى هنا؟

- وحدك أنت ذنبي الوحيد.

- أتطلب مني العيش بحرية داخل قفص من الحديد.

- بل أطلب أن تحلمي، حتى يتحقق ذلك الحلم.

- أنا جارية، قالتها ثم وقفت لتبتعد عنه، قد يلقى بها إلى أي آتون بأمر سيدها.

- سأخلصك من هذا.

- لا أعلم ما أقول.

اقترب منها حتى لمس يديها المنعمة، وقف أمامها يتطلع إلى عينيها، كم سيشتاق لهما بعد هذا الحديث، كيف له أن يتركها وقد شفا قلبه بعد هذا اللقاء، فكيف سيشفى جفاء الأيام القادمه.

- دعك من هذا الآن، يكفيني هذا اللقاء.

- أخشى عليك أن يعلم بأمرك أحد، الأسلم أن ترحل الآن.

التفت إلى جهة الجمع، وقد تناساه لدقائق، أغناه لقاء كان يبدوا بعيدًا أو مستحيلًا.

- اسمحي برؤاك مجددًا.

- خروجي يقتصر على السوق فقط.

- بعد غد هناك أرض فضاء خلف مدرسة السلطان الحنفي قابليني هناك.

- لا أعلم، قالتها ودارت بجسدها كي لا تنظر إليه.

التف يحيى مجددًا حتى تقابل العينيان بنظرة عشاق، لم يحس بنفسه إلا وهو ينشد قائلا»

زدني بفرط الحب فيك تحيرا

وارحم حشا بلظى هواك تسهرا

وإذا سألتك أن أراك حقيقتًا

فأسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

اقترب أكثر، أمسك بيديها المرتعشة، أحس بالرعشة تسري بين ضلوعه وأحست هي أن الحياة تبتسم لها من جديد.

- سأنتظرك، وسوف تأتين.

***

جلس الشيخ زكريا يناظر كلا من القاضيين الشافعي والحنفي وحوله عدد من المماليك، يتوسطهم السلطان وأغا السلحدار، وسط شرفة تطل على حدائق القلعة، مقر الحكم ورمز الدولة المملوكية، تحدث القاضي المالكي...

- لابد من المهادنة مع ملك الروم يا مولاي، نحن لا طاقة لنا بهم الحين.

- لا بل نحن دولة بأس، كما لدينا خليفة المسلمين العباسى، فبالتالي بلاد المسلمين ملك لنا جميعها، قالها السلحدار متحديًا.

ظهـرت بعـض صيحـات الإعجـاب مـن جانـب بعـض المماليـك، فـأزاد...

– لابـد لملـك الـروم أن يديـن لنـا بالـولاء، كـما تديـن لنـا، ممالـك الهنـد وقبائـل الأفغـان.

– لكـن عدتهـم أكثـر مـن عدتنـا، وحـال الدولـة ليـس كحالنـا، هـم أكثـر تنظيـمًا ومازلنـا نحـن فرسـان تصـول دون أدوات، كان صوت الشيخ زكريا خافتًا لكنه أسكت الجميع.

– أيـده قـاضي الشـافعية، أرى أن المحروسـة تعـاني مـا تعـاني الآن يـا مـولاي، ولا يوجـد عاقـل ينصـح بحـرب والداخـل ممـزق.

نظر السلطان إلى زكريا مجددا، فأجابه صاحبه...

– نعمـل مـن الداخـل، ونوحـد الصفـوف، ويجـب أن تنظـر إلى حـال العامـة، نرفـع الظلـم أولًا ولا مانـع مـن مهادنـة الـروم عسـى أن يؤجـل البـلاء لحـين انتهـاء عدتنـا.

– ونعـم المشـورة، سأرسـل إلى بايزيـد الثـاني برسـول سـلام و لنـرى مـاذا سيسـفر عـن هـذا، ثـم نظـر إلى أمـير السـلاح، أريـد المحتسـب الآن، مسلسـلًا بالقيـود. وأنـت يـا سـلحار أريـدك أن تخـرج مالـه ومـا أخفـاه علينـا.

خرج الجميع من القاعة وهم يتحدثون بصوت منخفض، وبينهم الشيخ زكريا يتكئ على عبد السلام الذي كان ينتظره خارج القاعة، فجاءه الصوت من خلفه.

- يا شيخ زكريا.

التفت الشيخ فوجد الأمير أغا متقدمًا نحوه باسمًا ثم ضمه إليه.

- لا نلقاك إلا نادرًا يا أطيب الرجال.

- اصطنع الشيخ ابتسامته، أراك الله كل خير يا أمير.

- لعلّي أتطلع إلى الحديث معك بشكل أوفر.

تقدم الشيخ خطوة محاولا الانصراف...

- لنا لقاء وقت ما تشاء، يمكنك أن تشرفني بالمدرسة وقت ما تشاء.

- وما أخبار يحيى، قالها وهو يسير بمحاذاته.

- بخير، لله الحمد.

- مازلت أفكر كيف أرد له الجميل؟ ليت لي ابن مثله.

تطلع إليه زكريا يحاول أن يستشف ما يسعى إليه، يعلم أن لديه دهاء الذئاب وخسة الضباع.

- لك ابن خير منه.

- ابتسم كعادته، نعم لى صالح وأيضا لى أبنه ولدك أنقذها.

***

- لم أتصـور أن أحظـي في حيـاتي بسـعادة كالتـي أعيشـها الآن، قالتهـا وهـى تنظـر إليـه...

فأجابها قائلا»

لوكانَ لي قلبان لعشت بواحدٍ

وأفردت قلباً في هواك يعذبُ

لكنَّ لي قلباً تّملكَهُ الهَوى

لاالعَيشُ يحلو لَهُ ولا الموت يقربُ

قالها وهو منعم، قالها وهو سعيد...

- أتحسب سيدي يوافق على عتقي.

- دعونا نتبع معه الحيلة والدهاء.

- كيف لك أن تحتال على هذا الشيطان؟

- أحس إني قادر الآن على فعل كل شيء، لا ولن تحزني، هذا ما أعدك به طالما يدب في جسدي النفس.

- أنا على يقين بذلك، يكفي أنك جانبي.

ابتسما والعينان تتلاقي بلا حرج أو حجاب، لحظات تتناسى فيها عبوديتها، بكل ما فيها من ذل للنفس، الآن هي حرة، طير طليق الجناح.

- أخبرني عنك، أحب أن أسمع عن حياة الأحرار، ما أحب الأعمال إليك؟

- لن تصدقي، ثم ضحك.

- أريد أن أعرف.

- أحب الأعمال لى أن أراعي الغنم.

- ضحكت، أتمتلك وقفًا بأكمله، وتقولي لي أن ترعي الغنم.

- وما في ذلك؟

- هذا عمل راع وليس عمل سيد.

- ألا تعلمي أن أغلب الأنبياء والرسل رغوا الغنم، هي مهنة الأنبياء وهم الأسياد الحقيقيون.

لمح يحيى في زينب نظرة إعجاب واهتمام للمعرفة فأردف

- كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، هذا عمل الراعي الحقيقي وهو يرعى أغنامه، يضع عينيه عليها حتى لا تبتعد أو تتفرق، يحميها من الذئاب، ويحمي ضعيفها من كبيرها، وصغيرها من كبيرها، و أهم من ذلك كله أن يوفر لها المرعى، هذا هو الراعى سواء رعى الغنم أو رعى إمراة وأولاد منها.

انتابتهما لحظات الصمت التي تأتيهما بها أشبه التشبع، يشرد يحيى وتنظر إليه زينب، تتساءل من هذا الإنسان الذي ظهر لها من الظلام؟ من يكون حبيبها الذي أعاد لها الأمل والحياة في آن واحد؟ هل من الممكن أن تتحرر من جديد، تعود مجددًا إلى قريتها بالصعيد... يعود يحيى من شروده ليجدها شاردة، فيناجيها هامسًا...

- النيل دائمًا يغذي الخيال.

- لا يحزني ولا يفرحني إلا أنت.

مال إليها حتى تلاقي الوجهان وبشيء من الهمس..

كَتبتُ لَكُم نَفسِي وَما مَلَكَت يَدِي

وَإن قَلَّت الأَموالُ رُوحِي فِداكُمُ

لِسَانِي بِمجدكُم وَقَلبِي بِحبكُم

وَما نَظَرَت عَينِي مَلِيحاً سِواكُمُ

***

طالت نظراته لوالده وهو يقرأ، يتأمل صفاء وجهه محاولًا أن يتعرف على مزاجه قبل أن يهم بالحديث، والشيخ في مجلسه يتأمل في كتاب ضخم ملقى أمامه بأوراقه وأتربة الزمن الغابر، لا يعيره أي اهتمام، منكب باحثا بين الكلمات، لحظات تمر ولا يريد أن يقاطع والده، حتى إن أعاقه، كيف سيفتح الموضوع معه في تلك المرة؟ كيف ستكون ردة فعله؟ هل حقًا والده سيتفهم مشاعره وما يؤرقه؟ هل يشجعه أم سينهره كما المرة السابقة؟

ظل الحال على ما هو عليه، وشعلة المصباح التي قاربت على الانطفاء زادت من حالة الهدوء والتوتر، وبات الصدام وشيكًا.

– لعلي أنتظر منك الحديث منذ قدومك إلى الآن، أهو أمر خطير إلى ذلك الحد.

– متلعثمًا، في الحقيقة نعم يا والدي.

– إذن قل ما عندك، ثم رجع بخلفه إلى الوراء ليتلقي الأخبار القادمة إليه.

– في الحقيقة، هناك سر في نفسي يؤرقني. سكت ثوان كما لو انه ينتظر أي بادرة من والده، فوجده ساكنًا يتأمل ما يقول فأكمل، تتذكر يوم الهجوم على الخان وما جري مني مع ابنة السلحدار وخادمتها.

- أتذكر جيدًا وأتمنى ألا أكون قد خُدعت في المرة السابقة؟

- حاشا لله يا والدي، لكنك أنت وصلاح لم تصيبا الهدف.

أخذ الشيخ يدرك كلمات ولده ثم أردف...

- وما عين الحقيقة؟

- لم تكن ابنة السلحدار، بل كانت خادمتها.

سكت يحيي، وظل زكريا على حاله، بنفس النظرة، ونفس معاني الوجه التي لم تتغير، كأنه لم يسمع شيئًا، أو سمع ولم يع.

- مانعت نفسي، لكنه الهوى يا والدي، أصابني ولم تستطع نفسي أن تصده.

استفاق الأب من كلمات والده، أخذ ينظر إليه وهو جالس أمامه على السرير الخشبي، المغطي بالقش، رأى ما أصابه، ولكن مازال لا يفهم الكثير، هم من مجلسه برفق، سار بخطاه إلى أن جلس بجانبه، تبسم له، أحس أن مثله يحتاج إلى بعض الرفق والحنو لا الغلظة، طلب منه أن يزيده.

قالها الوالد فانفجر بركان يقذف كل كلمه تحرقه أو تؤرقه، حكا عن اللقاء الأول واللقاءات الأخرى، وكشف

لوالـده عـن محبوبتـه التـي جعلـت مـن الحيـاة بهجـة وشـقاء، وجعلـت مـن أيامـه منتهـي الراحـة ومنتهـي العـذاب. أخـذ يتأملـه وهـو يـراه يحـترق، يـرى غرامًـا يقطـر ألمـا، يـرى هـلاكًا محققًـا ممـا يحكيـه، أخـذ ينصـت إليـه إلى أن قـال...

- أعلم أني خالفت أمرك يا والدي.

نظر إليه ثم أومأ برأسه متحسرًا فأكمل يحيى...

- يعلم الله أن ما بي هو ما دفعني إلى ذلك.

- هـل تدبـرت قبـل أن تخطـو بهـذا الفعـل، مـاذا لـو قبـض عليـك داخـل قـصر السـلحدار؟

انحنى يحيى إلى أسفل، ثم أستطرد الشيخ...

- والآن ماذا تنتوي؟

- أنـوي أن أحررهـا، أن أتخذهـا زوجـة ولـن أرضى بغـير ذلـك يـا والـدي، قالهـا وبـه شيء مـن التحـدي، يعلـن بـه أنـه لـن يسـاوم أو يـرضى بحلـول أخـرى.

- أتظن سأمنعك؟

- أتوسل إليك لا تفعل يا والدي.

- يا ليتك تركت المسكينة في بؤسها، يا ليتك فعلت، لأرحتها وأرحت نفسك، لن أجني على مسكينة، يكفيها ما رأته في عبوديتها. ثم ابتسم بشيء من الحنين مهمهما».. «كل الأشياء تصبح أوضح حين تفسر، غير أن هذا العشق يكون أوضح حين لا تكون له أي تفسيرات».

- ابتسم وعادت له الحياة من جديد، إذن سأذهب إلى السلحدار لشرائها منه، وبالثمن الذي سيطلبه؟

- أنت لا تعلم ما ينويه السلحدار لك؟

نظر إلى أبيه مستنكرًا، تساءل...

- وماذا يريد السلحدار مني؟

- قد يريدك أنت.

استوقفته الكلمات من جديد، برقت عيناه، قد يحس بما يعنيه والده، ولكنه مازال يتساءل...

- وماذا يريد الأغا من شخص مثلي؟

- إنه أغا السلحدار، لا يمكن أن تعلم باطنه، لكن أنا على يقين من أنه يريدك لابنته.

- ابنته، ولماذا أنا؟

- لا أعلـم، لا أعلـم، لكنـي أرى مـا بداخلـه مـن يـوم حفـل السـلطان.

حـاول أن يتذكـر كل إشـارة أو إيحـاءه صادفتـه في أحاديثـه مـع الأغـا، فـازداد رعبًـا وقلقًـا، بينـما استرسـل الشـيخ...

- لا مانـع عنـدي مـن أن تتـزوج مـن تلـك الفتـاة طالمـا كانـت فتـاة صالحـة ترعـى العـشرة، ولكـن يجـب التخطيـط والتدبـر ونـترك الفرصـة للأيـام.

- سأهزمه بالخدعة والدهاء.

- ابتسم، وأي خدعة ستنطلي على هذا الذئب.

- لا أعلم، ولكن يجب أن أدبر حيلة لأفوز بها.

نظـر لـه الشيخ كأنـه يـرى ولـده لأول مـره، ثـم قـام إلى مجلسـه وهـو يهمهـم... «لعـل الأشياء البسيطة هـي أكثر الأشـياء تميـزا، ولكـن... ليسـت كل عـين تـرى».

***

- لعل الأمور تسير في صالحنا يا سيدي؟

- نعم أرى أن الأمور تسير للأفضل.

قالها، ثم اتكأ على فراشه الممتد بطوله، ابتسم ابتسامة نشوه ثم قال لولده...

- المهم الآن أن تسيطر على العوام، لا أريد أى تمرد بشان الضرائب الجديدة.

- لا تقلق يا والدي، فشوارع المحروسة بالكامل تحت سيطرتي.

- العوام، لا أريدك أنت تحديدا» أن تستفز أحدًا منهم.

- سيدي، قالها بحده، أنت تشغل بالك برعاع، لا يملكون شيئًا إلا الطاعة والسجود لأسيادهم.

- لكن إن استيقظوا سنغرق جميعًا، لذا لا نريد أي فعل يدفعهم للتحرك الأن، نريدهم كذلك حتى يحين الموعد.

ثم أخذ السلحدار يمد بصره للأفق بنهاره الذي بدأت نجوم الليل تغزوه.

- سنظل بحاجة للعوام، بتلك حالة الجهل ستسهل لنا ما نخطط، إنهم عنصر مساعد.

- لا أعلم لماذا كل هذا الخوف، هم جراد يأكلون بعضهم البعض، يعيشوا على الفتات وتفتك بهم الأمراض، لا قوة لهم، بل عقولهم تملوها الشعوذة والدروشة. ثم

ابتسـم وأمسـك بسـوطه... طالما هـذا في يـدي فـلا تخـف تلـك الصعاليـك.

- إلا واحد منهم.

- حسن الجني، لا تقلق سأدبر له يوم معلوم.

- حسن الجني خطر، لكن هناك من هو أخطر.

- من هذا؟

- شـاب إن طاوعنـي، مكنتـه ومكنـت نفـسي وأسرتي لحكـم أجيـال، ولكـن إن اسـتعصى فسـيجلب كثـيرًا مـن المشـاكل.

- مـن عـلى تلـك الأرض يؤرقـك هكـذا يـا والـدي؟ قالهـا وبـدت علامـات الـشر في صوتـه.

فقاطعهـم أحـد الخـدم، وهـو يقتحـم المجلـس في هـدوء منحيًـا للسـيدين.

- يحيى بن زكريا، يستأذن في لقاء مولاي.

قالهـا الخـادم وغـادر، اعتـدل السـلحدار في جلسـته، لمعـت عينـاه وتـشرق وجهـه، هـي أحسـن مفاجـأة حقًـا، بينـما تغـير وجـه صالـح...

- وماذا يريد منك هذا ؟

- أعلم ما يدور في نفسك، ولكني أحذرك إياك وهذا الفتي، حاول أن يكمل صالح ولكن أباه نهره بنظرة رادعة، إياك وهذا الفتى، سمعت.

خرج السلحدار إلى ضيفه الذي كان في تلك المرة مبتسما عما كان في زيارته الأخيرة، أكثر لمعانًا وهو من يستعد للقاء وليس الطرف الآخر، تبادلا التحية والتعانق، كصديقين حميمين، ثم جلسا على الفرش المنثور في إحدى أركان القصر.

- كم سعدت عندما أعلموني الخدم بقدومك؟

- لقد جئتك طامعا في كرمك يا مولاي.

- أخبرني ما تريد، فأنت كل طلباتك مجاب عليها.

- أشكرك يا مولاي، لكنه ليس طلبي بل طلب الشيخ زكريا نفسه.

- وليس بنا خيرا إلا بهذا الرجل، إذن فأمر من صديق وخير رسول أرسله لنا.

- فلوالدي خادم يدعي عبد السلام، تربي على يديه كابنه ويريد أن يزوجه.

- ابتسم السلحدار، وما دخلي بهذا؟

- الخادم كان معي يوم الغارة ورأي خادمة كريمتكم وكان يطمع في أن يتزوجها.

- أرى والدك يهتم كثيرًا بأمور الخدم.

- كما قلت لمولاي أنه في مقام ولده.

- وأنا لا أرفض رجاء للشيخ زكريا.

انفرجت ملامح يحيى، أحس بالارتياح وهو يتوارى في الطلب باسم والده، يحاول أن يبعد أي شك من شاردة السلحدار بخصوصه.

- لكن أستأذن الشيخ زكريا أن يمهلني أسبوعًا واحدًا كي أولا أسأل الجارية، ثم بابتسامة تحمل الكثير من المعاني، أليس هذا الشرع، ثم أدبر لابنتي خادمة ثانية، فإن تلك الجارية بمثابة صديقه مقربة لابنتي.

تفاجأ مجددًا من الرد، كان على وشك أن يمسك بها، ولكن هذا الذئب أعطاها له ثم أخدها منه، حاول أن يتظاهر بعدم المبالاة، لا يريد أن يلح عليه، فقط فلينتظر أسبوعًا آخر حتى يحين الفرج.

- لا بأس، لن يضير الخادم أسبوع أو شهر، قالها وهو يخفى عجزه.

- أرى أن والدك يخطب لخادمه، ألا يحين الأجل لأبنائه.

- ضحك يحيى، ثم بشيء من الدعابة.. لا، فوالدي يبغي أن نظل بجانبه، لا يريد لنا الزواج.

- كيف لمثلك لا يتزوج، ثم قام واقترب من مجلسه، دانت حدة صوته، كأنه يوسوس، أرى أن الوعد قد جاء لجوازك، ولكن من تتزوج بهذا الشاب كريم الأصل؟

أخذ ينظر إليه بينما يحيى يحس بالضغط عليه ومن حوله آلاف الأفكار المتلاحقة، إنه يعرض عليه الزواج، الشيخ الكبير كان على حق، يتساءل كيف يحل نفسه من هذا الضغط.

- لا أخفي عليك يا يحيى حقيقة شعوري من ناحيتك، فأنت بمثابة ابن لي، ثم سكت ينظر إلى يحيى، بينما الآخر يتعرق، يحس أنه محاصر بين أسوار قصر السلحدار، ماذا إن لم تنفع السياسة، فله نفس الذكاء، فوالدي قرأ ما في نفسه، فهل يقرأ هو الآخر ما في بداخلي، قالها يحيى لنفسه، فتعرق أكثر، عرق كاد أن يفضحه، بدأ يتسلل من مسامه، ليتحول إلى أشواك تنهش جسده من رأسه إلى باطن قدمه، والسلحدار يقرأ ملامحه ويتأمل بهدوئه المعتاد.

- عمومًا.. قالها السلحدار، مؤكدًا انتصاره، لعل الأسبوع القادم نشهد فرح الخادم وسيده.

***

سُرقت خزينة السلطان، سرقة خزينة قايتباى، قالها أحد الراكضين بالسوق وهو يهرول، لا يرى أمامه، لكن بقي صوته في كل مكان مر عليه، ليلقي الهرج والمرج والتساؤلات بين العامة...

- ماذا حدث؟

- لقد سرقت خزينة السلطان، قالها أحد العامة لاطمًا على خديه، بينما الآخر رد ساخرًا..

- كأنك من سرقت يا تعيس؟

- بل ستحل الداهية علينا بالنهاية، إن سرقت الخزينة فستملئ من جديد من كدنا ووجعنا.

- أتعنى أن هناك ضرائب جديدة، لا يمكن أن يجدوا شيئا» لياخذوه.

- تساؤل أخر، أيكون الجنى من فعلها؟

- لا، فالجني لا يغير على أموال السلطان.

تناقلت التعليقات والتكهنات وسارت من كل حي حتى وصلت إلى قلعة الحكم وتنادى الخدم والعبيد بالنكسة التي حلت على سلطانهم، فبات الاعتداء حديث الكافة، حشدت الحراسة وأعلن التأهب من جانب الجند السلطاني، وباتت القلعة في حالة حرب، الحركة غير اعتيادية، الكثير والكثير من الأمراء بدؤوا بالتوافد على قاعة السلطان ،وظهر الأمير أغا السلحدار موشحا سيفه، وباتت علامات الغضب على وجهه، زادت التكهنات وانخفضت أصوات العبيد لتعلو أصوات الأمراء المتوافدين لزيارة السلطان، تقدم الأغا الجميع في الحديث وصوته يملوه الغضب والانفعال...

- مولاي السلطان، لقد أخذنا الاستخفاف بحسن الجني ورجاله إلى أن تجرأ عليك وعبث بقصرك بالأزبكية، الأمر الآن أصبح تهديدًا لهيبة الدولة بأكملها.

لم يجب السلطان، أخذ ينظر إلى السلحدار، لكن تحسبه لا يرى شيئًا، يتطلع في الفراغ وهو يستمع إلى السلحدار.

- مولاي السلطان، إن شغب العامة هو أخطر شيء ممكن أن يحدث للمملكة، ثم تقدم خطوات من مجلسه، لا شيء يضمن سلامه الدولة إلا بالقضاء عليهم، ائذن لي يا مولاي أن أنجز عملي وإلا فلا أضمن لك ولاء الكثير من المماليك.

أخذ السلطان يتطلع الوجوه الماثلة أمامه، تراءت علامات القلق والتحير فباغته السلحدار مجددًا.

- لا أخفي عليك سيدي بأن هناك من المماليك وأبنائهم من يتعامل مع الجني، بل تربطه ببعض علاقات مصالح، والهدف في النهاية إسقاط دولتكم وإعطاء صورة للعامة بعجزك عن حكم البلاد.

أثارت كلماته الأخيرة الباقية من صبر قايتباي، فبات وجهه أكثر احمرارًا، توردت عروقه التي نفضت، ثم عقب قائلًا...

- أريد أن يقبض على كل من شارك في هذا، سواء كان من العامة أو من المماليك، أريد حسن الجني حيًا لأحاسبه بنفسي.

- فأجابه السلحدار، كل ما يعنينا يا مولاي هو إعادة المال لخزينتك، وإعادة الهيبة في أعين الجميع، وتلك مهمتي الأولى، لكن قد لا أضمن لك حياة الجني، سيدي، الجني يجب أن تنتهي سيرته عند هذا الحد.

تردد السلطان قليلًا، يستجمع بعض قوى أفكاره المشتتة، ثم تحدث قائلًا..

- لك تفويض كامل بملاحقة كل يد امتدت إلى أموالنا، لا تتهاون مع أحد منهم مهما كانت الأسماء المتورطة، أريد معاقبة كل الجانين.

تسارعت أنفاس السلحدار منتصرًا، خرج من القاعة وهو يحمل كل الصلاحيات التي تجعله يقضي على أي غريم، خرج مترجلًا إلى أن وصل إلى باب القصر، قبل الخروج تقدم ثم وقف، نظر إلى أحد الحراس الواقفين على إحدى أبواب القصر، لحظات ثم اقترب منه هامسًا الجندي بحذر.

- مازال البغل يسير بالحمولة، أين سينزلها؟

- اترك الحمولة تتجول حتى تهدأ الأحوال.

***

10

المؤامرة

للمرة الرابعة، يدخل فيها يحيى إلى قصر السلحدار، فقد فات الأسبوع بكل ما فيه، السلحدار أصبح الحاكم الفعلي للبلاد، قد يعطيه زينب ولا يهتم بالحديث معه، تراه مشغولا بأمور أكثر مني ومن زينب، دخل القصر يتحسس اللقاء، جاء يسأل عن السلحدار بلسانه وعن زينب بقلبه، دعي إلى الجلوس فجلس وهو لا يطيق، يريد أن يهم بأخذها ثم يطير بقدميه خارج هذا القصر، قد تكون آخر زيارة لي في هذا السجن... يقولها لنفسه وهو يحس بكل لحظة تمر كالدهر، أتاه صوت السلحدار من الخارج فأحس أن الموعد قد حان، حاول أن يستفيق سريعًا من أحلامه حتى لا يقرأها الذئب القادم نحوه.

– أعتذر عن الإزعاج يا مولاي.

– أنت تأتي في أي وقت، قالها وهو يصطنع الابتسامة يحاول أن يخفي شيئًا.

أجلسه ثم جلس بجواره، وأكمل

– إن لم تحضر لكنت أرسلت في حضورك.

– لقد جئت بعد أسبوع كما طلبت يا سيدي.

– فلننس هذا الأمر مؤقتًا، فإني أريد الحديث معك في أمر آخر.

باتت علامات الضيق أن تقتحم قسماته، لكنه قرر أن يبدي عدم الاكتراث، فسيد مثله لا يمكن أن يضيق بشيء من أمر الخدم، هكذا يجب أن يفتعل.

– خير إن شاء الله يا سمو الأمير.

– لا أعلم ماذا أقول يا بني، سكت للحظات، ولكنه ليس خيرًا على الإطلاق، قالها ثم قام من مجلسه يتمشى من حوله وكأنه يتأمل أو يستلهم شيئًا، أخذ ينظر إليه وهو يزحف من حوله، يحاول أن يفكر بما ينوي هذا الداهية، وما تلك الأخبار التي يحملها له، أي مفاجأة جديدة.

– لقد شغلت بالي يا سمو الأمير، ما الأمر الذي تخفيه؟ قالها متباردًا.

- أنـت تعلـم بأمـر خزينـة السـلطان، ولكنـك لا تعلـم أن كل الأمـراء والمماليـك والبصاصـين برياسـتي نبحـث عـن حسـن الجنـي ليقـدم إلى العدالـة، كـما نحقـق في أي متواطئـين معـه.

- أحقا حسن الجني من فعلها، وإن يكن، ما شأني بهذا؟

- للأسـف يـا ولـدي، فاسـمك واسـم والـدك عـلى المحـك بعـد سرقـة خزينة السـلطان.

- اسمي واسم والدي؟

- نعـم، فـكل تقاريـر البصاصـين تشـير إلى علاقـة واضحـة بينـك وبـين حسـن الجنـي، ثـم اقـترب منـه أكثـر حتـى جلـس بجـواره مجـددًا، فقـد شـوهدت مـن قبـل أثنـاء صعـودك إلى جبـل زينهـم، كـما شـاهدك كبـير البصاصـين بنفسـه وأنـت تحـوم بالشـهور في محيـط الأزبكيـة، حيـث تتواجـد خزائـن السـلطان بقـصره القديـم.

- أنـا لم أكـن، أنـا ليـس لي علاقـة بـكل هـذا، قالهـا ثـم وقـف محـاولًا الدفـاع عـن نفسـه، فامسـك بـه بلـين وأجلسـه مـن جديـد.

- أعلـم أنـك بـريء ولكـن كثـير مـن الأمـراء يرفضـون وجـود والـدك مـن جديـد بجـوار السـلطان، بـل البعـض منهـم هـدد بأنـه سيدخل اسـم والدك بحكم علاقته بالعامة، كل هذا وأنا أحاربهم وأقـف أمامهـم أمنعهـم بـكل قـوتي حتـى أتدبـر في شيء يحميـك.

كانت الخيوط تحاك ببعضها، ثم تلتف عليه وهو جالس، يحاول أن يتحرك فتعوقه، بل لا تعوق جسده وحده، بل هي تعوق تفكيره، حامت الخيوط على كل جزء بعقله فقيدته، إنه الآن محاصر بقصر السلحدار، وقد يكون طريد العدالة في لحظة، لكن هذا الداهية يفعل كل هذا لسبب ما، فما هو؟ قالها بداخله.

- وما نصيحتك لي يا سمو الأمير؟

- مازلت أفكر يا ولدي، فالموضوع خطير وقد يقذف بك وبالجني إلى الموت دون حتى أن يعلم السلطان، فإنه أعطى كل الصلاحيات للأمراء وأنا منهم طبعًا، لكني وحدي أحميك والجميع يريد الفتك بك وبوالدك، ولكن هناك حل قد يعوقهم من النيل منك؟

- وما هو هذا الحل برأيك؟

- أري أنك يا يحيى لا تنظر إلى المستقبل، ليس لك أي طموحات كوالدك، أما أنا فأرى فيك مستقبل قد يكون له أثر بالغد، ثم اقترب منه أكثر، فالملوك والحكام هم من يكتبوا التاريخ يا يحيى لا الحالمين أمثالك.

- مازلت لا أفهم شيئًا، قالها وعلامات الضيق والغضب قد تحررت، سكنت جميع ملامحه وبات كالبركان الفائر.

- الحل أن تتزوج ابنتي، فبذلك ستكون معصومًا عن أي مضايقات أو مؤامرات قد تحاك لك من المماليك، فلا أخفيك أمرًا، فإني أراها قد تعلقت بك وقد رأيت هذا في عيناها، وشاب مثلك قد يكون له مركز آخر إن أطاعني.

- هذا شرف لي يا سيدي، ولكن ما علاقة هذا بتورطي مع الجني؟

- سأخرس الألسنة، بل سأقطعها إن لزم الأمر، ومن يعلم فقد تعود أموال السلطان دون أن تمس أو يمس صديقك حسن الجي.

- ابتسم يحيى بيأس وهو يستمع إلى تفاصيل المساومة، ثم بادره، ألا تخشي أن تدخل بيتك أحد أصدقاء الجني؟

- من يعلم يا ولدي، قد أحتاج الجني ذاته في المستقبل، ثم قام من جلسته وأخذ يتمشي مجددًا، من قال إن الجني خائن بالعكس أنا أره بطلًا، وأرى أن آخرين من سرقوا تلك الأموال ليورطوا حسن ويتخلصوا منك ووالدك.

أخذ يسير مجددًا حول يحيى وهو يتأمل ويفكر، لا يقوى على الرد أو الدفاع، فقد فعلها السلحدار وأحكم مؤامرته، حتى زينب لم يعد يستطيع أن يفاتحه فيها الآن فينكشف كل شيء، وما باله لا يعلم أيضا بأمر زينب، أو

بأمر الزيارة، هذا الرجل خطر، فتقدم نحوه السلحدار من جديد يغزو أفكاره.

- لكن من أجل زوج ابنتي قد أقف أمام الجميع، وقد أضمن لك سلامتك وسلامه حسن الجني، كما قد أحتاجك للتواصل مع حسن الجني في المستقبل فأنت أصبحت سيدًا له غد آخر.

وقف يحيى محاولا أن يفك نفسه من قيوده، محاولا الهروب للتفكير والهدوء بعد الحصار، محاولا أن يؤجل المعركة المفاجئة التي دخلها إلى حين.

- أريد التمهل والتفكير.

- أمامك للغد، ويوم الخميس القادم سيكون العرس، ذلك إن أردت.

***

انقطعت الأخبار والمواعيد منذ لقائهما الأخير، جلست زينب شريدة وحدها في أحد أركان جنائن قصر السلحدار، وسط أغصان مثمرة لم تر مثلها في قريتها الفقيرة، كان آخر لقاء جمعهما قد تواعدا على عدم الفراق، كما وعدها بأن يحل أمرهما قريبًا، كانت تنتظر أن ياتى الفرج كل يوم ليحل كل طلاسم حياتها التي دخلتها بين ليلة وضحاها، لعل كل تلك

المحن كانت اختبارًا من الله لنعيم أسمى، هكذا أقنعت نفسها يوما بعد يوم، حتى أيام السبي قالتها إلى أن أتاها يحيى ليؤكد صحة ما ظنت، لكن الآن أكثر من أسبوع ولم يصلها منه أي اتصال ولم يحضر في آخر موعد؟ تساؤلات دفعتها إلى الجنون، هل هناك عذر قهري يمنعه أم فقد الشوق أم حكا لأسرته فمنعوه؟ لماذا الحب وعذابه؟ أما يكفيني ما أنا فيه من عذاب حتى أضف إلى همي همًا؟ قالتها بنوع من الحيرة مما هي فيه، فبعد اللقاء، أحست فجأة أنها وحيدة، ضعيفة لا حول لها ولا قوة، لا تمتلك سوى انتظار المكتوب والترقب، بينما كانت تتحدث لنفسها إذ جاءها صوت ينادي من إحدى الغرف، أسرعت زينب وكأنه بوق يوم الساعة، تناست حبيبها أمام الواجب المقدس للعبد عندما يناديه سيده، رقدت إلى الحجرة التي جاء منها النداء، لتضع نفسها بين يدي سيدتها الشقراء.

- أريد تجهيز المغطس ولا تنسي أن تضيفي العطر كالمرة السابقة.

في سكون هزت زينب رأسها طوعًا، وأسرعت إلى الحوض المعد داخل الحجرة، وقامت بنقل الماء بعناية بعدما استعانت بإحدى الجواري لمساعدتها على ملئ المغطس، والتفت الجواري لتتمم عملية التحضير للاستحمام، فالتفوا يعملون بعدما أخذوا أوامرهم من زينب التي وقفت

لتضع العطور داخل مياه المغطس وتلعن حال العبودية التي حلت عليها بيد بعض الأعراب المغيرين على قوافل الصعيد.

جلست الفتاة الجميلة ربيبة العز والجاه بعدما أنزلت كل ملابسها، والبنات من حولها كالدائرة، فقد أمسكت واحدة بشعرها الأشقر الطويل الذي يغطي طوله ظهرها، فبدأت في تمشيطه بعناية وسكبت الزيوت عليه الواحد تلو الآخر، بينما قامت أخريات بتدليك الظهر، وأخرى لإحضار المشروب، بينما استرخت الأميرة بين جواريها تتأملهن وهي تبتسم ابتسامة بها عذوبة وتحمل الكثير من الآمال.

- لعل حديث اليوم مع سمو الأمير قد أبهج صدر مولاتي. قالتها إحدى الخدم بدلال.

- وكيف لك أن تعرفي ذلك يا ملعونة؟

- لم أر وجهك مبتهجًا من قبل كاليوم؟

- ضحكت، حقًا صدقتي، أخيرًا سأسعد برجل تتحدث عنه المحروسة.

- من يكون يا مولاتي؟

- لا شأن لك أيتها الجارية، كيف تتجرئين على سؤالي؟

- ليعم علينا الفرحة بفرحة مولاتي... فتجرأت أخرى، لابد أنه إحدى الأمراء العشر الكبار بالدولة، أو قد يكون حامل السيف السلطاني على أقل تقدير، فمن ذا الذي يحظي بك؟

- ضحكت مجددًا، بل هو شاب لم يأت المماليك بمثله.

- شوقتنا يا مولاتي، من يكون هذا الشاب؟

- هو ابن أهم رجل علم بين العامة، وهو أقرب المماليك إليهم فيهابه العامة والمماليك، هو من أنقذني يوم بطش العسكر على منزل الشاهبندر.

هوى الإناء من يد زينب، وقع ليحدث دويًا كالصاعقة تصم الأذن، وقع ليترك دويًا كالصفير يدب في كل ركن من أركان الحجرة، لحظات تنظر حولها وهي ترى أفواها تنطق بكلام غير مسموع أو مفهوم، إشارات بالأيدي من الأميرة ومن حولها إلى موقع الحطام وهي لا تسمع سوى صوت الأنين الذي أصبح واضحًا لها أنه لا يأتي من وقع الإناء، إنما هو أنين مؤلم يضرب رأسها، ويعصر قلبها من الداخل، يفتك بمشاعرها ويفتك بكل أمل بات لها في الدنيا منذ يوم اللقاء.

- أراك فقدت عقلك منذ مدة، وذلك السهو لا يمكن السكوت عنه.

فانحنت الجارية أمام أميرتها التي طعنت قلبها، بل سرقت منها الأمل الباقي لها كما تسرق عمرها في خدمتها، لا تعلم كيف استطاعت أن تجمح الهياج والغضب بداخلها، كيف استطاعت أن تحكم نفسها فلا تطبق فوق تلك المدللة فتغرقها ولا تعبأ بأي ما يكون بعد ذلك، فقد انتهى كل شيء تقريبًا، تريد أن تبكي حتى تجف كل دموعها، تريد أن تصرخ حتى يضيع صوتها ولكنها جارية، مجرد جارية، فالإناء الذي كسرته هو أثمن حتى من حياتها، لم تجد إلا حديقة اللقاء لتكون مخبأ لدموعها وألمها.

***

تزاحمت الأحداث في سبعة أيام، منذ لحظة خروجه من منزل السلحدار وحتى يوم العرس، أيام لم يتخيل أن يمر بصعابها، لم يدرك يومًا مهما قاسى وهو من لم يقاس الكثير، أن للحياة طعم آخر أكثر مرارة مما شاهده من قبل، فقد تضرع يحيى كل مرارة بحلقه في اليوم الثاني بعد لقائه بالسلحدار، ليطلب يد ابنة السلحدار الذي تعامل معه كأي أب يتقدم أحد لطلب ابنته، ناسيًا أو متناسيًا عملية الإكراه التي سبقت الطلب، فزايد في المهر والهدايا كما يتدخل والد العروس، ثم

ذهب إلى والده ليحكي له ما تم بينه وبين السلحدار، بكى أمامه محاولًا أن يزيح حملا لا يمكن أن يزاح أمام أحد إلا الشيخ زكريا، لم يستشيره تلك المرة، كما لو أراد أن يبعده عن أي بلاء هو سبب فيه، أما والده فلم يغضب أو يعاتب، بل أشفق على ابنه، وأنكب عليه يقوي من أزره ويزيده مما تلزم النفس أن تتزود به في مثل الأوقات الصعبة.

أما العامة فقد انقلبوا عليه حين علموا بأمر الزفاف، كعادة العامة فقد يكرمون شخصًا يومًا ثم يسيؤون له في اليوم التالي، فقد أنساهم الخبر، أفضال الشيخ الجليل، بل تجرأ بعضهم لتأليف النكات والحكايات الساخرة، مما أطمع بعض الأطفال أن يقذفوا المدرسة التي تعلم فيها إخوانهم وجيرانهم بالحجارة، وباتوا بلا حديث إلا يحيى الذي سيتزوج من ابنة السلحدار.

كل تلك الصدمات كانت بمثابة بركان وتوابعه، لا ينطفئ إلا ليطفح بالمزيد، رغم ذلك لم يهتم يحيى بأمر العامة، خصوصا وهو عليم بهم، فاليوم هو ملعون ولكن غدًا ولأي سبب قد يعود سيدًا من جديد، ولكن يبقى أهم الأشخاص إلى قلبه، عليا، صديق العمر، يا ترى ماذا قال حينما وصله الخبر، وماذا عن حسن الجني؟

أمـا الأول فـكان شـأنه مـن شـأن العـوام في البدايـة، حتـى صـب جـم غضبـه مندفعـا في وجـه صاحبـه، ولكـن إلى أن تيقـن الحقيقـة، رآهـا في عـين صديقـه، حتـى نقـل غضبـه إلى لعنـات عـلى السـلحدار وأسـلافه، بـل في عتمـه غضبـه اندفـع إلى التفكـير في اختطـاف ابنـه السـلحدار، ليس فقـط ليحمـي صديقـه وإنـما لـيرد ظلـم السـلحدار وينتقـم منـه، أمـا حسـن الجنـي فهـو الـذي اسـتطاع أن يسـيطر عـلى انفعـالات عليـا، أيضًـا حـزن عـلى يحيـي، لكنـه أثنـى عـلى محاولـة حمايتـه مـن بطـش الأمـراء، كـما أقـر لـه تبرئتـه، واجتمعـوا الثـلاث ليبحثـوا كيفيـة الخـروج مـن هـذا الفـخ، وكـما قـال لـه الجنـي، ذهبـت تتحايـل عليـه فتحايـل هـو، وبـدل مـن أن تفـك أسر حبيبتـك، فقـد أسرك في نفـس القفـص.

بقـي يحيـى طـوال الأسـبوع لا يفكـر إلا في زينـب، رغـم كل تلـك التطـورات والأحـداث السريعـة، كان دائـم التفكـير عنـد الشـط في جلسـته، مـاذا تظـن بي الآن؟ كيـف يمكـن أن يرسـل لهـا ليعلمهـا بـما صـار لـه مـن السـلحدار؟ حسـناء الجاريـة، لكـن الجنـي طلـب منـه التمهـل، طلـب منه آلا يحـاول الاتصال بهـا الآن، ولكـن كيـف وهـي شـاغله الأكـبر، ممنوعـة عنـه، وهـو ممنـوع عنهـا.

هكـذا مـرت الأيـام حتـى يـوم الزفـاف، لكـن كل يـوم يمـر يزيـد مـن غضـب يحيـى ومـن ترتيباتـه لمـا هـو قـادم عليـه، أمـا عليـا فمـع اقـتراب يـوم الزفـاف قـرر أن يفعـل أمـرًا مختلفًـا يتناقـض

مع حجم الألم، فقرر أن يجعل من زفاف يحيى عرسًا لكل العامة، وأصر على تزين بركة الرطلي بكل أنواع الزينة، وأن ترش الأرض بالرمل الملون والماء ونشارة الخشب، ورغم غضب العوام إلا أن عادتهم علمتهم ينسون مع كل جديد، فما أن رأوا بداية الزينات وهي تفرش حتى فرحوا وهاصوا يتغنون، خصوصا أن عليا من أشهر العياء ولم يعدوا يفهمون ماذا يحدث؟ أم من مع من ومن ضد من؟

حينما سأله يحيى على ذلك، أجابه بأن السلحدار قد ظن أنه انتصر عليه، أسرك وضمن ضم وقفك إلى أرضه بالروضة، ولكن نحن العوام لن نسمح بذلك، بل ستكون ترتيباتنا كالسحر الذي يلقي ليبطل سحره، أخذ يقر لصديقه عما رآه مع حسن الجني، بأنه قد يكون هو الآخر شوكة في ظهره.

تحضر حمام يشبك بسوق السلاح لاستقبال العريس كي يغتسل، بل تمادى يحيى بعدما أحس بشيء من الأمل يزرعه له عليّا وحسن الجني، من أن يخطر السلحدار شخصيًا أنه سيدعوا عددا من العوام، وأن عليّا سيكون تابعه بالزفاف، قد رحب بذلك السلحدار كثيرًا، ولكن في المقابل أخذ تفويضًا إجباريًا من يحيى بأن يترك أمر الزراعة والرعي لأخيه صلاح، وأن يتم ضم الوقفان، ويقوم صالح بالترتيب مع صلاح، ويتفرغ هو لحياة الأمراء والأسياد، ليصبح يحيى

مقيدًا بكل الوجوه، إلا أنه في الظاهر هو الأمير يحيى نسيب الأمير أغا السلحدار أعتا سلطة بالبلاد.

جاء يوم العرس صباحًا ليشهد حشدًا يسير خلف مسيرة للعياء بدبابسهم المدببة المليئة بالأقمشة الملونة، يتقدمون بملابسهم المزينة وأحزمتهم الحريرية الملفوفة بإحكام حول بطونهم المشوقة وصدروهم العريضة الرياضية، سار الحشد حتى وقف عند حمام يشبك في انتظار العريس، يقدمون عروضهم أمام الجماهير، كما ظهرت معالم الزينة والاحتفال في الأزبكية حول أسوار القصر، وبات كل الخدم من الداخل في التجهيز لليلة مليئة بالزوار، الكل يعمل بسرعة وتوتر بعدما تأكد حضور السلطان للزفاف وخلفية المسلمين العباسي، تفانت زينب كغيرها في تجهيز الزفاف، بل ظهرت أكثرهن نشاطًا ودقة في الترتيب لعلها حاولت قدر جهدها أن تتناسى المرارة، ولكن كيف لها هذا، فقد بقت ساعات معدودة وتراه، ستراه تلك المرة بكامل زينته يزف على سيدتها، كيف حدث ذلك؟ أيام معدودة يغيب عنها ثم يأتيها الخبر كالمطرقة المدوية على رأسها، جرح غائر ولكنه تجمد وأصبح لا ينزف، الآن لم تعد تحس به فلا يوجد بعد هذا اليوم ما يحزنها، بل أنه يؤلما بل يكاد يقتلها، فقررت أن تصب غضبها على كل ما حولها بالعمل، ستعمل حتى تموت أو إلى أن يجد الله مخرجًا لبؤسها.

ظلت الاستعدادات تتصاعد، وبدأت أصوات الطبل والزمر تزداد باقتراب الغروب، وأصر العوام أن يجهزوا زفه ليحيى تسير من بركة الرطلي وحتى حدائق الأزبكية، اتخذت موسيقاها من ربابة ومزامير وطبل تزيد من الحشد كلما مرت بتجمع حتى صار الوضع أشبه بالاجتياح، تكتل من البشر يسير في اتجاه قصر حاكمه، الأمر الذي أزعج بعض الفرسان وبدأت حالة من التوتر والترقب، فأعداد العوام كانت تفوق جميع المدعوين، وإن حدث أي مناوشات قد يتحول العرس إلى معركة ضارية.

وصل يحيى إلى القصر متزعما انتفاضة شعبية جعلت الحراس يغلقون أبواب القصر مع اقترابهم، أخذوا كل الاحتياطات الممكنة بمساحة كافية، تقدم عدد من الحرس إلى الجمع حتى وصلوا إلى يحيى بعد أمواج من البشر، بادرهم التحية ثم أبلغهم أنه قد دعا العوام للاشتراك بالحفل، لم يعلم الحراس ما يجب فعله فقد اعتادوا من قبل على الاعتداء على أي من العوام إذا تصادف مرور أحدهم من أمام القصر، أما الآن فقد تصعب الأمر عليهم، فبينهم عريس القصر الذي سيكون أحد سادته، والاشتباك معهم قد تثير غضبه، أيضا فإن العدد يفوق ما تخيلوه أن يحدث في منطقة الأزبكية المحصنة.

أبلغ الحرس صاحب القصر الذي قبل على مضض إدخال العوام إلى إحدى أركان الحديقة، وذلك بعد تقليص عددهم

إلى بضع عشرات بعدما كانوا بالمئات، وبذلك تروي السير أنه كان أول احتفال يحضره العوام لقصر السلحدار وآخره.

بدأت الوفود الأخرى تتوافد على الاحتفال من علية القوم، وبمجرد دخولهم ينقسموا إلى قسمين، قسم الرجال ببهو القصر وحديقته بعدما فصلوا العوام في آخرها، وخصص لهم حراسة مشددة كسور أمني تمنعهم من الخروج عن هذه الحواجز، أما الجزء العلوي للقصر قد خصص للحريم بمن فيهن الخوند خديجة زوجة السلطان، والتي تسمى العروس على اسمها، فكان ذلك وحده كفيلًا بأن تهدى صندوقًا من المجوهرات إن لم يستأثر به فرد لكفى طعاما لحي بأكمله شهرا» من الزمان، أما السلطان قد بارك ليحيي واجتمع معه في حديث جانبي أحس من خلاله اضطراب يحيى وعدم قدرته على البوح بما بداخله، فنصحه أن يحضر بين يديه إن أراد شيئًا، ثم أنعم عليه وعلي زوجته بعدد من الهدايا قبل أن ينصرف.

بقي الحفل على هيئته المضيئة، الكل يتظاهر بالسعادة، سواء المماليك الذين تعجب أغلبهم من تلك الزيجة، بينما أنكرها البعض، وأولهم صالح أبن أغا السلحدار، والشيخ زكريا الذي اختفى من كل تلك الاحتفالات متحججًا بعلة أصابته، والعامة الذين كرهوا السلحدار وأهله ولكن لم

يجدوا مانعًا في أن يستغلوه في عشاء لم يروا مثله منذ أعوام.

ارتفعت أصوات المغنيين والعازفين تملا الأزبكية بأكملها، كانت ليلة من الليالي التي ستذكرها الأزبكية، فلو مر عابر سبيل أو غريب لاعتقد أنه حفل السلطان نفسه أو أحد أتباعه الكبار، ولم يحس لوهلة أن بجانب هذا الفرح هناك مأتم تقام سرادقه داخل ضلوع يحيى وزينب.

مع اقتراب الحفل على الانتهاء، بدأت أصوات ضجيج وصياح صادرة من الحديقة، وعلامات عن اقتراب صوت عركة بين جمهور العوام بحديقة القصر، باتت أصوات السباب واللعن تمتد لتعلو على صوت الغناء، ذلك بعد انصراف السلطان مباشرة، والسلحدار ينظر إلى ابنه، والآخر ينظر إليه ثم يهما لتدارك الأمر، فقد ذهب السلحدار إلى يحيى ليستعلم منه عن هذا الضجيج، بينما ذهب الأخير مصطحبًا رجاله وهو يبيت الشر، كما لو أنه واتته الفرصة المنتظرة منذ حين، علامات وجه لا تشير إلى خير، ما أن اقترب صالح ورجاله حتى وجد قذائف من الطعام تنهال عليهم يقذف بها من جانب العامة الذين أخذوا يشحنون أنفسهم ويزاحمون الحرس إلى أن تفرقوا لينهار السياج البشري حول العامة، تبدأ الحديقة في استقبال أمواج من الجياع واتتهم الفرصة لإحداث أكبر ضرر ممكن بالقصر ومالكيه، أما الضيوف من مماليك

وجلبان لم يستطيعوا أن يواجهوا تلك الموجات البشرية بل ركضوا بأسلحتهم المطعمة بالمجوهرات، جرى الفرسان، بل البعض ترك نساءه بالحرملك غير عابئ بما ستواجهن، المهم أن يهربوا من هذا البؤس الذي قد يسلبهم حياتهم.

بقي السلحدار يصرخ بعدما تحول العرس إلى سوق كبير يتقاذف فيه المارة الطعام، والأواني الفارغة، التي أصابت بعض الحرس الذي فقد السيطرة عل الموقف بما فيهم صالح الذي كان أشبه بالطفل التائه في زحام أحد الموالد بعدما تركه حرسه، لم يجد السلحدار غير يحيى ليحثه على النزول إلى العامة للحديث معهم والسيطرة عليهم، فلاقاه يحيى وهو يهم بالصعود إلى جناحه الخاص بالقصر، سأله العون، لكنه بمكر من ذاق كل ما ذاق، ابتسم له ابتسامة لاهية ثم ربط على كتفيه بهدوء.

– هل تريدني حقًا أن أنزل إليهم أم أصعد لأنعم بليلة زفافي يا حماي العزيز، قالها ولم ينظر إليه بل توجه إلى السلم المخصص للجناح العلوي، تاركًا السلحدار وراءه.

***

مرت أيام وليالي على زفاف يحيي، حاول خلالها قدر جهده أن يتظاهر بفرحه العريس، اختلى بخديجة زوجته وابنة

عـدوه، نعومـه تـدل عـلي جمـال طاغـي وعيشـه رغـده لبـشرة لم تمسسـها أي صعوبـة مـن صعوبـات الحيـاة، جسـد ممشـوق غنـي في كل جـزء فيـه، جمـال يسـلب العقـل ويغـوي الجسـد، ولكـن لا تؤثـر في روح مثقلـه بـما فيهـا، رغـم غضبـه ممـا هـو فيـه، إلا أن حنانهـا أعطـاه بعـض المسـاعدة للتمثيـل وإظهـار دور الـزوج السـعيد، كـما أنـه لم يـر لهـا أي ذنـب في كل ذلـك، بينـما هـي أعلنـت بـكل مـا تمتلـك مـن عاطفـة وجسـد أنهـا مفتونـة بـه، لحظـات يقضيهـا معهـا تمـر عليـه كالدهـر، وسـاعات تقضيهـا هـي تمـر عليهـا كلحظـات، يسـتيقظ ليـلًا في بعـض الأحيـان ليجدهـا جالسـه بجـواره تنظـره دون حديـث، يصطنـع الغفـوة ويتقلـب ليعطهـا ظهـره، قلبـه يئـن مـن ظلمـه لهـا، ويئـن مـن حبـه لزينـب، طـوال تلـك الأيـام لم يلتـق بزينـب ولا لمحـة مـن خيالهـا، حتـى ظـن أنهـا قتلـت نفسـها بيديهـا، فـلا مفـر للعبوديـة سـوى المـوت، كان يعلـم أنهـا الخاصـة لزوجتـه ولكـن الآن يـرى جاريـات القـصر بأكملهـن إلا هـي، ود لـو تسـاءل عنهـا، حـاول أكثـر مـن مـره وفي كل مـره يتلعثـم، إن كان لا يخشـى عـلى نفسـه فهـو لا يريـد أن يسـبب لهـا أكثـر ممـا أصابهـا.

مـن الناحيـة الأخـرى مـن القـصر وقـف السـلحدار متطلعًـا لأمـوال الوقـف الخـاص بالشـيخ زكريـا، وقـد اسـتطاع ابنـه صالـح أن يتخـذ مـن صـلاح ابـن الشـيخ زكريـا الأصغـر،

صديقًا حميمًا خاصة بعد أن صارا في حكم الأهل، أيضا بدا السلحدار أكثر إصرارًا من أن يجعل يحيى في محيط الأمراء ومقامهم، فكان يكثر من دعوته إلى جلساتهم للحديث والاستماع، أيضا بدأ في أن يقنعه ويميل للحديث معه لأن يكون وسيلة اتصال بينه وبين العامة، ينقل لهم أخبارهم أول بأول، حاول يحيى أن يوحي للسلحدار بأنه يرضى له كتابع أو ساعد أيمن يمكن أن يعتمد عليه، لكن حرص السلحدار لم يكن بالبسيط ليحرز تقدمًا ملحوظًا، لكن ظل يحيى يبحث عن وجه زينب بين الوجوه، وهو يطبع على وجهه علامات الرضاء والحب لاهل البيت.

بقي صالح يتلون مع يحيى تلون الحرباء، فإذا نظرت إلى ما بين العيون لقرأت بغيض وكره يحرق كالنار التي تلتهم العشب، ولكن لا سبيل أمامه إلا الضحك في وجه كلما رآه، فقد استطاع أن يخضع أخته التي باتت مفتونة، تطوق للحمل منه منذ لقائهما الأول، كما استطاع أن يكسب ود أبيه يومًا بعد يوم، ولكن ظل يرقبه، ظل عينًا عليه داخل البيت، يتابع تحركاته بداخل القصر ويحيى يلاحظه.

ظلت عينا يحيى تبحث، وظل عقله يفكر ويعي ما يشاهده، فقد رأى بذخًا وفسادًا لم يظن أن هناك مثيله في حياته، رأى الشهوة في كل شيء من مأكل وملبس وشراب،

رأى أناس لا يجدوا هدفًا للحياة دون إشباع رغباتهم غير عابئين بكم البؤساء كما لو لم يكونوا السبب الأول في بؤسهم وشقائهم، أيام داخل سجن السلحدار يقضيها يحيى، فترة حبس وهو بها سجين يترتب دائمًا للهرب، كما يؤدي مهامه داخل محبسه بمنتهى الصبر الذي يلزم لمثل أوجاعه، كلما أتاه الأنين وضمن غفلة خديجة، أحن إلى اللقاء لينزل إلى الحديقة عسى أن تكون هي الأخرى تتضرع بها.

يعود في الظلام إلى غرفته بعدما قضى ما قضى وسط الحدائق التي شهدت لقاءهما من قبل، يصعد إلى جناحه ويسير بائسًا للنوم بجانب زوجته، ليمر طيف أمامه من آخر الرواق بالطابق العلوي للقصر، يخرج من إحدى حجرات الحرملك متجهًا إلى السلم، لحظات تسمرت فيها قدماه بالأرض، كاد أن يخطو فلم تساعده قدماه، أنها هي، لكنها اختفت من أمامه، قفز من مكانه، كاد أن يسقط، تعثرت قدماه فتحامل حتى اتزن ثم أسرع بكل ما أوتي من قوة، رمي بنفسه ناحية الدرجات ليلحق بها، ليصطدم جسده بجسم غريب كادا أن يسقطا معًا، أمسك به وتشبث وسط الظلام ثم نظر إلى وجه، كان صالح بضحكته السمجة مثقل الرأس من فعل الخمر، وكان في حالة من التخبط والترنح، وقف له يبتسم بعدما اصطدما الاثنين.

- أهلا بالحبيب يحيى، ثم سكت قليلًا ينظر إليه، أخبرني، هل حقًا تصدق أني أحبك؟

- تفاجأ بالسؤال، وقف ينظر إلى حاله ثم أجابه، أعتقد أنك تصطنع ذلك، كما أصطنع أنا أيضا.

- وقف يضحك قائلا»، جميل، جميل أن كلانا يعلم ذلك.

***

لم تكن الجارية حسناء، صديقة العياء وعينهم على المكان، ساهية عما يحدث حولها داخل القصر، فقد تأكد يحيى في أكثر من لحظة أنها داهية وأنها أيضا تراقبه، وإن كانت لا تراقبه وحده، فقد رآها تسترق السمع من سيدها وهو يتحدث مع رجاله خلال تسامرهم، لكن لم يهتم يحيى بكل ذلك، لكن رأى أنها الشخص الوحيد في هذا القصر التي يمكن سؤالها والوثوق بها بعد المساعدة التي أقدمت عليها يوم الحفل، هذا ما جعله يعد العدة لمفاتحتها، حقًا كم ود أن تنقل أخباره إليها؟ كم ود لو علم إن كانت ما زالت تحبه كما يحبها، لكن ما الجدوى وهو السجين معها في نفس السجن، يتضرع من كاس الأسر مثلها تمامًا.

تشجع يحيى للحديث معها، ولكن قبل كل شيء، كان عليه أن يضمن أن لا يراه أحد، خصوصا صالح أو السلحدار، بات يتصيد الفرصة تلو الأخرى حتى صادفها في أحد أروقة القصر، ما أن نظرت إليه حتى وضعت عيناها في الأرض وانحنت محيية إياه فناداها..

- يا حسناء.

- أمر مولاي.

- أريد الحديث معك، قالها وهو يتلفت في كل اتجاه.

- تحت أمر مولاي.

ففاجئها دون أي مقدمات قائلًا:

- أريد أن أرى زينب وأريد مساعدتك.

- مولاي أسمى من أن يرى جارية، إن شاء سيدي لأمر تأتيه في مخدعه طائعة.

توقف يحيى للحظات لا يدري بم يرد، فقد قدرته على التحليل أو الرد، لا يعلم ما ينبغي أن يقول فأردف...

- يا حسناء أريد أن أرها على انفراد، وأريد أن أعتمد عليك، ثم سكت قليلًا ثم قال، قد تعتبريه رجاء.

تماديت الجارية في المماطلة فقالت ...

- سيدي، الأمراء لا يترجون بل يأخذون ما تطوله أيديهم، ولا حاجة لك لجارية وأنت تعاشر الأميرات.

انتفض من حلمه، وبانت أمارات الغضب على وجهه، فأمسك بذراعها بعنف.

- اسمعي يا حسناء، لا أود مطلقًا أن أعنفك وقد فقتِ كل الحدود، اسمعي جيدًا، أنا أعلم ما تنقليه من أخبار إلى جبل زينهم كل حين، وإن كنت تمتلكين بعض الفراسة لسألتِ عني وعن حالي هناك، سأمهلك حتى تعلمين، وأنا على يقين أنك حينها ستفهمين كل شيء.

تسمرت الجارية مكانها، لا تعلم بما تجيب، لا تعلم إن كان يحيى صديق أو عدو، فكل ما تعلمه أنه ذات الشخص الذي أحب صديقتها وتزوج من سيدتها بعد ذلك، تركها يحيى لحيرتها وكلماته تدوي في أذانها، انطلق غاضبًا قبل أن يلاحظه أحد.

***

لم يتمالك يحيى مشاعره وهو يقف ليلًا بعد أن غفل الجميع، في نفس المكان الذي جمعه بحبيبته، ها هي نفس الأغصان تحنو عليهما من جديد، أمل جديد ينتظر وعد حسناء له، لم يسألها ماذا قال لها أصدقاؤه من العياء، لم يهتم بما قالت هي

لزينب، فشوق لقائها أرفع من كل تلك النواغص.

كان عليه أولًا أن يضمن أن لقاءهما سيتم في سرية مضمونة، فقد ضمن أن السلحدار وابنه قد ذهبا إلى الصيد بالمطرية مع السلطان، بينما زوجته تركها ناعسة في سكون وثبات بعدما استحضر لها خلطة مخصصه تجعلها تنعس طوال الليل، فلم يبق إلا الخدم وهذا ستتولاه حسناء لضمان عدم تواجد أيا منهم في محيط لقائهم.

أخذ صوت قلبه يعلو، وهو يرى شبحان لسيدتان يقتربا منه، حاول جاهدًا أن يرتب كلمات اللقاء، أن يضع كل الحقيقة تحت قدميها سائلًا إياها الغفران، سيتركها تفعل فيه ما تفعل، سيتركها إن صفعته ألف صفعة على وجه دون أن تسال أو يجيبها، ولكن ماذا يقول أو بماذا يجيبها وقد أصبح سيدًا لسيدتها.

بدأت تظهر الملامح أمامه، إنها هي بكل جمال عيناها رغم علامات الحزن، رغم علامات الأرق وهي تنظر تحت قدميها، توقف أمامها كما فعل عندما رآها أول مره بنفس المكان لا يدري ماذا يقول، أما هي فقد أخذت تنظر إلى الأرض دون أن ترفع عينها نحوه، دون أن تنظر إلى عينه كما اعتاد ليرى الوهج الذي يضيء له الحياة كما كانت دائمًا، قطعت حسناء الصمت بينهما..

- ليس لدينا الكثير من الوقت، فسأذهب إلى آخر الرواق أستطلع القادمين.

تحركت حسناء قاصدة أول الممر الزهري، وبدأت تبتعد رويدا، وبات يحيى وزينب بما أشبه الانفراد، نادا يحيى عليها هامسًا...

- زينب، ما أتعسني دونك.

ظلت ناظرة على الأرض دون رد، عينين مقتضبة لا مظهر لها من مظاهر الحياة، ناداها ثانيا قائلاً...

- زينب، قالها بما يشبه الرجاء، يجب أن تعلمي الحقيقة، أنا بريء مما أنا فيه، الله يعلم مدى شقائي.

لم ترد، فقط أزاحت الخمار، لينزل معه دمعها بشكل يوحي مدي جهدها على حبسه، أمسك بيديها ثم بات يحكي لها كل ما حدث له منذ آخر لقاء جمعهما، لم يتوقف عن الحكي والحديث، أخبرها بكل شيء عن علاقته بالجني والعوام وأيضا عن مطاردات السلحدار له إلى أن أوقعه، أخذ يحكي لها تفاصيل اللقاء بينه وبين السلحادار وصوته مبحوح من كثرة التأثر والغضب، لم يجد هو الأخر خيرا من الدمع لكي يفجر أنهاره ليزيح الضيق والغضب الممتلئ بهم صدره.

استسلمت زينب أخيرًا أمام أحزانه، بكت هي الأخرى ووضعت يديها على وجهه تحاول أن تزيح هموم الشوق عن كاهله، احتضنها بقوة وهي احتضنته، كان اللقاء بمثابة عودة الروح إلى الجسد من جديد، عودة الحياة إلى جسد وقلب يحيى وزينب.

***

بدأت الحياة تدب في وجهه من جديد، بل بات أكثر صبرًا وروية لما يحدث حوله، فقد جمعهم اللقاء من جديد، عاد الأمل مجددًا وأصبح الصبر هو ملاذهم الأخير، بل أصبح أكثر ثقة من أن يتقرب إلى السلحدار، وكان أيضا يتودد لابنته التي أكتشف مع الوقت أنها تبلغ أبيها بكل شيء عنه، فبات يحرص في التعامل أمامها والإكثار من إظهار مدى أشواقه الوهمية لها.

أما السلحدار فقد رأى في يحيى رجل يحاول أن يسعد ابنته، ولكن ظل ينظر له بنظره الحذر، يبقي صالح الذي بدأ في التواجد بوقف الشيخ زكريا يتشارك مع صلاح السيطرة على الوقف، ويتشاركان الصداقة والأحلام بثمار الغد.

بات يخرج يحيى إلى الأسواق من جديد كعادته القديمة قبل الزواج، وإن فقد بعض بريقه أثناء سيره بالأسواق وإن تجنب البعض تحيته كالسابق متقيًا أي شيء يأتي من رائحة

السلحدار، وكان هذا يزيد من حنقه على السلحدار، أما الجني وعليّا فكانا على عهدهما له وبه، وإن كان يرى عليّا بين حين وآخر، إلا أنه لم يقابل حسن الجني إلا أن أتته الدعوة من حسناء التي باتت مكانتها تعلو شيئًا فشيئًا في نفس يحيى.

كانت الاستعدادات بالجبل في غاية الروعة في تلك الزيارة، فهذه المرة الأولى يصعد يحيى فيها الجبل في وضوح النهار لملاقاة كبير الشطار، هذا بات غريبًا على يحيى لاختياره موعدا تكشفه العيون، ولكن ما أن صعد حتى رأى ما هو أشبه بالثكنة العسكرية متمركزة خارج المغارة، أهي القلعة أم جبل الشطار، أهنا يقطن مجرد قطاع طرق يحاربون المماليك أم قائد يعد جنوده لغزو قادم؟ قالها وهو العليم فنون القتال وما يحدث أمامه؟ انتابه شعور توجس وخوف لم يشعر به من قبل ،ولكن أيضا لم يفهم معناه حتى اللحظة، ما أن دخل عليهما وهما جالسين حتى قابلهما محييًا...

- أتغروني بقوتكم، أم تكشفون أمامي رجالكم لكي أبلغ عنهم حماي.

ضحك الاثنان ثم سارا معا حتى بلغا مجلس الجني ببطن الجبل، وجلسوا الثلاثة وسط الخان بباطن الجبل...

- لعل اليوم نتدرب، قد نكون آخر حائط صد لهذا الوطن.

- أنت تعلم يا ريس حسن إعجابي بك، لكني أري نكبة تلك البلد في الفرقة والأحزاب المسلحة وأخشى أن تكون أنت حزبًا من تلك الأحزاب.

- كلهم يبغون الحكم أما أنا فلا. قالها بهدوء لا يتناسب مع جسده الضخم أو سمعته.

- لكن جميعهم يرددون هذا للسلطان، قالها مبتسمًا مقدرًا لسعة صدره.

- صدقني يا يحيي، أنا ورجالي في خدمة تلك الأرض، فعندما سيحول الحول على هذا الوطن لن يبقى غيرنا، فأمراءها وأثرياءها سيجدون أوطانا» جديدة لهم.

- وماذا عن المصريين؟

- صدقني إن دارت الدائرة، فلن تجد مصر غيرنا لنزود عنها فليس لنا أرض أخرى سواها، ثم سكت لحظات ثم أكمل، لعل دعوتي لك اليوم غير كل دعوة، فلدي معلومات مؤكدة في غاية الخطورة.

- ما الأمر يا ريس حسن؟ هل الأمر بشأن السلحدار؟

- نعم ولكنه يتعداه وصار خطرًا قادمًا لا محالة.

- ما هو هذا الخطر؟

- السلحدار ومعه عدد من الأمراء يتلاعبون، يدبرون أحداث فوضي منظمة، أخشى أن هناك تواطؤا مع ملك الروم لإسقاط البلاد في أيديهم.

- انتفض يحيى من مجلسه، من أين جئت بذلك؟

- تم اعتراض رسالة من رسائله للقسطنطينية، فنحن لنا عيون في كل مكان.

- هذا الأمر يجب أن يصل إلى السلطان.

- إذن يجب أن تعلم أن المخطط هو عمل انفلات بالأسواق، والأمراء مسئولي الجيش سيتقاتلون، كل هذا لا يعلمه السلطان، ولكن المخطط هو أن يتم الضغط على قايتباي لدخول الحرب مع الروم وصفوفه في حالة انقسام.

سكت يحيى يتأمل الكلمات، السلحدار بصاص للروم، هل يعقل هذا؟ يتساءل، ما حاجته إلى ذلك؟ وهو أقرب المماليك للحكم بعد قايتباي؟

- هو يعلم أن المماليك وصراعاتهم لن يضمنوا له التمكين المطلق، إنما لو ضمن دخول الروم فقد يكون هو أداة بطشهم أو حاكمًا باسمهم.

سكت يستوعب ما يدور حوله، فها هو ينقذ نفسه واسم عائلته ومصير العياء بزيجة، فما يلزم لإنقاذ وطن؟ قالها يحيى يحدث نفسه، فأجابه الجني بصوت مهموم.

- هذا الوطن بحاجة إلى وحدة الصف ووحدة الهدف.

ثم قام من مجلسه وصار قليلًا حتى وصل إلى أحد المنافذ الصخرية التي تكشف التدريبات في الخارج، فانعكست أشعة الشمس على وجهه فلمعت بشرته السمراء.

- إن هذا الغزو لهو أشبه بالطوفان، نحن العامة لا نملك سوى الجهل والفقر، نعالج أمراضنا بالسخافات، أما الأمراء فأنت أعلم بهم مني، سيتكالبون على البلد في آخر نفس، وبعد ذلك سيغدون إلى أي وطن آخر ينعموا فيه بما سرقوه من تلك الأرض، ألف أرض تستقبلهم كملوك، أما أنا فعساي أفعل ما أفعله الآن، قد نكون نحن آخر بشر يظلون بتلك البلاد، فلا مكان ولا مهرب لنا دون تلك الأرض.

- وما دوري في ذلك. قالها وقام إلى أن وقف بجانبه يتطلع التحضيرات.

- دورك ليس بالقليل، الآن جاء دورك لتثبت إلى أي وطن تنتمي يا يحيى.

خرج يحيى من مغارة الجني، نزل ومعه أكبر هم اجتاحه منذ نشأته، يسترجع حفل السلطان ويتذكر، يتساءل هل كان صراعه مع صالح وتحديه له جزءًا من أقدار، لم يعلم حينها إلى أين ستسير به؟ فمنذ أعوام قريبة لم يكن يعبأ بأي شيء سوي الشعر والعياء ومتابعة زراعته وغنمه، كيف أوقعه الزمان مع السلحدار؟ بل مع ابنه وابنته وجاريته؟ كيف صادف نجمه بخصم لا يتمني عاقل أن يخاصم مثله؟ بل هو الآن بعد أن عرف حقيقته، أعتا بصاص في تاريخ السلطنة، والآن يقف يحيى أمام عتبه واحدة يخطوها ليدخل القصر بعد هذا اليوم، يدخل عالم الغموض الذي لا خبرة له فيه، القدر وحده من وضعه في مواجهة السلحدار، بصاص أمام بصاص، تلك قواعد اللعبة، وكل سيستعين بدهائه وما يملك من حيل والألاعيب، فلم تعد زينب فقط ما تقف بينهما بل أصبح وطن بأكمله.

دخل القصر وقد علم بالخطة كاملة، أيضا علم بما عليه أن يفعله فى الأيام القادمة بمعاونة حسناء التي باتت أكثر قربًا وأكثر ظهورًا ليحيى بين جنبات القصر، وسط الأحداث والأحاديث، يتذكر الشيخ زكريا، يستفيق قلبه ويحدثه، يا ليت الشيخ زكريا على علم بما يحدث ليزيده من حكمته؟

يعود عقله إليه ليجاوب، بلا داعي لإدخال والده المسن فيما هو قادم إليه، فكما تعلم منه أن كل رجل مسئول عن

قدره، فتعود إليه فكرة القدر ما يخبئ له، منذ فتره، كان والده يمنعه والآن هو من يمنع والده، كان لوقت طويل بمثابة المتفرج لعرض الحياة، يشاهده دون أن يتدخل، ولكن مع توالي الأيام أخذت المسافة تضيق به ليجد نفسه في وسط الأحداث تدفعه إلى المجهول، أمواج تتهاوى على المركب التائه بعرض البحر، تدفعه يمينًا ويسارًا، تقلب كل أركانه، يأتيه شيطانه بسؤال خبيث، ماذا لو ترك كل شيء، ترك زوجته المدللة ووالدها أخطر من بالبلاد، يترك زينب وبؤسها، حتى الوقف فلم يعد شيئًا مضمونًا مع دخول الترك، قد يعود إلى مدرسة والده يعمل هناك مثله كعبد السلام، خادم لكنه أسعد منه حظًا، ولكن ماذا لو اجتاح الروم البلاد، كيف سيحمي نفسه منهم وما ستؤول إليه الأمور؟ يستعين بالله لإنقاذ روحه ولرفض كل الأفكار الخبيثة التي تجتاحه، إنه القدر بعينه يعيد نفس الإجابة على نفسه في كل مره، هو القدر بعينه الذي يأتي ليقبض الأرواح، فلا كنف والد، ولا مال أو سور يمنعه، كما ألقيت زينب في طريقه فهوى، ألقي هو الآخر في طريقها، بل في طريق السلحدار ذاته، يعيد نفس الإجابة في كل مرة، لم يعد ما بيني وبينك مجرد زينب، بل أصبح يتعدى ذلك كثيرًا وكثيرًا.

***

إنها مباراة العمر وسأكسبها، مهما طال الوقت، لو انقضى الليل بأكمله لن أفرغ حتى أهزمك، قالها يحيى بداخله وهو ينظر إلى السلحدار ثم يوجه بصره إلى ساحة رقعة الشطرنج التي تقف بينهما.

- أين أنت من زمن؟ لم أستمتع باللعبة كاليوم.

- لعل ذكاء مولاي هو ما رفع من ذكائي لمنافسته.

ضحك السلحدار مفتونًا بثنائه، أخذ في تحريك إحدى القطع محاولًا فرض سيطرته على منتصف ساحة المعركة، بهدوء شديد حرك يحيى حصان جيشه الأيمن، خطوتان للأمام ثم خطوة إلى اليسار، ليؤكد سيطرته على الوضع، بنفس الهدوء يحاوره كما يلاعبه.

- هل من أخبار بعد اجتماعك مع التجار؟

لم يرفع السلحدار نظره إلى يحيي، بقي يبحث داخل الرقعة عن حلول هجومية ثم نظر إليه متسائلًا.

- أهو سؤالك أم سؤال الجني؟

مبتسمًا بنفس الهدوء..

- مولاي، لعل علاقتي بالجني قد تفيد مولاي.

قالها وهو يحرك، الفيل الأيسر لجيشه، يضعه بمحاذاة الحصان، فباتا أشبه بالتشكيل المحكم، فبادره السلحدار.

- لقد تقدمت كثيرًا، شهور وأنت تثبت صحة رأيي فيك من البداية، أخرج وزيره من مخبئه فيضعه في مقدمه جنوده الذي انكسر صفهم وبانت فراغات دفاعية تتوسط الصف.

- هل هناك ما يجب أن تخبرني به بعد لقائك معه؟

- لا تقلق من الجني، فهو خائف الآن من بطش السلطان، يريد الحماية فقط، أكثر من أي وقت مضى.

- ترى لمن سيكون ولاؤه؟

- لا تقلق يا سيدي، الجني ولاؤه لمن يخدمه، أرى أنه لا يريد أكثر من أن يتولى أيًا من الأقطار بالصعيد، أو قد يمسك أحد الطرق ليحفظ التجارة، في النهاية سيعمل معنا لا علينا.

- كلامك حلو! لماذا تثق فيه إلى هذا الحد؟

- أنا لا أثق في أحد، الجني يريد أن يضمن حياته باتصاله بي، وأنا أتطلع لأسر قلوب العوام، ولما لا، فنحن بلا أهل أو عائلة بتلك البلد.

مضغ السلحدار الطعم، كانت كلمات يحيى هي ذاتها ما أراد أن يسمعها منذ زمن طويل، صيد ثمين جاءه بعد جوع

طويل، ويحيي ينظر إليه ويحدثه دون أن يسمع، ترى من الصيد ومن الطعم يا سلحدار، حرك السلحدار إحدى قطع جيوشه وهو يتذوق حلاوة الطعم الذي رمي له، فبادره بحركة من وزيره للجبهة اليسرى شتت تفكير السلحدار وأعاده إلى معركته.

حرك السلحدار أحد جنوده بشيء من الاستهتار وهو يكمل حديثه، يجني ثمار تخطيطه.

- أفهم من ذلك أن الجني على استعداد للتعاون.

- هذا ما ألمح إليه في لقائنا.

- هناك خدمه أريدها منك، لكن سأبلغك عنها في حينها.

- أنا ابن لك يا سيدي، والمصلحة واحدة. محاولًا أن يتحاشى ابتسامة الظفر.

- غدًا ستنعم أنت وأبناؤك بمجد لا يضاهيه مجد، أريد أن أرى أحفادي بأسرع وقت ممكن.

- قريبًا يا مولاي سيكونون حولك.

قالها وهو يحرك الحصان ليأكل به أحد الجنود، محاولًا مجددًا أن يواري ابتسامة النصر.

- مات الملك يا مولاي.

***

11

العرس

لم يتـوان يحيـى يومًـا فيـما وكل إليـه مـن الجنـي، بـات أذنـه وعينيـه داخـل القـصر، بـل أصبـح هـو مـن يراقـب صالـح وأصبـح عـلى علـم بـكل أنـواع الحـمام الزاجـل المسـتخدم داخـل القـصر، كان الوقـت يمـر وهـو ينتظـر لحظـة معرفـة الحقيقـة، وكانـت لقاءاتـه بزينـب أكثـر حميميـة، وأصبـح الصـبر عـلى الشـوق هـو كالجثـوم عـلى الأشـواك لكليهـما، في إحـدى ليـالي الشـتاء وكانـا قـد تعـودا في ذلـك الفصـل القـارص أن يجتنبـا الحديقـة وينعـما بـدفء إسـطبل الخيـل، ليلـة جديـدة يحلمـون فيهـا بالخـلاص، لحظـات مـن الـود يشـوبها كثـير مـن القلـق يسرقهـا الحبيبـين بـين الشـقاء...

- كلـما زادت الأمـور تعقيـدا، كلـما زاد إحساسـنا بالهـوى ولوعتـه.

هكـذا قالـت زينـب وهـي تتأمـل وجـه حبيبهـا في الليـل المضـاء ببـدره.

– لم أعد أحتمل بعادك أكثر من ذلك.

– كيف هذا وأنت تنعم بجميلة حسناء؟

قالتها والغيرة تنطح من قسمات وجهها، فزاده دلالًا

– ألم تـري إني أتـرك كل هـذا مـن أجلـك، بـل أسـالك أن تختـبري حبـي إن شـئت؟

– هل حقًا لم تؤثر عشرتها لك في قلبك؟

– بـل زادني الحنـين، قالهـا ثـم سـكت قليـلًا كـما لـو كان يستجمع كلماتـه، ثـم أمسـك يديهـا بشيء مـن التحـدي والتأكيـد، تتزوجينـي غـدًا؟

– أنت تحلم الآن.

– لا أحلـم، قالهـا ثـم وقـف يسير داخل الإسطبل، بـل أتحدث عـن مـا يجـب أن يحـدث، فغـدًا مخيـف وإن كان فـلا أرى أن الأمـور ستتعقد أكثـر مـن ذلك.

– كـم أتمنـي ولكـن تعلـم إني جاريـة، لا جـواز لي يـا يحيـى إلا بأمـر سـيدي.

- هذا قانون البشر وليس قانون الله، سكت قليلًا كما لو أنه يدبر لشيء ثم بعزم، غدًا يجب أن تخرجي من القصر بأي حجة كما كنت تفعلين سابقًا.

- ولكن كيف سنفعل ذلك والمحروسة محاطة بعيون السلحدار.

- غدًا سنتقابل عند مجري العيون ثم نصعد إلى جبل زينهم، سنتزوج غدًا فلا وقت نضيعه أكثر من ذلك،

- أنت تتحدث بجنون.

- سنتزوج غدًا وليكن ما يكون.

***

لم تقف زينب وحسناء كثيرًا في انتظار يحيى، بل بمجرد وصولها إلى مجرى العيون حتى رأيا عن بعد عربة خشبية يتقدمها مهر جامح يعدو للأمام ليترك خلفه غباره، يعدو في الصحراء الخالية والزهور يزين رقبته، كانت حسناء في غاية سعادتها وهي ترافق صديقتها زينب، فما أن ظهر الركب وبانت ملامحه إذ تبين بجوار يحيى يجلس شيخ وقور يرتدي جلبابًا أبيض وعباءة بيضاء وعمة من الحرير، كانت أول مره ترى فيها الشيخ زكريا، وبجوار يحيى يجلس عبد السلام وعليا، أما يحيى فكان في كامل حلته، طارت العربة

بالعروسين حتى وصلت إلى الجبل ليجدوا مشهدًا خلابًا من الاحتفال، فقد تحول الجبل الموحش إلى مكان ملئ بالفرحة والزينة والاحتفال، تحولت الساحة المقابلة للمغارة إلى مكان للاحتفال بالعروسين، تزين الأطفال والنساء، جاء البعض منهم من حدرة الكبش للمشاركة، وزادهم بهجة وابتهاجًا وجود الشيخ زكريا بجوارهم، فقد حلت البركة على المكان، وزادهم ثقة بأنهم الأخيار، كان يرسم الابتسامة على وجهه، إلا أنه يعلم أنها آخر الأفراح، اشتعل العرس بالعاب الدبابيس المشهور بها العياء والقفزات البهلوانية التي يمتازون بها، وكان أكثر من عشرين لاعبا بالساحة، ليكون العرس من أغلى الأفراح سعادة وبهجة.

عادت زينب إلى القصر ومعها حسناء بينما أظهر يحيى نفسه بمنطقة بركة الفيل وبصحبته عبد السلام حتى لا يثير تغيبه طوال النهار الريبة، خصوصا لكي يراه صالح الذي يلازم السهر هناك بين بساتينها، يجب أن يراه صالح وهو ذاهب أو عائد من حدرة الكبش لينقل الأخبار، ويجب أن يظهر يحيى دون أي مواراة حتى يؤكد أنه يعمل لصالحهم، عاد إلى القصر وظل يرقب الوقت حتى نعس سكان القصر ليتلقى بحبيبته كما خططا لذلك.

نـام الجميـع وتأكـد مـن خلـو القـصر مـن النابهـين، فتسـلل إلى الإسـطبل الـذي اعتـاد زيارتـه في الآونـة الأخـيرة، كانـت حسـناء قـد أعـدت عشـاء للعروسـين في إحـدى جوانـب الإسـطبل، فرشـت مـا يسـاعدهما عـلى الاسـتلقاء، جاءتـه زينـب بردائهـا الأسـود، وقفـت تنظـر إلى زوجهـا وهـو ينظـر إليهـا، تناسـيا كل شيء، وهـو يضمهـا إلى صـدره، يشـم عبـير شـعرها، إنـه نفـس العبـير الـذي سـلبه عقلـه مـن قبـل، هـا الآن يغـرس أنفـه، يستنشـقه فينتـشي، ترتعـش يديـه وهـو يمسـك بردائهـا، تحلـه ليسـقط ويحـل محلـه ثـوب أبيـض مـن الحريـر يكشـف نهداهـا ورقبتهـا، ترتعـش يديـه وهـو يتحسـس جسـمها الناعـم الـذي كان يرتعـش هـو الآخـر مـن لمسـاته، تلاقـت شـفتاهما وقبـل ثغرهـا، سـقطا عـلى فـراش العـرس المملـوء بالتبـن، وتلاقـى الحبيبـان بعـد ظمـأ.

***

اسـتفاق يحيـى بعـد غفـوة النشـوة، سـمع أصواتًـا تنـم عـلى حركـة خـارج الإسـطبل، توقـف الـدم في عروقـه وبـات القلـق عـلى وجههـا هـى، باتـت تـصرخ مـن الخـوف لكنهـا كظمـت خوفهـا، أحسـت أن المصيبـة قـد وقعـت وانكشـفا، أمسـك بيديهـا يطمئنهـا ثـم قـام مـن جانبهـا متسـللًا بخفـه شـديدة للوصـول إلى أحـد الأركان ليسـتطلع مـا بالخـارج، وقـف يتطلـع الشـجر

الكثيف الأكثر كثافة بظلام الليل، رأى شبحان يتهامسان.

- أبلغ أباك أننا مستاءون.

- لا ذنب لنا في هذا التأخير، نحن نعمل كل ما في وسعنا.

- لا يهم أن تفعلوا ما بالوسع، أتموا مهمتكم، الوقت طال.

- قريبًا ستحدث الفوضى، لكن أولًا نورط السلطان في الدخول للحرب.

- مولاي يريد ضمان انهيار الوضع الداخلي قبل دخول البلاد.

- أعدك ستدخلون مصر كنزهة صيد.

- أعلمني بكل جديد.

- بالتأكيد.

علم يحيى يقينًا أنه وجد ضالته، ولكن من هذا الشخص؟ كيف يعيش داخل المحروسة وتحت أي ستار؟ لقد قال إن الغزو قريب، انتهت المحادثة وسلم هذا الشخص المجهول صالح رسالة مطوية، أمره أن يسلمها إلى والده ثم تركه متسللًا وسط الأشجار والظلام، أما صالح فقد رجع بأدراجه إلى القصر التي أظلمت معظم جوانبه، أخذ طريقه إلى غرفة الكتب، كان يحيى يتسلل وراءه تاركًا زينب لكي

تعود إلى فراشها وسط الحريم، كان يسير وراءه بحذر، يكاد أن يقتله الخوف من كل شيء، لم يكن يدرك قدرته على الاختباء والتتبع حتى صار على أعتاب باب الغرفة الفسيحة، استغل الظلام ليمر إلى إحدى الزوايا واختبأ، أخذ يترقب وهو يرى صالح قد وضع المخطوط داخل الصندوق الخشبي الملقى في آخر الغرفة، أحكم محاولة تخفيه وهو يلمح صالح يخرج من الغرفة، أغلق بابها الكبير ثم سار إلى جهة غرفته بالطابق العلوي، ظل يحيى كاتمًا أنفاسه حتى ضمن بُعد صالح، وتحرك مسرعًا إلى الغرفة وفتح الباب الذي أحدث صوتًا كالصفير الخفيف، فدخل وقلبه يخفق وهو مسلوب الإرادة، دخل وهو يعلم جيدًا أن المرور من هذا الباب كفيل بأن يثقل على كاهله سرًا لا يعلم إن كان قديرًا بتحمله أم لا، كان طوال الشهور الماضية وهو يغامر، ولكن الآن هو داخل الحدث، هو الآن يضع يديه على المؤامرة، يضع نفسه ومستقبله بالكامل، تقدم نحو الصندوق أمسك بمقبضه ويديه تكاد لا تقوي على حمل الغطاء، أخرج المخطوطة ثم خطا نحو إحدى النوافذ وفك رباطها علي ضوء القمر، رفعها ليعكس الضوء، كانت رسالة نصية موجه إلى السلحدار.

»أعلمكم موعد البدء بعد يومين، دولات سيدخل الأملاك المصرية في جنوب الأناضول مطلوب إحداث حالة شغب لتعطل

جمع الجيش المصري، يجب أن يضرب الهرج والمرج البلاد»".

لم يستفق يحيى مما جاء بالرسالة من مؤامرة ستقضي على كل عزيز ومقدس له، إلا وأن جاءه صوت الباب الخشبي يفتح، ليجد صالح ممسكًا بسيفه يكاد يرى وجهه المبتسم من ضوء القمر.

- أخيرًا يا يحيى.

أفاق وقد أيقن أن المصير قد يكون أبشع من أي شيء آخر، فرفع يديه اليسرى بالرسالة.

- لا أعلم من أوقع بمن، لطالما انتظرت هذا اليوم.

تقدم صالح خطوات شاهرًا سيفه محاولًا اتخاذ موقعًا جيدًا للهجوم.

- لن تعيش للغد حتى تعلن ما قرأت، النهاية واحدة سواء أعلنت أم لم تعلن.

- أوعدك النهاية لن تكون كذلك، لو تكلف الأمر حياتك.

- كم تمنيت قتلك بيدي، حتى يوم زفافك بأختي، كنت أتمنى أن أزرع هذا السيف في صدرك.

- أري أن تستدعي حرسك، فلا حمل لك على مثلي يا فتى.

- بل أنت صعلوك من صعاليك العامة، كان والدي يسعي لمستقبل لك مضمون مع أبناء عرقك، لكن حقارة الربوع والحواري التي نشأت بها جعلتك مصريًا متشردًا كالذين أدهسهم بخيلي يوميًا.

قالها ثم رفع سيفه، ويحيي أمامه يتدبر بدء الاقتتال، أقدم صالح بكل قوته ونزل بسيفه على يحيي، لم يدرك في الظلام تحركات يحيى الذي سحب قدمه اليسرى إلى الخلف ثم دار بجسده بخفه سريعة، ليسحب نفسه كليًا من أمام صالح، الذي لم يجد أمامه سوى الفراغ ليهوي بسيفه عليه، نزل يحيى بسيفه فكانت حركة واحدة كفيلة بالقضاء على صالح، فقد نزل يحيى بسيفه على رقبته ليشطرها من الخلف، خر صالح صريعًا.

***

وقف السلحدار يصرخ داخل قصره، نزلت الصاعقة على رأسه لتهدمه، وقف وقف منحنياً يحمل ثقل على ظهره، والحرس يقف وراءه منكسرًا خاشعًا، كان هذا هو المشهد صباحًا، جثة ابنه ملقاة على الأرض بدمائها، والصندوق الخشبي مفتوح أمامه، من تجرأ على هذا؟ من ذبح ابنه؟ مشهد يوحي له بألف تعليل واحتمال، ابنه الوحيد مذبوح، أيبكي على فقيده أم يبكي على ما أضاع من وثيقة تكلفه رقبته.

- من تجرأ؟ قالها صارخًا لترج جنبات القصر، يرتفع الصراخ ومعه أنينه، ينظر إلى ما حوله في ذهول، يحاول أن يتمالك قوته، فهو الأقوى دائمًا، لا يفاجأ أو يخدع أو يصدم، أهذا ما يسمي بالصدمة؟ يقولها لنفسه ثم يتساءل أنا من أكون، أهذا ولدي الذي قتل داخل قصري؟ وسط حراسي وأبراجي، أشيدت كل تلك الاستحكامات لتكون أرض الموت لولدي؟ ينظر إلى من حوله ثانيًا، والحرس ينظره، ينظر إلى الجثمان الراقد أمامه في خشوع الموت، يريد أن يبكي، لكنه لا يبكي، لا يعرف الخوف أو الضعف، يأمر الحراسة بحمل الجثمان ثم خرج من الحجرة ليجد الجواري والخدم الجميع يقف في خشوع، لا نواح أو بكاء، الثور الهائج لا يجب أن يزيدوا من غضبه قد يفعل أي عمل متهور الآن، هكذا يتهامسون بالنظرات التي يسرقونها بمنتهي الخوف، لكن قطع كل هذا أصوات النواح والعويل القادم من الدور العلوي، ليعلن عن نكبة الساعة التي تلقتها نساء البيت، والسلحدار ظل شارد ينظر كالمذهول ينظر إلى السماء بعينين مقتضبة، يدق النواح في أركان القصر، فتعود أصداؤه لتدق في رأسه وهو يمسك على قبضة سيفه متشبثًا به، تداخل يحيى وسط النساء ونواحهم، تقدم وهو يستجمع كل مهارات التحايل، عاصرًا وجهه من الآلام والذهول ماسكًا بيد السلحدار، ثم أخذ يبك، حضن السلحدار ثم التف إلى الحرس صارخًا.

- كيف جرى هذا؟ قالها وهو يتفحصهم.

- رأينا شبحًا يدخل القصر في الفجر، عندما دخلنا نتتبعه وجدنا مولانا صالح في مكانه، قالوها وهم يتمزقون.

صرخ فيهم مجددًا، أخذ يصيح فيهم كالمجنون، ثم أمرهم بأن يعيدوا تفتيش القصر، فتفرقوا كما لو أنهم كانوا ينتظروا ساعة الفرج، بينما انطلقت النساء للقاء الأخير، وبقي يحيى والسلحدار يشاهدان الدماء المتجلطة على الأرض، السلحدار ينظر إليه في لحظة حنين ويحيى ينظر إليه بخوف مما حدث أو سيحدث، أمسك بيد السلحدار في هدوء يسنده ويحثه على التماسك والجلوس، ترك السلحدار نفسه ليحيى، يدفعه، يأخذ بيده وحالة الذهول ما زالت تتملك حواسه، يحاول أن يخضعها كعادته ولكن لم يقو عليها بعد، أول مره يحس فيها يحيى بأنه أقوي من السلحدار، أول مره يراه غير قادر على التحكم في كل الأمور من حوله، لكنه يرجع يحادث نفسه بأن يخشى الأسد الجريح، فإن جرحه الغائر كفيل بأن يكون أكثر شراسة من أي وقت مضى، فيعيد السؤال على نفسه، هل هي حالة ذهول انتابته أم هي حالة تفكير عميق؟ هل كان على علم بأمر الرسالة؟ هل يشك فيه؟

لحظات طافت فيها الأسئلة على سطح رأسه لا جواب لها، فقد حالفه الحظ عندما خرج ليخبئ الرسالة التي قرر أن يحميها خارج القصر في مكان أمين، عاد متسلقًا السور، كان يظن ألا رآه أحد، انطلق وسط الظلام والأشجار حتى صعد إلى حجرته، لم يراه أحد، هكذا اجتهد، وهكذا ظن، لكن فكرة رؤية شبح أمر جيد، فهم لم يمسكوا به لأنه صعد إلى غرفته، ولكن هكذا تبتعد الشبهة قليلًا، قد توحي للسلحدار أن القاتل من خارج القصر لا بداخله، دارت كل الخواطر براسه، أراد أن يؤكد الفكرة فقال بصوت هامس للسلحدار.

- من يجرؤ على التسلل داخل القصر؟ هذا عمل خبير يا مولاي.

أرجع السلحدار ظهره إلى الوراء، يحاول أن يسترخي، يحاول أن يسترجع الحدث الذي هو فيه، ثم بصوت يحاول أن يبدوا هادئًا...

- سأعلم، لن أفارق تلك الدنيا إلا وأنا أشهد حتفه بيدي، ثم نظر إلى يحيى قائلًا، أؤكد لك أني سأعلم قريبًا.

***

رغم كل ظروف القصر، لم يكن لدي يحيى أي خيار سوى أن يغادر القصر، رغم كل حالات التشكك التي تنتاب الجميع،

حالـة الريبـة التـي تشـوب خروجـه أيضًـا، آثـر أن يخـرج ليعمـل علـى مـا امتلكـه مـن سر عظيـم، الـروم عـلى أبـواب الديـار المصرية، علي دولات أهـم رجـال ملـك الروم يسـعى للسيطرة على أراضي الدولـة المصريـة جنـوب الأناضـول، الوضـع العسـكري في غايـة الصعوبـة، والداخـل منهـار، أي فرصـة أفضـل لأي غـازي، كيـف لم يـدرك عاقـل واحـد يسير عـلى تلـك الأرض تلـك النتيجـة؟ إنها مؤامـرة كـبري لاغتصـاب وطـن بأكملـه، أخـذت التحليـلات تـأكل عقلـه المضطـرب، كـما تـأكل الشـمس جبهتـه أثنـاء طريقـه مـن الأزبكيـة إلى بركـة الرطلي، لم يـدرك كـم مشـى وبمـن التقى، لم يلتفـت لأي وجـه يعرفـه سـلم عليـه، بـين طيـات ملابسـه الحريريـة مـا يُبكـي أجيـال، أخـذ طريقـه لحـي مدرسـة والـده، ملجـأه منـذ كان صغـيرًا، دخـل وهـو لا يعلـم أحـرارة الشـمس برأسـه أم هـي حمـى تفشـت في كل أجزائـه، التقـي بوالـده وعبـد السـلام الذيـن كانـا يجلسـان في سـاحة المدرسـة، وآثـار الإرهـاق الجسـدي والنفـسي يهـوون عليـه كالمطـارق، رآه الشـيخ المسـن في حالـة إعيـاء، يـراه قادمًـا نحوهمـا وهـو يـسرع في خطواتـه رغـم ضعـف قدمـاه، فقـام عبـد السـلم من جلسـته ليسـتقبله ناظـرًا إلى شـحوبه.

- ماذا حدث؟

- أريـد أن أروي عطشي يـا عبـد السـلام، ثـم التفـت إلى والـده في جلسـته، أريـد أن أصعـد إلى الـدور العلـوي يـا والـدي.

أخـذ الوالـد وولـده طريقهـم إلى الصومعـة يتكئـان عـلى بعضهـما البعـض، تراهمـا فتحتـار مـن يتكـئ عـلى مـن، جلس يحيـى ووالـده يقـف أمامـه يتفحصـه، يعلـم أن كارثـة قـد حلـت، تـراه يصمـت حتـى يسـتريح ولـده، لا يطيـق الصـبر، ولكنـه مرغـم عليـه، يشـفق عـلى ولـده أن يجهـده بسـؤاله فيزيـد بـما فيـه، لحظـات الصمـت تتتابعـما، تـدور فيهـا الظنـون وتتطايـر بـرأس الشـيخ الكبـير فتزيـد مـن شـيخوخته، تعتـصر أمعائـه المتهالكـة إلى أن نطـق يحيـى بعـد صمـت قائـلًا..

- لقد قتلت ابن السلحدار.

هـوى الشـيخ عـلى كرسـيه كالجبـل عندمـا ينهـار، ينظـر إلى ولـده ولا يـدري مـا يقـول، سـكت يحيـى قليـلًا ثـم أكمـل...

- كنـت أدافـع عـن نفسـي، لكـن النكبـة أكـبر، أخـرج يحيـى المخطوطـة، مدهـا إلى والـده الـذي يجلـس أمامـه ينظـر إليـه محـاولا قـراءة مـا بداخلهـا مـن الوجـه المذعـور أمامـه، مـد يديـه آخـذًا القـدر ومـا فيـه، يحـدث الله في سره مناجيًـا، يـا رب اكتفـى القلـب مـن الجـراح، فتحهـا وأخـذ ينظـر مـا بداخلهـا، لحظـات باتـت طـوال وهـو ينظـر إلى بضـع سـطور، تحسـبه يعيـد قراءتهـا، أم لا يصـدق مـا فيهـا، ثـم نظـر إلى يحيـى قائـلًا...

- هل علم السلحدار أنك القاتل؟

- لم يعلم بعد، لكنه يشك في كل من حوله.

- هيا بنا إلى القلعة.

***

مع الغروب، توافد مماليك السلطان، كل أمير يتبعه مماليكه، مشهد عسكري لم تشهده الأزبكية منذ مقتل آخر سلطان، جمع الجمع كل ما يلزم للنيل من السلحدار، البعض منهم، كان حليفه بالأمس، وكثيرون منهم من سعوا لوصاله، أما اليوم فهي لحظة انتهاء مملوك، تلك اللحظة يفضلها الكثيرون، ينقض فيها كل عدو أو صديق، يضمنوا جميعًا بذلك خروج منافس قوي من حلبة المنافسة على الحكم، تلك هي أولى قوانين مملكة المماليك، تقدم المشهد عدد من الأمراء، وظهر الشيخ زكريا على فرسه الأبيض وبجواره يحيى، يقف بتربص إلى القصر، يأمل أن ينتهي كل شقائه بعد هذا اليوم، فقد كانت ليلة عرسه من حبيبته هي الأمتع والأشقى في تاريخه، فروحه وجسده ارتويا من روح وجسد حبيبته، ولكنه زهق نفسًا واطلع على أكبر سر صادفه في الحياة، تقدم قائد الحرس الجمع من الجند، وأمر بالهجوم، فانطلق الجنود واقتحموا القصر

الـذي بـات خاليـا مـن المقاومـة فـلا وجـود لحـراس الطابيتـين، أو أي مـن المرابطـين عـلى أبـراج أسـواره، أخـذ يفكـر تـرى هـم متربصـون أو متحصنـون بأماكنهـم، أم تركـوا المنـزل فاريـن مـن مصيرهـم، تقـدم الجنـود فظهـروا في كل ركـن بالحديقـة، لم يتحمـل يحيـى الانتظـار بجـوار والـده، بـل غمـز فرسـه فطـاح يجـري وسـط الجنـود ليشـاركهم البحـث عـن زوجتـه، كان قلبـه يخفـق لا يـدري أهـو الشـوق أم القلـق، بـدأ الخـوف يزحـف شـيئًا فشـيئًا وهـو يـرى المنـزل الخـال، يأتيـه الحـراس مـن كل ركـن، ليؤكـدوا خلـوه مـن الأحيـاء، نـزل مـن عـلى فرسـه مسرعًـا فدخـل القـصر يبحـث يمنيًـا ويسـارًا، قفـز فـوق الدرجـات ليصـل إلى حجـرة الحريـم التـي تقطـن بهـا حبيبتـه فلـم يجـد شـيئًا إلا الأمتعـة التـي تركوهـا خلفهـم، صرخ بالغرفـة وأخـذ يحطـم كل مـا يصادفـه، حتـى الحـرس بـات ينظـروا إليـه محتاريـن، لا يـدروا مـا يحـدث حولهـم، بعضهـم رؤى الجواهـر المتروكـة فتركـوا البحـث وأخـذوا في حصـد الغنائـم مـن كنـور لم يـروا مثيلهـا طـوال أعـمال نهبهـم بالبـلاد، أخـذوا يحـصرون المقتنيـات النـادرة دون مباليـين بيحيـى أو سـبب غضبـه، لم يعلـم يحيـى كـم مـن الوقـت مكـث داخـل القـصر، بحـث في كل مخبـأ وفي كل شـق داخـل جـدارن القـصر ولم يجـد زينـب، أصبـح كالتائـه وسـط الجنـد الذيـن لم يتركـوا شـيئًا ذا قيمـه إلا وأخـذوه معهـم، ولكـن أيـن زينـب؟ ظـل

يرددها في كل ركن كما لو أنه يسال عنها حيطان القصر التي لا تجبه، أخذ يضرب على رأسه، يلعن نفسه، أكان عليه أن يبقي داخل القصر وألا يخرج لتلك المهمة، لو بقي هل كان يمكن أن يحميها، أخذ شاردًا وكل من حوله يسرق، الجميع من حوله يسلبون وهو وحده يصرخ.



12

الحرب

اختلف مشهد الجبل ومغارته عن آخر لقاء جمعهم، فآخر ذاكرة بالمكان كان ممسكًا بيد زوجته وشريكة عنائه، الآن بات وحيدًا شريدًا، لا يعلم أين ذهبت؟ وما مصيرها؟ مجددًا يفقدها، مجددًا تُسلب منه، تخرج مكرهة غير راضية، أيام قضاها في وحشة الصحراء لا ينزل إلى الحضر إلا للذهاب إلى الأزبكية، يمر على أسوار القصر المهجور، يدخل دون سؤال أحد أو استئذان، فما من أحد يستأذنه أو يأذن له، كل شيء بات حزينًا، حتى الأشجار التي كانت تظل عليهم باتت حزينة، بائسة ويابسة، فقدت الروح منذ أن فقدت نفس زينب بالمكان، يجلس بنفس مكان لقائهما الأول فيئن قلبه، قلب عليل مجروح، يذق ويل الحرمان، يتذكر أول لمسه يد وهو يطلب موعده الثاني فيصرخ متألما، يتذكر كلماتها له

وكلامه لها فينطق لسانه بما يثقل قلبه، يشدو بصوت عال مبحوح بما فيه من حزن وضيق...

متى يا غريب الحي عيني تراكم وأسمع من تلك الديار نداكم ويجمعنا الدهر الذي حال بيننا ويحظي بكم قلبي وعيني تراكم

لا يجد من يجيبه، فيعتريه اليأس، ويعود مجددًا إلى محبسه، ينطلق بفرسه إلى الصحراء، فوحشة الصحراء أحن عليه من وحشة البعاد، ليتذكر لقاءهم كلما مر على المغارة مجددًا، أيام قضاها على هذا الحال، يراه حسن وصديقه عليا والوجع يعتصرهما، إلى أن عاد يومًا إلى المغارة ليجد والده يجلس في انتظاره، لم يعد هناك ما يفاجئه، تقدم نحوه مهزومًا مكسورًا، وجلس حوله حسن وعليا وبات الجمع أشبه بالاجتماع، فبادرهم حسن بالحديث محاولًا أن يجفف جرحًا غائرًا...

- لكل عسر يسر، لا تجعل الحزن يقتلك، نحن في أمس الحاجة إليك.

نظر له نظرة المهزوم الذي يحاول أن يجد نفسه من جديد، فتابع حسن...

- لا نعلم أين ذهب السلحدار ولكنه من المؤكد سيتعاون مع العربان حتى يضمن الأمان حتى الأناضول، ونحن على

اتصال مباشر بكثير من شيوخهم، كما أن حسناء ما زالت معه ومن المؤكد ستصلنا أخباره قريبًا، فقط الانتظار يا صديقي.

- فأجاب الشيخ، نعم يا ولدي، إنه الصبر، إنه خير دواء.

لم يعقب يحيى بل أشار برأسه وليس بداخله أي ميل للرد أو الحديث، سكت لسانه ولكن عينيه بات بها الكثير من الكلام، فأكمل الشيخ...

- يجب الآن أن نتحد جميعًا فيما نحن مقبلين عليه، أما أنت يا حسن فيجب أن يضمن السلطان ولاءك، كما يجب أن نستنهض العامة للالتفاف في هذا الوقت.

- نعم يا مولاي، لكن هل السلطان سيقبل التعامل معي؟

- أرى أنه يريد أن يلم شمل الجميع، لا تنسى أننا مقبلون على حرب، والجيش يتهيأ للزحف، ولا نعلم لمن ستكون الكرة، فلقد أختار الله أن يختبر هذا الجيل بأمر اختبار منذ صراعاتنا مع الصليبين والتتار.

- هذا ما تركه لنا المماليك يا مولانا، فلولاهم لكان هذا الشعب في مكانه أخرى.

- لا تلقي اللوم على المماليك وحدهم يا بني، فمنهم الصالح ومنهم الطالح، انظر حولك تجد هذا الوطن هو من

حافظ علي الهوية العربية بعد التتار وخراب بغداد، هو من أعاد بلاد الشام من يد الصليبين، تلك حقائق لا يمكن أن ننكرها مهما ضاع هذا الشعب أو فقد بصيرته أنما هذا وطن له أبناء لا يظهروا إلا وقت الضيق.

– وماذا لو سقطت مصر في تلك المرة؟ قالها يحيى بصوت عال مرتفع كالغائب عن الوعي.

– فرفع الشيخ رقبته كأنه يقرأ الكلمات امامه ... ستتكالب علينا الأمم، ويأتي التيه لأننا فقدنا أسباب النجاح التي برعنا فيها قديمًا، إن سقطت مصر سيسقط الشرق بأكمله.

– فعلق علي، لكن بايزيد الثاني يدعي أنه خليفة المسلمين، وقد يؤثر هذا في الناس يا مولانا.

– كم من الخلفاء تخلفوا عما وكّل لهم، كلها أسماء سميتموها.

– كيف لنا أن نعلم لمن الخلافه الحق؟

– أنه السيف يا ولدى وحده من يحسم تلك المسالة

– فماذا إذن عن دولة الإسلام وبلاد المسلمين ؟

– عن أى دولة إسلام تتحدث، الأموية أم العباسية أم الفاطمية أم غيرهم من الممالك والدول؟

- بالتأكيد، المدينة أول دولة للمسلمين وحدهم.

- ضحك الشيخ، لم تكن يا ولدي، بل كانت تضم المسلمين والأنصار واليهود والكفار، وقد أصدر الرسول أول مكتوب سمي بالصحيفة، أول بنودها كانت المسلمين واليهود أمة واحدة، أيضًا هل تذكر محتوى الرسائل التي بعث بها إلى ملوك الدول الكبرى المعاصرة لرسالته، هل أيًا منها تضمنت أي حق له كرسول في الحكم، أم أنها جاءت بنذير من الله بأنه رسول منذرًا ومبشرًا؟

انفرد الحديث بين الشيخ وعلي الذين ظلا يتحدثان، فعليا يسأل والشيخ يجيب، غاب كل من حسن ويحيى عن الحديث، فحسن كان يفكر فيما يمكن أن يقدمه من جهد سواء في لم شمل العامة أو حتى استغلال بعض مهارات رجاله القتالية، بينما ظل يحيى وحده وسطهم لا يفكر إلا في زينب.

***

اتخذ يحيى من مدرسة والده مستقرًا له، فباتت أكثر المناطق قربًا من إتصالاته سواء مع العامة أو عياء الجبل، ترك الوقف لأخيه الذي لم يكترث لأمر شيئًا سوى المال، كره الوقف ولم يعد له فيه إلا ذكريات شاطئ النهر الذي جمعه بمحبوبته،

استأنس السكني بين العامة كعادته، وأصبح دائم الظهور ما بين بركة الرطلي وخان المعز وقلعة الكبش، يتردد بين رباعيها وحواريها، كان يرى ما بهم من بؤس فيزداد إشفاقه عليهم مما سيخبئه لهم القدر، بات بجوار والده المسن الذي عادت له روح الشباب من جديد، فقد أصبح أكثر نشاطا عما قبل، فلم يراه العامة منذ زمن إلا جالسا وسط مدرسته، لكنه الان أصبح يتجول بين الربوع ببغلته متحدثًا مع العامة وناصحًا، منذرًا لما ممكن أن يتحقق بهزيمة جيش المماليك.

بقي العامة كعادتهم، كثير منهم في لا مبالاة، عم اكتراث لا ينم عما يواجهون من تحديات، وكعادة كل أزمة زادت الأسعار حتى وصلت إلى أقصاها، وأصبحت المعايش في غاية الصعوبة، وكلما زاد شقاؤهم زادت مظاهر التدين المبالغ في بعضها، باتوا يقيمون الليل لأولياء الله، وغمسوا أنفسهم في الدجل والخرافات دون فرق بين مسلم ومسيحي، ممارسات برع فيها العامة لدفن همومهم وإلهاء أنفسهم بعيدًا عن الواقع وحقائقه، كانت تلك الممارسات يراها الشيخ قديمًا مجرد حالة من الجهل لابد أن ينقشع، وأن دور رجال مثله أن يحدثوا الفارق، لكن مع الواقع المرير أصبحت تلك الممارسات تزيد من ضيقه وضجره فيصيح بين الناس بأن يعملوا، أن يغيروا واقعهم منذرًا بأن الوقت ليس في

صالحهم، فلا يجد إلا القليل ليستجيب والكثير ليصم آذانه ويردوا بالنكات السطحية التي تزيد مرارة الوضع بؤسا.

ظل يحيى بمدرسة والده، وبات الخريف يدق في عظام الأشجار وأغصانها، جلس بالطابق العلوي للمدرسة سارحًا بين أحزانه وهو يتابع إحدى الأشجار وهي تفقد أوراقها فتسقط ورقة تلو الأخرى، لتأتي الرياح لتطيح بها، راى أحد رجال حسن الجني الذين بدؤوا في الظهور بين الطرقات بعدما عفا السلطان عن قائدهم، يسير بسرعة مندفعًا من أول الحي سالكًا طريقه إلى المدرسة إلى أن دخلها، فأسرع يحيى للقائه حتى التقيا بصحن المدرسة متسائلًا عن سبب قدومه، فأبلغه أن حسن الجني يريده لأمر عاجل، حاول يحيى طوال الطريق أن يستعلم عن سبب الاستدعاء، ولكن وجد أمامه صنمًا لا يفهم أو يتكلم، كانت خواطره تؤكد له، أو تتمني خبرًا عن زينب، لكن المرسال لم يريحه، بات الطريق للمغارة أطول بكثير عما سبق، حتى وصل بشوق، دخلها وهو يتمنى، ما أن التقي حسن حتى هم مبتسمًا يحييه فتأكد لديه الحدث فقال...

- أبلغني بالجديد بالله عليك.

- لا تقلق هي بخير، هم الآن في قصر إحدى أقارب السلحدار بجنوب الأناضول.

- جنوب الأناضول، قالها وهو يسافر بخياله إليها، ها هو المستحيل مجددًا، ثم نظر إليه مجددًا قائلًا، كيف السبيل إلى الوصال يا حسن؟

- هذا أمر ستتم دراسته، لا تقلق لكل عقده حل يا صديقي.

سكت لوهلة ثم علق...

- لكن هناك أمر آخر يجب أن تعلمه.

فانتفض مجدداً، يعلم جيداً أن الأمل دائمًا يجيئه ومعه الاختبارات الصعبة، فأصبح قلبه قادر على احتمال أي مفاجأة.

- أخبرني يا ريس حسن.

- زوجتك حامل.

كانت الصدمة أكبر من أن يفيق منها، أخذه الدوار وجلس مترنحًا يحاول أن يستوعب، أيفرح أم يحزن، أيزداد شقاءه بهذا الخبر، سال دمعه دون أن يشعر، تركه حسن يحادث نفسه إلى أن أحس أنه هدأ قليلا، فحكا له ما جاء في رسالة حسناء المختصرة على أجنحة الحمام الزاجل، أخبره بسلامة زينب وحملها، كما أخبره بمعرفة السلحدار

أنـه قاتـل ابنـه، كـما علـم أنـه أب مـا في أحشـاء زينـب، مـرة أخـرى وأخـرى يأتيـه الأمـل ثـم يُأخـذ منـه.

لا يـدري بـماذا يجيـب أو مـاذا يقـول، حتـى التفكـير أصبـح غـير واضـح، تزاحـم مـن الأفـكار والظنـون مجددًا، مـا سيحدث للطفـل دونـه؟ ولـده وزوجتـه في قبضـة عـدو جبار، يحادث نفسـه بأفكار مخيفـة، لماذا لم ينتقـم السـلحدار منهـا إلى الآن بعدما علـم؟ فجـأة طـارت الفكـرة مـن رأسـه، وجـاءت فكـرة أخـرى، أتـرى ينتظـر السـلحدار قدومـه لينتقـم كـما يشـاء؟ أم هـو مـن سـيعود إلى المحروسـة مجـددا متقدمًـا جيـش الـروم، وحينهـا سـتكون زينـب والطفـل رهائـن قسـوته وجبروتـه إلى أن يأتيـه راكعـا.

خـرج يحيى مـن المغـارة ولا يعلـم إلى أن يذهـب، لم تعـد قدمـاه تريـد السـير في أي طريـق سـوي الطريـق إليهـا، أخـذ يسـير بفرسـه ويسـير دون واجهـه، لا يعلـم إن كان عقلـه هـداه إلى باب السلسـلة بالقلعـة أم فرسـه هـو مـن قـاده إلى هنـاك، لم يعـد يـرى شـيئًا سـوى السـلحدار، الأناضـول، بـلاد الـترك. دخـل إلى القلعـة يسـأل عـن صديقـه القديـم الـذي لم يـره منـذ مـا قـارب العامـين، منـذ أن صرع صالـح بالسـاحة قبـل أن يصرعـه مجـددا داخـل قـصره، توقفـت الأفـكار عـلى صـوت صديقـه...

– لم ألقاك منذ فتره طويلة يا يحيى.

– لم يمنعني عنك إلا الشديد، ثم تعمدت في كثير من المواقف إبعادك عما أواجهه.

تقدم إلى صديقه فاحتضنه بحميمية ثم مشيا بجانب بعضهما البعض، حتى وصلا إلى مجلسهما فأشار له طومانباي بالجلوس قائلًا له...

– هذا ليس عدلًا، ومتى تكون الصداقة.

– أعلم مدى المشاكل التي يواجها خالك الغوري، لا أريد أن أزيد عليك بما يضيرك. قالها بصوت مقتضب.

– ماذا بك يا صديقي؟ فلقد انتصرت على السلحدار وقضيت على جبار، ولم يعد هناك ما يهددك.

– بل السلحدار هو من انتصر علي يا أخي.

– كيف هذا؟ أتعني أنه فر، لا أظن أن مثل هذا سيعيش في سلام، كما أعلم أنه لا يضيرك فراق ابنته، لم أدرك إلى الآن كيف تزوجت من ابنة السلحدار؟

سكت يحيى قليلًا لكي يستجمع الكلمات، ثم أجاب.

– وراحتما بالعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

– أهويت ابنة السلحدار؟

انكب يحيى يحكي لصديقه كل ما كان من أمره وأمر زينب والسلحدار، كل ما حدث في العام الذي غاب عنه، عام من الأحداث آثر يحيى أن يبعد طومانباي عن كل ذلك حتى لا يشمله غضب السلحدار أو غضب مولاه الغوري، لم يتحاش أن يبكي، لم يتحاش بأن يقول ما في قلبه من حب وشقاء، أو أن يخبره عن ابنه الذي أصبح نطفه في أحشاء زينب، الروح التي باتت منه، ما أن أسري إلى صديقه بسره الذي كان يخفيه عنه حتى أنهي كلامه قائلًا له...

- لم يعد لي خيار غير أن أذهب إليه.

تعجب طومانباي مما قيل، ظنه فقد عقله، أو أن الخيال عنده أصبح يتعدى كل حدود، حاول أن يهدي صديقه ويستعلم منه فسأله...

- أتعلم مكان زوجتك؟

- أعلم وجهتهم، لكن لا أعلم كيف أنفذ خطتي.

سكت الصديقان يتدبران الوضع المعقد، طومانباي لا يصدق كل ما حدث لصديقه، يرى شبحًا، ينظر إلى عينيه فيري وحشًا جريحًا.. قليل من الصمت ثم أردف...

- أتود أن تلحق بالجيش المصري المسافر إلى الأناضول؟

لمع البريق بعينين يحيى وهو يسمع هذا الطرح من صديقه، كما لو أنه لم يتوقع مثل هذا ولكنه كذلك.

- أيمكنني ذلك؟

- لا تقلق أستطيع أن أدبر ذلك، ثم إني سأشارك بالحملة، فسأكون معك لأقدم يد العون.

- لكن أنا بحاجة إلى رجال تساعدني في البحث.

- اطمئن، اعلم أن المماليك لن يهتموا وسط العراك بأمر زوجتك وما في بطنها، اتركني أفعل ما في وسعي.

ترك يحيى صديقه بعدما أذاقه الأمل من جديد، أحس أنه يأخذ خطوات موفقة بعدما خرج من لقاء صديقه، مصدر ثقته الوحيد بين المماليك، أسرع عائدًا إلى مدرسة والده ليبلغه بأخبار اليوم الحافل الطويل، يجب أن يعلمه بكل شيء، فسابقًا اتخذ خطوات في الدنيا ضد نصائحه، مع كونه مؤمنا إيمانا كاملا بما فعل، لكن لم يعد يستطيع أن يثق في قراره وحده، أصبح يريد التأكد في كل خطوة من خطواته من أنه اتخذ الطريق السديد، هذا ما تمنى أن يجيبه والده، ما أن لاقاه في صومعته حتى أفاض له نبأ الحفيد الذي لم يذق طعم الحياة بعد، علقه في بط زوجته يسكن بعيدًا بآلاف الأميال، يحمل اسمه وذكراه، امتداد جديد

وأمـل جديـد، لم يخذلـه أبـاه، بـل مـا أن اسـتمع إليـه حتـى بـارك قـراره، بـل أمـره بـألا يضيـع وقتًـا، وأن عليـه أن يذهـب ولا يعـد إلا بزوجتـه وطفلـه.

لم يعـد الوقـت يمـضي في حـزن ويـأس، بـل طـار يحيـى عائـدًا إلى حـدرة الكبـش التـي اعتـاد العيـاء عـلى النـزول إليهـا بعـد العفـو، كان يعلـم أن حسـن يعـود إلى الكبـش عـصرًا هـو ورجالـه، فـأراد أن يحدثـه عـن أمـر طومانبـاي، كان هدفـه أن يذهـب ليضـع خطـة لاسـترجاع زينـب، ولم يجـد خـيرًا مـن الجنـي ليضـع لـه الخطـة، يزيـده مـن أمـور التمويـه والتخفـي، يطلـب منـه بـأن يعطيـه عـددًا مـن رجالـه لمعاونتـه عـلى تنفيذهـا، مـا أن وصـل إلى قمـة الهضبـة العتيقـة، مـا أن صعـد إليهـا حتـى تـراءت لـه بهجـة الجـو بعـودة الرجـال الهاربـين إلى أحضـان زوجاتهـن وأبنائهـم، مـا تلـك البهجـة التـي يراهـا، قبـل سـاعات قليلـة لم يكـن يستسـيغ تلـك المشـاعر، لكنـه الآن يحـس بهـا بعدمـا عـاد لـه الأمـل، بـات يسـلم عـلى كل رجـل وكل طفـل بابتسـامة تحمـل الكثـير مـن الأمـل، ويـردوا ابتسـامته بابتسـامة تبعـث عـلى التصميـم، العيـون تلمـع، تعلـن بـما بـات في قلوبهـم، فقـد قـرروا أن يواجهـوا الخطـر القـادم إن انكـسرت جيـوش المماليـك، لـن يرتضـوا بغـزو جديـد أو احتـلال يزيـد مـن بؤسـهم كحـال بعـض السـفهاء في أوطـان

أخـرى، كلـما التقـى بأحدهـم يجـده يطلـع إليـه بقـوة يؤكـد لـه أن أبنـاء هـذا الوطـن أقـوى مـن الزمـان وتقلباتـه، ظـل يسـير حتـى وصـل إلى حلقـة العيـاء فوجدهـم بأكملهـم مجتمعـين يتدربـون ويقدمـون ألعابهـم وسـط هتـاف جميـع مـن بالحـي، جلـس يتأمـل الألعـاب، كـم يحبهـا وتهـون عليـه في أوقـات الضيـق، جـاء حسـن وعليـا وجلسـوا يتحدثـون عـلى مـا صـار إليـه الأمـر، درسـوا كل العواقـب والاحتـمالات، طمأنـه حسـن بـأن لديـه عـددًا مـن العربـان الذيـن يمكـن الاسـتعانة بهـم حتـى بالشـام، وسـط الحديـث صـاح الجنـي، فاجـئ الجميـع قائـلًا...

- لمـا لا يوجـد جنـود بالجيـش مـن أبنـاء العامـة، ألـن يـأتي الوقـت لندافـع فيـه عـن وطننـا؟

استوقفت الكلـمات الجميـع، كـما لـو أنهـم يسـمعوا ترهـات أحـد المجانيـين، فتحـوا أفواههـم إلا يحيـى، صرخ عليـا قائـلًا...

- مـاذا قلـت يـا ريـس؟ أنركـب ونكـر ونفـر، نحـن غـير أهـل لذلـك.

قاطعه يحيى

- مـن قـال ذلـك، لمـاذا لا نسـتطيع، ثـم كيـف لنـا أن نقبـل أن يحمـي أرضنـا غيرنـا ؟

- هذا حالنا وحال أبائنا من قبل.

- هـم جـاءوا إلى تلـك البـلاد لحماية حـكام أنتهـت دولهـم، مـا بكـم أيهـا القـوم، إن ظللتـم تعتمـدون عـلى غيركـم فلـن تضمنـوا شر الدهـر، وطننـا عـلى المحـك، ويجـب أن نكـون نحـن جنـوده، لـن تقـوى مـصر وأبناؤهـا ضائعـون لا يهتمـون بـشيء سـوي الجهـل والسـخرية، تعـاشرون زوجاتكـم لتنجبـون عبيـدًا مثلكـم، ألم يحـن الوقـت لكـي تتحـرروا، أفيقـوا يرحمكـم الله...

أجابـه صـوت مـن العامـة ممـن أسـتوقفهم الحديـث قائـلًا.. .

- لكـن مـن سـيرضى بالعامـة بالالتحـاق بالجيـش؟ وهـل سـنكون مسـتعدين للقتـال؟

- أتركـوا لي هـذا الأمـر، ولكـن عليكـم أن تعتـادوا أن لا أحـد غيركـم قـادر عـلى إنقـاذ ذلـك الوطـن.

- لكن أنت تسعى للإنقاذ زوجتك. قالها آخر.

- هكـذا نـرد الديـن، قالهـا حسـن مقاطعًـا صارخًـا للجميـع الذيـن وقفـوا خاشـعين.

بتلـك الكلـمات تـرك يحيـى أصدقـاؤه، وهـو يـرى قـرب الخـلاص، فمنـذ قـدوم الخـبر، وحديثـه مـع طومانبـاي، فأصبـح لا يطيـق الانتظـار، يـود لـو تجهـز وغـادر، فـلا يقـف

جـواده عـن العـدو حتـى يصـل إلى مـراده، جاءتـه فكـرة مجنونـه يـود لـو أخـبر والـده عنهـا أو حتـى طومانبـاي، لكـن لما لا؟ دون أن يفكـر، أوقـف فرسـه وعـدل مسـيرته في اتجـاه القلعـة للقـاء السـلطان، فهـو يعرفـه جيـدًا ويحبـه، والأهـم هـو يعلـم جيـدًا أنـه صاحـب الفضـل في الوصـول إلى خيانـة السـلحدار وكشـف مؤامرتـه، لم يـدر بنفسـه إلا وهـو بالبـلاط السـلطاني، يسـتأذن الدخـول للحديـث في أمـر خطـير، لحظـات وجـاءه الـرد، لم يتوقـع الدخـول عـلى السـلطان في ذلـك التوقيـت بتلـك السـهولة، فبـات تهـوره واقـع لا يمكـن الهـروب منـه أو التراجـع فدخـل وهـو يدعـو الله بـأن يـشرح صـدره للحديـث وأن يقبـل السـلطان مسـعاه.

– عمـت مسـاءً يـا مـولاي، أعتـذر عـن حضـوري دون طلـب منـك.

– لا عليك يا يحيي، لكنك أبلغت الحرس أنه أمر هام.

– أطلـب الإذن بالخـروج للقـاء آل عثمان، كما أرجـو يـا مولاي بـأن تسـمح للعـوام بـأن يشـتركوا في ذلـك، فحسـن الجنـي يمتلـك بعـض مـن المقاتلـين المهـرة.

اعتـدل السـلطان في جلسـته، وبانـت عليه علامات الاسـتنكار، أخـذ ينظـر إليـه ثـم أجابه.

- أني أعجب بصدقك يا يحيي، فنفسك ينطق بها، لكن يا ولدي أمور الدولة أكبر من هذا، أتريد العوام بأن يناطحوا الأمراء في مهامهم؟

- مولاي تلك أرضهم ووطنهم، والداهية سوف تعم على الجميع.

- يا ولدي سيتمرد الأمراء، أنت تفكر من زاوية واحدة، لكن تلك الأمور أعمق من ذلك.

لم ييأس يحيى بل بادر...

- أعلم يا مولاي أن الأمراء شوكه بظهرك، ولن يرضوا بذلك، ولكن إن أمرت لن يجرؤ أحد على مخالفة أمرك، كما قد تخسر بعض الأمراء ولكن ستكسب كل الرعية.

سكت قليلًا يفكر في حديث الشاب المتهور الواقف أمامه.

- لم تريد الخروج للحرب؟ قد يكون لك نفعًا آخر هنا؟

- هدفي يا مولاي ليس فقط الزحف، بل للبحث عن زوجتي التي خطفها السلحدار؟

تمهل قليلًا ثم بهدوء أجاب...

- لا أعلم يا ولدي، لكن هل تضمنها زوجة لك بعدما قتلت أخيها وأبلغت عن خيانة أبيها.

- أعتذر لمولاي، فلم تتاح الفرصة للتوضيح، ليست ابنة السلحدار من أبحث عنها، سكت قليلًا وأمال رأسه إلى أسفل، وبدأ على صوته الحنين، بل أبحث عن زوجتي زينب، التي كانت جارية السلحدار، من أجلها دخلت قصره من أجلها أجبرت على الزواج، كما هي من ساعدتني على كشف السلحدار لكم، كما أنها حامل مني بجنين أتمني ألا يرى نور الحياة إلا بوطنه.

جاءت الكلمات الأخيرة لتحرك كل العاطفة في قلب السلطان، فأجابه بأن يتم السماح لفرقة من العوام تسمى بفرقة العياء للسفر مع الجيش لمواجهة الروم، على أن يقودها يحيى وتجهز للحملة من مخازن السلطان.

***

شمس الصحراء الحارقة، ورمالها الغابرة، اللون الأصفر القاتم والحرارة المهلكة، تراها جافة، ترى فيها جفاء وموت بطيء، لكن بين رمالها كل الحياة، إنها المفازة، فوق رمالها باتت جحافل الجيش المصري وأقدام الخيول تضرب الأرض لينتشر اللون الأصفر حتى في الجو غبارًا ناعمًا، لوحة تشكيلية مغموسة الألوان، ولكن يبقى وحده الهدف، وحده هو الذي يفرق بين صحراء سيناء عن أي صحراء أخرى في نفس يحيى وأصحابه، انطلق الجيش إلى الشمال الشرقي ليسير في محاذاة

البحر الذي أول ما رآه يحيى ورفاقه حتى بهرهم لونه الأزرق وصفاؤه، بهرهم ذلك الغموض المخيف الذي فيه، فهي أول مره له ليرى البحر وإن عاش على ضفاف النيل، يقف على شاطئ لينظر إلى الآخر، أما هذا فلا آخر له، تمامًا كحكايته لا يعلم نهاية لها، كان الهدف أن يسير الجيش بمحاذاة الشاطئ حتى الوصول إلى عكا ثم إلى طرابلس لينضم باقي المماليك بالشام بالجيش المصري، شركس وعجم ومصريون من كل لون تآلفت لتكون أكبر حملة عسكرية في تاريخ المماليك الشركسية، آخر دول مصر العظمي بالقرون الوسطى.

كان الجيش المصري بكل عناصره يتقدم ويزحف بين المدن المصرية والشامية فيدخل كل مدينة ليقابل بالورود والتحيات ودعوات النصر، لم يكن يحيى يعلم أن مصر كبيرة إلى هذا الحد، يعلم على الأوراق ذلك ولكن حياته كلها قضاها في مصر التي هي المحروسة، أما كل هذا الاتساع الشاسع، كل تلك الوجوه ما أشبها بوجوه البؤساء في حواري المحروسة، كان يتطلع وقد أصبع على قناعة بأن الحياة أكبر بكثير مما كان يتخيل، كان الأهالي من كل القرى يلتفون على الجيش بكل قرية يدخلون إليها، فكان آخر مشهد للجيش المصري سابقًا بقيادة الأمير يشبك، تم هزيمته ومقتل قائده، فهل يعي يحيى ذلك، أيفطن الجميع

بـأن تلـك المعركـة مختلفـة، وأن الجيـش المقابـل لـه هـو جيـش بايزيـد الثـاني ابـن محمـد الفاتـح، وأن هـذا الجيـش مـن قبـل أعـوام قـد أسـقط القسـطنطينية، يـا ليـت الولـد كأبيـه ولكـن أطـماع بايزيـد تختلـف، لـذا فالمواجهـة سـتكون عنيفـة وداميـة.

حـاول أفـراد الفرقـة المصريـة أن يتقربـوا مـن باقـي المماليـك، لكـن كان الجفـاء هـو المقابـل إلا طومانبـاي وبعـض مـن رجالـه بقـوا عـلى ود معهـم، خاصـة أنهـم أظهـروا جهـدًا مضنيًـا في التدريبـات العسـكرية، واظهـروا تقدمًـا عـلى كثـير مـن الفرسـان، فـزادت الثقـة بأنفسـهم، خاصـة أن لهـم مهمـة خاصـة تختلـف، لكـن مـع ذلـك بقـي يحيـى شـاردًا فيـما فيـه، لم يهتـم بأحاديـث المماليـك أو حفـلات السـمر التـي كانـت تشـيد ليـلًا، وبقـي هـو وجماعتـه في جانـب يخططـوا لمـا هـم قادمـين عليـه.

استطاع حسـن الجنـي أن يجمـع بعـض العنـاصر مـن العربـان، التقـي بهـم وأبلغـوه عـن بعـض الطـرق الوعـرة وبعـض أسـماء القبائـل المتحالفـة معهـم، كان يسـتمع إليهـم وقـد وصـل إلى معلومـات عـن وجـود بعـض الطـرق الوعـرة التـي كانـت تقلـل مـن السـير وتضمـن الوصـول في وقـت أقـل، أيضـا يحيـى لم يكـن ليصـبر أو يحتمـل مـع طـول المسـافة بـأن يتحـرك بالبـطء الـذي يلـزم الجيـوش وعمليـات المبيـت ومـا يلزمهـا مـن تشـييد الخيـام وحلهـا وأوقـات الراحـة التـي تحتاجهـا الـدواب، فـما أن علـم

من الجني حتى اندفع إلى خيمة طومانباي وقد أتخذ القرار.

- أريد أن أرحل بمفردي.

- الصبر يا صديق، كيف ستقتحم مدينة بمفردك؟

- لا داعي لاقتحامها، فبكل الأحوال إن علم السلحدار بالزحف فمن يدري قد يهرب أو يبتعد.

- ولكن ما خططك؟

- علي أن أعلم أولا أين هو، قد أنتظر الجيش المصري هناك أو أتصرف بمفردي.

أخذ طومانباي فترة من التفكير ليقر رأيه، فلم يجد سوى الدعاء لصديقه ورفاقه في رحلتهم التي لا تقل شقاءً عن رحلتهم.

***

بداية الشتاء، الثلج الأبيض يغطي قمة جبل الطوروس، والرياح تهشم العظام، بات الطريق وعرًا وصعبًا، زاد عليه الصقيع القادم من كل اتجاه، ولكن لا مناص من الاستمرار في السير، اثني عشر فرسًا أخذت طريقها بين الصحراء والثلوج والجبال والهدف واحد، وهو مدينة قيصرية جنوب الأناضول، مدينة كبرى تضم أقاليم وقرى وقلاع، يقطن في

إحداها السلحدار ورجاله، تقطن زينب حبيسة في مكان ما هناك لا يعلمه إلا الله، ولكن الهدف واحد هو تحريرها بحملها الغالي، ولكن هل سيكون هناك وطن لهم عند عودتهم، هذا سؤال أيضا لا يعلم إجابته إلا الله، فالحرب لا يعرف نتائجها حتى أبطالها، لا أحد منهم يمكنه أن يتوقع شيئا، كان الدليل من أقدم عربان المنطقة وتمتد نفوذ قبيلته حتى بحر الخرز على حدود الدولة الفارسية، فكان خير عون لهم بعدما جعلهم يبتعدوا عن المدن التي يتحصن فيها جيش الروم الذي زحف فاحتل عددًا من المدن الشامية، نذيرا عن بداية الأجتياح لدولة المماليك المصرية.

كان الدليل على دراية كاملة بمعالم قيصرية، وزارها أكثر من مرة بحكم علاقاته بعدد من التجار الذين تتولى قبيلته تأمينهم أثناء رحلتهم التجارية، فكانوا يسيروا ليلًا ونهارًا دون توقف، يريدون أن يعثروا على السلحدار قبل أن يأتي الجيش المصري ويجتاح المدن، كانت الأخبار تأتيهم تباعًا من العربان، إلى أن أتاهم العربان ليبلغوا أنهم وجدوا السلحدار، كان السلحدار قد تنقل من عدد من المدن حتى انتهى به المطاف إلى أضنه، حيث قلعة أضنه التي كانت قديما تحت الإدارة المصرية إلى أن احتلها الروم، فأصبح الفريق على حد ما على علم بطبيعة المكان المراد اقتحامه،

وعـدد البوابـات ونوبـات الحـرس حتـى اسـتطاع أيضـا يحيـى أن يحـدد أي أسـوار القلعـة أقـل حراسـة، ولكـن بقيـت خطـة الاقتحـام كتـف تتـم ومتـى؟ سـؤالان باتـا حديـث الرفـاق أثنـاء السـير، حـاول كل فـرد أن يبحـث عـن طريقـه للدخـول، ولكـن اجتمـع رأى يحيـى وحسـن عـلى أن التنكـر سـيكون الوسـيلة الفاعلـة لدخـول المدينـة قبـل الهجـوم، لدراسـة القلعـة عـلى أرض الواقـع، بـل رأيـا أن دخـول رجلـين إلى المدينـة قـد يضمـن لهـما سرعـة الحركـة ومعرفـة كل نقطـة ضعـف في المدينـة ويمكنهـم الخـروج منهـا إن لم يتمكـن الجيـش المـصري مـن الوصـول أو انكـسر في طريـق زحفـه، طـوال تلـك الفـترة ولم تصـل أي رسـائل مـن حسـناء، لم يكـن مـن الممكـن ذلـك لكثـرة تنقـلات السـلحدار، حتـى اسـتقراره بأضنـه، فـلا يوجـد حمـام زاجـل قـادر عـلى التحليـق بـأراضي غريبـة عليـه، غـير مـدرب عليهـا، ظـل الصقيـع وحـده مـن حولهـم، لكـن ظـل يحيـى يخـرج نـارًا ويتزايـد تطلعـه كلـما علـم مـن الدليـل أن المسـافة أصبحـت قريبـة.

وسـط ظلـمات القبـو، ووسـط ظلـمات الليـل، رقـدت زينـب ملقـاة عـلى الأرض، تمسـك ببطـن امتـلأت أمـلًا وألمـا، حاولـت أن تنهـض، أخـذت تتحامـل عـلى الحائـط الرطـب بصعوبـة وسـط الظـلام لكـي تسـير وسـط الزنزانـة الضيقـة لكـي تقـل

الآلام التي تأتيها ليلًا، ظلمات القبو وظلمات الليل، يا رب اللهم نجي ما بأحشائي من تلك الظلمات، قالتها رافعة يديها داعية لله، أخذت تسير قليلًا حتى شعرت بالتعب يدب بظهرها، فجلست مجددا على بعض القش الذي لا يعين في صد برد أو حشرات، أخذت تتأمل ما آلت إليه حياتها من نعيم الطفولة وعزوة الأهل والعائلة بالصعيد إلى الرق والأسر، فقط لأنها تعيش في زمن يقرر فيه القوي ما يقرره فيرغم به الآخرين، وسط العبودية يأتيها الأمل ثم يذهب بعيدًا، يعود مجددًا فيعود الأمل والفرحة إلى قلبها، ولكن في سرعة البرق، حتى الآن لا تعلم كيف حدث وكيف اختفي زوجها، ولكن ما تعرفه أنها وحيدة سجينة وسط الظلمات.

أي ذنب اقترفته يا الله لأعاني ما عانيت؟

كلمات رددتها بصوت عال رج أركان سجنها، أخذت من مكانها محرابًا أخذت تناجي فيه الله، أخذت تدعوه وتسأله، إن كنت ما به بلاء فأخرجني منه، وإن كان اختبارًا قويني عليه يا الله... وضعت يديها على بطنها تتحسس خبطات جنينها فتبتسم، تنسى كل ما فيها للحظات، وتتذكر أنه قدر لها بأن تكون أمًا، تحدث نفسها، هذا هو سبب بقائي، هذا ما بداخلي هو النور الوحيد وسط كل ظلماتي، سأعيش يجب أن أعيش من أجلك أنت.

تسمع زينب أصوات أقدام تتلصص وسط الظلام، لحظات ويزأر الباب العتيق، ينفتح لتجد شبحًا يتقدم نحوها، لم تعد تمتلك القدرة على التطلع، أصبحت لا تفرق بين الغفوة والواقع، اقتربت حسناء كما تأتيها كل ليله للاطمئنان عليها عندما ينعس الجميع، وتمنيها باليسر بعد الصعاب، تحاول أن تخفف عنها لتصبر.

أعانتها على رفع رأسها لتسقيها شربة ماء، جلست بجوارها تحاول أن تطعمها، تتوسل إليها أن تتماسك وتقوى من أجل جنينها.

ذلك في حين جلس يحيى وسط غابات لم ير لها مثيل من قبل، ينظر إلى الليل وإلى أنوار أضنه، تلك البلدة التي يقف هو خلف أسوارها يتطلع إلى اليوم الذي يثار فيه من السلحدار، واليوم الذي ينفذ فيه داخل القلعة المحصنة لكي يخرج حبيبته، ينظر إلى القلعة التي كساها الظلام من كل جانب إلا من بعض المشاعل الواقفة حارسة للظلام، ظل ساهرا ينادي في الظلام يا رب هل هناك من به هم مثل همي؟ فيرد الصمت صمتا» يزيد من جراحه، فيناجي الله داعيا أن يكون لهم يوم لقاء، أن يحمي الله زوجته وطفله، يكاد يحس بمشاعر الأبوة، يكاد يقفز قلبه خارج صدره من شدة الضيق فيضرب يده في جزع الشجرة.

- يا زينب تحملي، بعد الظلام نور وبعد الليل نهار. قالها ناظرًا للسماء.

- يا يحيي، أنت معي هنا بين أحشائي، رغم البعاد ولكن أحمل منك أجمل ما أحمل. تقولها وهي تنظر إلى السماء من شباك زنزانتها العالي، سأحافظ عليه حتى آخر نفس، آخر نبض. تقولها وهي تمسك بيديها على بطنها، ثم تنظر إلى معدتها المنتفخة وتبتسم ابتسامة تحاول أن تقوي بها عزيمتها.

- لا تخف يا بني، إن الله معنا.

***

بدأت البشائر تظهر للقوات المصرية، يتقدمهم الأتابك أزبك وخلفه عشرة أمراء مائة مقدم ألف، يقود كل أمير منهم ألف مملوك، وخمسين أمير من رتب أقل، ونحو ثلاثة آلاف مملوك في حملة كلفت نصف مليون دينار، هي الأكبر والأغلى في تاريخ المماليك، أخذوا يتقدمون دون حاجز أو عارض حتى بانت لهم أسوار أضنه، بينما يحيى ورفاقه يتطلعون إلى القوات من وسط الغابات، ينتظرون هجوم الجيش المصري الذي بدأ يأخذ تشكيلاته لضرب البلدة وأسوارها بالمجانيق، العزم يأخذ مأخذه بالجند، وهم يعدون المجانيق، فتلك البلدة وأسوارها وقلعتها من

أهـم المناطـق الإسـتراتيجية الحاسـمة للحـدود المصريـة، فيقـف الجيـش المـصري عنـد آخـر خـط اسـتراتيجي لتلـك المملكـة، فـإن انكسر هـذا الخـط بـات الوصـول إلى المحروسـة ذاتهـا أمـرًا محـل دراسـة رغـم بعـد المسـافة.

بـدأت المناوشـات بـين الفريقـين، بـدأ الجيـش المـصري بإطـلاق نـيران مجانيقـه لـضرب سـور المدينـة محـاولا» إحداثـا» أي ثغـرات تمكـن الجيـش المـصري مـن اخـتراق المدينـة، أصبحـت النـيران تقـذف مـن الجانـب المـصري ويـرد بمثيلتهـا مـن خلـف أسـوار المدينـة، ظهـر استبسـال المدينـة وهـي تسـتقبل قذائـف اللهـب وتـرد عليهـا، وظهـر ثبـات الجيـش المـصري وتماسـك صفوفـه، بـات الدخـان الكثيـف عنوانًـا للسـاحة الفارقـة بـين الجيـش المـصري وأسـوار المدينـة، كلـما مـر الوقـت كلـما زاد الضغـط عـلى المدينـة، وقـوات المشـاة والفرسـان يتأهبـون للدخـول والكـر عـلى أعدائهـم، بينـما رجـال آل عثـمان داخـل حصونهـم يمتنعـون ويأملـون بآخـر أمـل في صـد الغـزو المـصري، لعلمهـم بـأن تلـك المدينـة هـي آخـر القـلاع المحصنـة وبعدهـا القسـطنطينية.

وقـف يحيـى ورفاقـه يتابعـون القتـال، أخـذ ينظـر إلى المعركـة وهـو يصـول يمينًـا ويسـارًا في مسـافة صغـيرة كالأسـد المحبـوس داخـل زنزانتـه ينتظـر لحظـة الخـروج، أخـذ يتابـع

اللهب وهو يطير ذهابا وإيابا من وإلى البلدة حتى بدأ يظهر أول مظاهر التصدع في أحد جوانب السور، وبدأت ميمنة الجيش المصري تظهر بعض النشاط، أخذت ترتب تشكيلتها متخذة وضعية الهجوم التي يعتمد فيها على تغطية القوات المغيرة بأكبر عدد من الدروع لتفادي سهام الرامين، ظهرت عربات التحطيم لترافق القوات المهاجمة، عربات خشبية مغطاة بالجلد، بها أذرع معدنية مدببه لتدق السور الذي بدت تظهر به مظاهر الصدع، كان المشهد ليحيى جديد، فلم يتخيل يوما أنه سيشاهد مثل هذا الحدث، رائحة اللهب والضرب على المدينة، صيحات المدافعين جعلت منه قوة مكبوتة آن أوان انفجارها، طاح فيمن حوله يدعوهم للتأهب، لكن حسن أشار لهم ببدء التحضر، إلا أنه اقترب من يحيى ثم أمسك بيده محاولا أن يحثه على التمهل، مؤكدا أن الوقت لم يحن بعد، تفحصه يحيى بنظرة غاضبة، ثم حرر يديه من يد حسن قائلًا.

- لن أنتظر أكثر من ذلك.

- لمصلحة زينب يجب أن تصبر.

- إلى متى؟

- إلى أن تأتي الإشارة.

نظر له يحيى يتحسس ما يفكر فيه حسن، فتركه حسن ليتابع عملية التحضير التي أمر رجاله بها، وقف يتطلع إلى المعركة، لا يطيق أكثر من ذلك، ما ستؤول إليه، ترى هل لو طال القتال واستبسل الروم أسيطول الحصار ومعه يطول عذابه وعذاب زينب، ترى هل ينكسر الجيش المصري؟ هل يتوارى فينسحب تاركا البلدة بعدما حقق انتصارات كاسحة في مواجهاته المتتالية مع الروم، كلها تساؤلات تحدد مصيره، زادت حمية المدافعين بعد انهيار الثقب الثاني بالسور، فأصبحوا يدافعوا باستماتة خوفًا من الانهيار الكامل، يدافعون من أجل تأخير اندفاع المصريين، بينما تجهزت ميمنة الجيش المصري بالكامل، ثم ظهرت أصوات البوق ليدوي إعلانًا بالهجوم، تقدمت الفرسان رافعة دروعها وخلفهم جنود المشاة، رجال يجرون عربات التحطيم، جنود تسقط بالنبال، أرواح تزهق ودماء تختلط بالرمال لتعطي لونًا آخر للحياة بكل ما فيها، أمطار من السهام تتساقط وتزيد على الجبهة اليمنى للقوات المصرية، بينما أخذ قلب الجيش وميسرته في زيادة معدل القذف على البلدة وعلى المواقع المدافعة لتغطية القوات، اشتد القتال من الجانبين في وقت ظهر من أقصى يمين البلدة ومن خلف السور العالي مجموعة من الحمام الزاجل الأبيض يخرج من إحدى الغيات يرفرف بجناحية بقوة في السماء في

مشـهد بديـع يناقـض تمامًـا واقـع الحـال مـن الناحيـة الأخـرى للبلـدة.

صاح حسن

- الآن جاء دورنا، ثم نظر إلى يحيى مبتسمًا، جاء موعدك الآن.

كانـت القـوات المصريـة قـد اقتربـت مـن السـور وبـدأت القـوات المدافعـة في إلقـاء الزيـت المغـلي والزفـت عـلى الجنـود، البعـض يحـترق، والآخـرون يناضلـون للوصـول إلى أسـوار المدينـة دون الحيـاة، العربـات المحطمـة في طريقهـا لا يوقفهـا شيء، مغطـاة بالـدروع التـي أصبحـت ممتلئـة بالأسـهم الملقـاة مـن أعـلى، تقدمـت أولى العربـات للاصطـدام بالسـور، ويعلـوا الهتـاف، تـزداد الحميـة، وقـوات الـروم مـا زالـت تبحـث عـن أي محاولـة لإيقافهـم، يحتشـدون عنـد الفتحـة محاولـين إيقـاف الزحـف الـذي أصبـح عـلى بعـد أمتـار مـن مدينتهـم، أصبـح الطريـق لأول مـره خاويـا ليحيـى ورجالـه، أصبـح الظـرف مناسـبًا لتسـلق السـور، اندفعـوا مـن الغابـة يعـدون للوصـول إلى نقطـة انطـلاق الحـمام ناحيـة السـور الشرقـي، وقـف السـلحدار أعـلى القلعـة يتابـع الهجـوم، ليجـئ إليـه أحـد حراسـه في حالـة مـن الذعـر صارخًـا...

- القـوات المصريـة اخترقـت الجانـب الأيـسر مـن سـور المدينـة يـا مـولاي.

- ما موقف قواتنا؟

- القوات في حالة انهيار، يجب أن نرحل.

- لازال هناك أمل، سننتظر التعزيزات.

- سيدي، قد تسقط البلدة في ساعات.

أخذ السلحدار يطيل النظر بين القوات العثمانية وهم يقاتلون، يري القتلى يتساقطون، يرى الوهن قد دب في جنوده، فلول من الجند يرتد من الجانب الأيسر محاولًا النجاة بحياته، فيقوم بالنزول من موقعه العالي الكاشف للمعركة وخلفه حارسه حتى وصل إلى غرفة ابنته، يدخل ويعطي أوامره للحارس لتجهيز الجياد لرحيلهم، وان يعد ما يلزم من أمتعه وطعام إن سد الجيش المصري عليهم الطريق، يدخل على ابنته فيأمر الخدم بجمع كل ما هو قليل وقيم، يسأله الحرس عن واجهتهم، فيأمرهم بالتجهيز للصعود إلى جبل أرجياس ناحية قيصرية الروم للاحتماء من القوات المصرية التي تطمع في مزيد من الانتصارات وقد تهاجم باقي المدن وصولًا إلى القسطنطينية، انصرف الحرس لتنفيذ الأوامر بينما كانت الجهة الشرقية تشهد حراكًا بطئا مشوبًا بالحذر، فقد وقف رجلان بجوار إحدى النقاط بالسور يتطلعان فيما حولهما، ثم ظهر أحد الأحبال يليها

ثـاني فثالـث، وبعـد فـترة ظهـر يحيـى ورفاقـه وهـم يتسـلقون السـور أيمـن البلـدة، ينزلـون مـن بـرج الحراسـة الـذي غـاب حارسـه عنـه لسـبب غـير معلـوم.

أخـذوا يتسلقون السـور تلـو الآخـر، حتـى اجتمعـوا أعـلى آخر أسـوار المدينـة، ثـم عـبروا الـبرج منـه إلى أحـد السـلالم الحجريـة التي كان ينتظـر فيهـا أحـد العربـان المعاونـين لهـم، والـذي سبقهم بدخـول المدينـة قبـل الهجـوم بيـوم واحـد، تجمعـوا جميعًـا أسـفل السـور، أخـذ يحيـى يتطلـع إلى القلعـة التـي لا تبعـد عنهـم أكثـر مـن مئـة قـدم، لابـد أن الميعـاد قـد حـان للقـاء، يقولهـا في نفسـه، يسـتلهم بهـا شـجاعته، يسـتحضر شـوقه، لاحـظ أحـد الحـراس يقـف عـلى إحـدى مداخـل القلعـة الجانبيـة، يتطلـع فيهـم، لكنـه لم يتحـرك أو يبـادر بالهجـوم، أسرع الرفـاق، كل يجـري وراء زميلـه حتـى وصلـوا إلى سـور القلعـة، مـا أن اقـترب حتـى أدرك أنـه نفـس الإعـرابي الـذي قـام بزيارتهـم بالغابـة قبـل أيـام، مـا أن اقتربـوا منـه حتـى سـار وفتـح إحـدى البوابـات الحديديـة الصغـيرة التـي كان يحرسـها، وظـل واقفًـا مكانـه دون أن يتحـرك أو يشـير إليهـم بـشيء، دخلـت المجموعـة مـن البوابـة الحديديـة وآخرهـم حسـن، الـذي اسـتلم مـن الإعـرابي مخطوطـة صغـيرة تحتـوي عـلى رسـم تفصيـلي للقلعـة، أتـم الإعـرابي المهمـة بنجـاح ثـم قـام بنفـس الهـدوء بغلـق البـاب مـن جديـد، وظـل مكانـه ليؤمـن خروجهـم.

كانت القلعة من الداخل تشبه المغارة الصخرية، أسوارها عبارة عن حجارة كبيرة يخرج من بعضها العشب الجاف، جسد حجري ضخم، يقف على ربوة مرتفعه لتزيد من رطوبة الصخر، تجعل حجارته في حالة تعرق مستمر، أهنا يحبس هذا الكلب زوجتي؟ قالها وهو يتوعد يود قبل أن يجد زينب، أن يلتقي بالسلحدار ليصفي ثأره الذي أرقه كثيرًا، فتح حسن الخريطة وبدأ في قراءتها، كانت زينب تقطن بالبرج الشمالي بناء على آخر معلومات حسناء والأعرابي، لكن المرور إلى هناك يلزم المرور أولا من وسط القلعة حيث حرس السلحدار، كان الأمر لا بديل عنه، سار الرفاق جميعهم إلا اثنين وقفا عند السور ليؤمنا طريق العودة، التزم يحيى بخط السير وإن عرج بضع مرات إلى إحدى الطرقات للتخفي أو الاختباء، كلما سمعوا صوتا قادما نحوهم حتى سارا أسفل المنطقة الشمالية من البرج، لم يجدوا بالساحة في وسط القلعة أيًا من الحرس، بات اللقاء قريبًا، اندفع يحيى بكل شوقه داخل البرج الشمالي، وخلفه أصدقاؤه، سيفه في يديه وعلامات الترقب على وجهه حاسمة، لقد جاء ليقتل كل من يقف في طريقه، لحظات وظهر صيحات الجند قادمة من آخر الممر، لا شيء سوى صدى أصوات، الكل مشغول بالتعبئة للهرب، ما أن دخل البرج من أسفل حتى مشى في ممر ضيق قليل الضوء،

ينتهي بساحة دائرية، ما أن اقتربوا من الساحة، حتى وكأن بركانًا قد فاض بكل ما فيه فلم يدري بنفسه وهو يشهر سيفه ويقفز بين السلام الحجرية يتحدى أي كائن ما كان يواجهه، وخلفه أصدقاؤه يحاولون اللحاق به حتى وصلوا إلى أعلى مرتبة بالبرج، فأخذ يتلفت يمينًا ويسارا لمعرفة موقع الزنزانة إذ بصوت يأتيه من الجهة المقابلة صائحًا...

- من أنت؟ عرف نفسك؟

التفت يحيى فرأى اثنان من الحرس يهرولان مسرعين ناحيته، كلاهما ممسك بسيفه، وخطوات الحذر تؤكد استعدادهما للهجوم، كانت نظرات يحيى لهما توحي بألف معني، ظل واقفًا في نهاية الرواق وهو يراهما يسرعان ناحيته، الأول يشير بيده أن يتوقف والثاني خلفه يغطي ظهره، ما أن صارت المسافة قريبة حتى طاح مندفعا نحوهما، تلقى الضربة الأولى بسيفه، فقام بصدها والعياء خلفه، تصاعدت الأصوات وظهرت أصوات من بعض فتحات الرواق، ما أن رأى الحرس أعداد المهاجمين حتى فرا مندفعين، ظلا يركضا حتى وصلا إلى آخر الرواق عند ساحة عريضة تشبه الصحن غير المغطي، وفجأة خرج ستة حراس آخرين من غرفة آخر الرواق يسارًا، وبدأ القتال، صراع البقاء، أخذ يضرب يحيى ويصد

كـما لم يـضرب مـن قبـل، لم يعـد الأمـر مجـرد لعـب عيـاء لحسـن ورفاقـه، فقاتلـوا كـما لم يتخيلـوا يومًـا، بينـما يحيـى في قمـة غضبـه، يـضرب بسـيفه ويرفـص بقدمـه، ثـم يـضرب باليـد الأخـرى أقـرب مـا تطولـه يـده، العيـاء في معركـة حقيقـة لا تقـل حميـة عـن قتـال الجيـش خـارج أسـوار البلـدة الـذي تصـدع جـزء كبـير مـن يسـاره ودخـل الجيـش المـصري يقاتـل داخـل البلـدة وجنـود الـروم يفـرون، يلهثـون مرعوبـين هجـوم الجـراد يطيـح بحصـون الـروم، بتلـك البلـدة بـات الطريـق إلى القسـطنطينية مفتوحـا للجيـش المـصري ولا يوجـد أي مانـع يعيقـه.

انتهـي القتـال وفـاق يحيـى مـن غيبوبتـه يتأمـل ويسـترجع مـا حـدث، قطـرات الدمـاء تنـزل مـن سـيفه الـذي اتـكأ عليـه، يلتقـط أنفاسـه المتسـارعة، بعدمـا أغمـده في صـدور أعدائـه، أبيـد الحـرس جميعًـا، وقتـل أحـد العيـاء، أصيـب حسـن الجنـي بجـرح غائـر في صـدره وهـو يصـد ضربـة كانـت تنـزل عـلى ظهـر أحـد رجالـه، أمسـك بحرجـه الغائـر وحـاول البعـض أن يسـنده لكنـه شـاط كل الأيـادي التـي تقدمـت لمسـاعدته، بـل وقـف بفخـر ممسـكًا بسـيفه في يمينـه ممسـك عـلى جرحـه بيسـاره، كان دوي الـصراع عاليًـا، فجـأة ظهـرت حسـناء مندفعـة إليهـم، تقدمـت نحـو الجنـي تقبـل يديـه التـي تمسـك بالجـرح، لم يـرد تلـك اليديـن بـل تركهـا تمسـك عـلى

جرحه وهو يبتسم لها بحنو، تقدم يحيى إليها متلهفًا فبدون أن يسأل أشارت بيديها مبتسمة ناحية الرواق التي خرجت منه، ثم أعطته مفتاحًا كبير الحجم، مفتاح زنزانة صدئ، اندفع يحيى تاركا كل من حوله ليدخل الرواق دقات قلبه تعلن عن قدومه، أخذ يمشي حتى ظهر له ملامح باب في نهاية الرواق، شب متلهفًا ومد يديه ليدخل المفتاح، زئير الباب الموصد أشبه بالوقوف أمام باب الجنة، كيف يفتح هذا الباب اللعين، قالها وهو يجاهد ليفتح الباب، صوت الباب أفاق زينب المتهالكة، لحظات بسيطة تجعلها تفيق من غيبوبتها، صوت الباب أفاقها جعلها تفتح عينيها، تكاد لا ترى شيئا، فعينيها لا تقوى على الاستقرار أو تمييز الأشياء، لكن ظهر لها طيف من بعيد يقترب منها حتى كاد أن يظهر لها، إنه طيف يحيى هذا، قالت لنفسها، ابتسمت ابتسامة تؤنس بها نفسها، أخذ الطيف يقترب وهي لا تريد أن تقوم بأي حركة حتى لا تفيق فينتهي كل شيء، لم تدرك أنه اليقين إلا عندما ارتمى يحيى ليجلس بجوارها، بدأت تحس بأطرافه تمسك برأسها، يرفعها إلى حضنه في رفق، يضمها بقوة ثم يقبل رأسها، لحظات إفاقة، جاءها الوعي ليعود بها إلى الدنيا من جديد، عودة الروح إلى الجسد العليل الذي بقي يناضل فقط أملا في تلك اللحظة، أخذ يحيى يقبلها ودموعه تنهمر تنزل على وجهها، فتروى

روح أهلكها العطش، أفاقت كزهرة آن لها أن تتفتح، عادت لها الحياة، أخذت تحضنه وهي تبكي وهو يمسح على وجهها ويقبلها، تمسك بيده ليتحسس موضع الجنين فيبتسم، ثم تقبله فتتحسس أنفاسه، لتتذكر آخر لقاء جمع بينهما بإسطبل السلحدار.

خرج يحيى حاملًا زوجته وهو يعدو بها حتى وجد الرفاق ينتظرونه ويراجعون عدتهم وأسلحتهم، وقف وسطهم يتطلع فيهم وبشيء من الغضب تساءل.

- هل علمتهم مكان السلحدار؟

كان حسن قد ضم جرحه بقطعة من القماش أخذها من رداء حسناء وقد بانت عليه معالم الوهن فأجابه.

- لقد فر مجددا يا يحي.

استشاط غيظًا ولمعت عيناه، كم يود لو أخذ ثأره منه، إلا أن يد زينب التي مسحت على وجهه كانت كفيلة بأن ينسى كل الغل الذي كان بداخله، كان صوت الجنود المصريين قد وصل إلى القلعة، فقرروا أن يرحلوا من نفس المكان الذي قدموا منه، فأخذوا يسيرون حتى وصلوا إلى المخرج الحديدي ليجدوا القوات المصرية في كل مكان، لقد سلمت

المدينة بأكملها في ساعات، فلم يجدوا أي فرصة للنجاة فآثروا الاستسلام والسلامة للقوات المصرية التي انتشرت في كل أركان البلدة، ودخلوا إلى القلعة التي كان يحتمي بها السلحدار للبحث عن مخازن السلاح، بينما أخذ يحيى يسير باحثًا عن مأوى ليسكن فيه زينب العليلة ويسعفها طعامًا وحبًا وحنانًا، فلم يجد سوى جامع يدعي هوناط هانون، فدخله ليمنح زوجته بعض العناية التي فقدتها منذ شهور.

سيطرت القوات المصرية على أضنه وقيصرية في أيام معدودات، كسرت ثلاث حملات للقوات العثمانية التي لم تعد تمتلك لا العدد أو العداد لمواجهات أخرى، بات الطريق إلى القسطنطينية مفتوحًا، لم يعد لدى بايزيد الثاني أي أحلام للزعامة الإقليمية بعد تلقيه الهزائم تلو الأخرى، ارتاح يحيى ورفاقه أخيرًا بعد عناء، بضع أيام بعد شقاء شهور، تعافت زينب وعادت الحياة إلى وجهها المنتفخ من أثار الحمل، باتت على وشك الوضع، شعور الأمان حل عليها وعلى زوجها، لعلها تكون آخر الأيام المؤلمة، أيام عانت فيها كل أنواع البطش، لأول مره تشعر أنها حرة، فلم يعد لها مالك يمسك بصك عبوديتها ليفعل بها ما يشاء، فقط هي ويحيى وطفل في أحشائها على وشك وضعه لينعم بحياة هو الآخر كريمة،

أيضًا يحيى عاد المرح إلى وجهه، تلك الابتسامة التي اختفت منذ زمن، ابتسامة حنونة تراها زينب فتنسي كل ما رأت.

اتخذ الجند من قيصرية معسكرًا لهم، فارتاحوا بعد القتال، وباتوا أكثر هدوءًا ومرحًا، تناسوا الحرب والضرب وباتوا كما كانت عادتهم يتجادلون ويتخاصمون في تقسيم الغنائم، ظل يشبك قائد الحملة يتابع أي تحركات أو تعزيزات لجند الروم، فكانت تأتيه الأخبار بانعدامها، ذلك بعد أن أيقن بايزيد الثاني أن أي اندفاع بالبقية الباقية من جنده قد يكلفه عرشه، فاطمئن الجند وبدأت الخلافات تدب فيما بينهم، فكعادتهم لم يلتئموا أو يحفظوا أي قاعدة من قواعد الامتثال للأوامر المتعارف عليها داخل الجيوش النظامية، بل فضح البعض بنواياه وباتوا يتساءلون عن أسباب وجودهم بعيدا عن مصر، أخذوا يتحدثوا بين الصفوف إلى أن وصل الأمر إلى قائد الجيش، فاجتمع المماليك في حالة من الفوضى لمعرفة مصير الحملة، بات الخلاف أن يؤدي إلى معركة داخل الصفوف المنتصرة، وبات الأمر محفوفا بالمخاطر إن ظلوا هكذا طويلًا، فإما يتقدموا وإما ينسحبوا، بعد مراسلات وخلافات تقرر عودة الحملة بعدما حققت مكاسبها وأحبطت خطة الروم في غزو الأراضي المصرية.

لم يعلـم يحيـى شـيئًا عـن انقسـام الجنـد، فقـد كان مشـغولًا بتمريـض حبيبتـه، كان يجلـس بجوارهـا في خيمتـه يشـاهدها وهـي ناعسـة، لكـن صـوت الضجيـج والجدال كانـا أعلى مـن أن يتجنبـه، كان النقـاش في حميتـه ينـم عـلى كارثـة قـد تحـدث داخـل جيـش يبعـد آلاف الأميـال عـن قاعدتـه، خـرج لـيرى الحشـود التـي أبـادت عدوهـا، تتحفـز للقـاء بعضهـا البعـض، أحـزاب تجمعـت، كل عـلى حسـب مصلحتـه، رأى علامـات التمـرد تنهـش القلـوب، فسـار حتـى وصـل إلى صديقـه طومانبـاي الـذي كان يقـف بالقـرب مـن القائـد يشـبك مـن مهـدي، يقفـون عـلى تبـة وتحتهـم الحشـود كالنمـل يهـم للانقضـاض.

حـاول الأمـير يشـبك أن يهـدئ الجنـد، كان يتحـدث إلى الجمـع، يعـرض عليهـم مـا جـاءه مـن السـلطان قايتبـاي الـذي أمـره بالبقـاء والاسـتعداد للزحـف نحـو العـدو إلى عقـر داره، لكـن الجمـع كانـوا يصيحـون فيـه، وقـف أحـد المماليـك القائمـين عـلى الشـام يتسـاءل عـن مكافئـات الأمـراء والبعـض يصيـح أيـن النفقـة؟ البعـض منهـم أعـد عدتـه للعـودة، بـات القتـال وشـيكًا والغـدر في عيـون القـوم، لم يتمالـك نفسـه، لم يـدر يحيـى بنفسـه إلا وهـو يصيـح بـكل مـا أوتي مـن صـوت عـال.

- يـا قـوم، قـد نكـون أول جيـش سـيذكره التاريـخ قـد تـرك عـدوه وهـو عـلى حـدوده وتقاتـل مع بعضـه البعـض، مـا أراه إلا حميـة المماليـك ونسـيتم عـزة وطنكـم.

مـا أن انتهـى مـن حديثـه حتـى تعالـت الأصـوات الرافضـة، هجـوم مـن كل جانـب، البعـض يسـخر منـه وآخـرون ينصتـون بـلا أي اهتـمام، لم يقـو صوتـه عـلى رفـع الهمـم، كانـت النفـوس قـد طمعـت بالمكاسـب فقـط، نـزل مـن مكانـه منكسـرًا، تـوارى بـين الجمـع، والبعـض يتغامـز عليـه، يعايرونـه بأنـه قـدم لإنقـاذ زوجتـه ولا يحق لمثلـه أن يحثهـم عـلى أي عمـل آخـر، فقـد الامـير يشـبك وطومانبـاي السـيطرة عليهـم، وبـدأ الجنـد للتجهيـز للرحيـل، فـكل حـزب مـن أحـزاب المماليـك أخـذت تعـد عدتهـا للتوجـه إلى ديارهـا، لم يسـع يشـبك إلا أن يـترك مجموعـة صغـيرة مـن حـرس الشـام بقيصريـة لتبسـط نفوذهـا عـلى حـدود الدولـة مـع الـروم، تطايـرت الأخبـار حتـى وصلـت إلى السـلطان في قلعتـه، فاستشـاط غضبًـا ولكـن لم يسـعه إلا أن يقيـم الأفـراح والليـالي المـلاح احتفـالا بالانتصـار الـذي لم يكتمـل للنهايـة، عـاد الجيـش مـن حملتـه تتقدمـه أعـلام النـصر، فدخـل المحروسـة في مشـهد مهيـب وسـط بهجـة واسـتعراض للقـوة، كان قايتبـاي في انتظارهـم، ولكنـه لم يكـن ذلـك السـلطان الـذي عرفـوه مـن قبـل،

فقد تعرض أثناء غياب الجيش لحادث سقوط من على فرسه، أدى إلى كسر في قدميه، إلا أنه تحامل على نفسه للقاء جيشه المنتصر وإن بانت عليه معالم الضعف، دخل الجيش في احتفال وأخذ يدور الشوارع العامة، والشعب يحيه وبينهم يحيى راكبًا جواده، يمسك برضيعه في يده، حسن، التي أصرت أمه على تسميته تيمنًا بريس العياء، وخلفه زوجته تسير خلفه في ركابها ورجال العياء الذي حملوا حسن الجني على محفة إثر إصابته وهو مدد إثر الحمى، ليعود الحبيبان مجددا إلى نفس الأرض ونفس الأماكن التي جمعتهما، لكن الآن دون قيد أو دون السلحدار الذي ولى الأدبار ليلحق بالجيش المهزوم إلى القسطنطينية، لينقطع دبره من أرض مصر لينعموا إلى حين.



13

النهاية

دارت الأيام والسنون على المحروسة، وتوالت فيها الأحداث، بينما ظل يحيى يمارس أبوبيته على ولده كما مارسها والده معه من قبل، فقد اكتفي يحيى بكل ما شاهد في الحياة وقرر أن يعود إلى وقف الروضة لينعم هو وأسرته بالحياة، تاركا كل ما في مصر من أحداث وعجائب تروى حولها آلاف القصص، حتى بركة الرطلي لم يعد يزورها كالسابق، كانت آخر زياراته لها يوم وفاة والده الشيخ زكريا، الذي توفي وحسن عمره عامان، فكانت ثاني قسمات الظهر ليحيى رغم النعيم الذي بات ينعمه، فقد كان من موت حسن الجني قبله الجرح الاول، فكانت وفاته فور وصوله إلى المحروسة أثر الجرح الذى أصابه فى موقعة القلعة، وكان حسن قد أوصى يحيى بأن يتولى أمر العياء من بعده، إلا أنه رحل عنهم قانعا» أن الزمن

لـن يعطيـه أكثـر مـا اعطـاء مـن عمـر ليعانـى مـا عانـاه، فجـاءت وفـاة والـده ليزيـد الفـراق بالعـوام الذيـن بكـوا عـلي الشـيخ كوالـد ومعلـم، بـل البعـض أحـس أن بركـة الرطـلى انقضـت بوفـاة مؤسسـها وهـو نفـس العـام الـذي تـوفي فيـه السـلطان الأشرف قايتبـاي، بعـد أن أثـرت إصابتـه في تدهـور صحتـه وصحـة البـلاد والعبـاد، فسـاءت الأحـوال وتحولـت في لمـح مـن الزمـان مـن حـال إلى حـال، فبعـد وفـاة السـلطان قـرر ألا يسـعى في الشـوارع كسـابق عهـده ولم يعـد لـه طلـة ببركـة الرطـلي، كـما لم يعـد يلتقـي بأخيـه صـلاح كالسـابق، بعدمـا صعـد إلى القلعـة ليكـون أحـد أنصـار السـلطان الجديـد وفي خدمـة خـال السـلطان قنصـوه بـن قنصـوه، تـرك كل شيء، وأصبحـت المحروسـة حلقـة للصـراع بـين القـوي المتضاربـة، فبعـد أن تسـلطن محمـد بـن قايتبـاي، بـدأ الغـلاء والفسـاد يـضرب البـلاد، ولم يكـن السـلطان الجديـد بقـادر عـلى فعـل شيء، فقـد كان شـابًا لم يبلـغ مرحلـة الرجولـة بعـد، وكان سيئ التـصرف في أحوالـه، فكان عربيـدا ولا يحـترم مقامـه، وكان يخالـط أبنـاء الهـوى والمجرمـين، بـل شـاع بـين النـاس أنـه كان يقـوم بأعـمال السـلب والنهـب معهـم كنـوع مـن المغامـرة، وبـات المماليـك يحشـدون لـه إلا أن قنصـوه اسـتطاع أن يحتـال عـلى الجميـع، وبعـد اضطرابـات وحـروب أهليـة عانـى فيهـا العامـة الكثـير مـن الفقـر والقهـر، ومصـادرة للممتلـكات إسـتطاع قنصـوه أن يطيـح بابـن أختـه وابـن السـلطان قايتبـاي، ثـم جمـع جنـده واحتـل بـاب

السلسلة، أهم أبواب القلعة الإستراتيجية وخلع الشاب المراهق وعين نفسه سلطانًا للبلاد، وبذلك تسلطن على مصر بعد قايتباي سلطانان في أقل من أشهر معدودة.

انتهى كل شيء، حتى بركة الرطلي التي كانت تنعم بالسكينة، وكان للشيخ زكريا فيها مقام العالم الأول، فبعد وفاته أغلقت مدرسته ولم يعد لها وجود، حتى تركت القمامة تلقى عند أبوابها وتنتهي الذكري العطرة، لم يطل الانهيار المدرسة، وحدها بل أصبحت بركة الرطلي ذاتها وكرًا للملذات والموبقات، وأصبحت أول أرض بالمحروسة يزرع فيها الحشيش، وتقام بها حانات البوظة، وليالي السكر، فأصبح العامة ينعمون بجهلهم وقلة حيلتهم كنعيم الظمآن الذي يروي من مياه مالحة لا تغني عن عطش.

كان حال المحروسة أشبه بحال بركة الرطلي، فأمراء قايتباي لم يرضوا بقنصوة، وعادوا للصراع مجددا إلى أن استطاعوا أن يحتلوا القلعة ويجلسوا محمد بن قايتباي ثانيًا على العرش، ويهرب قنصوه ليعود إبن قايتباى بكل سؤاته التي ذكرت من قبل ليحكم ثلاث أعوام تتكالب فيهم المصائب والشح على المصريين، حتى إنهارت البلاد، فلم يجد المماليك حلا سوي خلعه ليعود خاله مرة أخرى قنصوه لحكم البلاد، وتدور الأحداث سريعًا ويحيى يرى أن النهاية تقترب، خلال

تلك الثلاث سنوات لم يتدخل يحيى لا من قريب أو من بعيد بالسياسة، وانقطعت صلته بالقلعة. كانت تأتيه الأخبار تباعًا من صديقه طومانباي الذي دخل خضم الصراعات الأهلية بين المماليك، وتمر الأعوام خلال خمس سنوات حكم أربعة سلاطين من بينهم من حكم ثلاثة أيام فقط، وفي كل مرحلة لانتقال السلطة غير السلمية كان العوام هم من يدفعون الثمن بفرض الضرائب الجديدة، كل هذا يراه يحيى فيتحسر ويحزن ويزيد شيئًا، فرأى أن الفلاحة ورعاية الغنم وتربية ابنه وتعويض زينب عما لحقها من الآلام أهم أهدافه في الحياة دونهما، بقت الدولة تتهاوى مع كل سلطان يتسلطن، وضاعت الحقوق وشح الخير ولم يبق للعامة إلا التحايل على الرزق، وكثر الغوغاء الذين أمنوا أن لا أمل في مستقبلهم فظهرت الفواحش، ولم يعد هناك أي قيمة تحترم، فزاد هذا من انهيار الوضع، لم يعد هناك حسن الجني ذلك الشاطر الذي اعتاد العوام على طاعته وكان بمثابة الأمل لهم، فبموته وتمنع يحيى عن الحل مكانه، اضطر رجاله إلى العمل في الموالد بعمل العياء من ضرب بالدبابيس والعصا، يتحسرون على اليوم الذي كانوا فيه رجالا يقاتلون ضد الظالم، يتذكرون مغامرتهم في بلاد الشام والأناضول بعد كل عرض يقدمونه للجماهير، يتحاكون وهم يمثلون للعامة عرضا» قتاليا» يقسمون لهم أنهم هم من فعلوا هذا قديما»، ولم يبق منهم مع يحيى إلا عليا

ومعه عبد السلام ليعملوا مع يحيى بالوقف، كل يوم يمر على الوطن يزداد الأمر سوءا، عما قبله وتزداد المآسي لتضعف الدولة.

ظل يحيى يتابع ولا يتفاعل مع شيئًا من الأحداث، بل كان يراها ثم ينظر إلى ولده الذي يشب أمامه وسط وطن محاط بالتصدع والانهيار فيتذكر والده وحكمته، يتساءل هل كان يحميه هو وأخيه من المماليك بإبعادهم، أم أنهما محاطان بكل ذلك مهما ابتعدا يظلان عالقين في وطن يئن من الفساد والمؤامرات، اعتاد طومانباي على زيارته، الذي ظل يحارب بالسياسة تارة وبالدهاء تارة أخرى حتى دانت له الدنيا بعد أن تسلطن خاله السلطان الغوري على مصر وأصبح هو دوادارًا للسلطان، وبات سبب مباشر في الحكم، فكان يذهب إليه من وقت لآخر يحكي له عما يصادفه من مؤامرات ومشكلات وما تمر به البلاد من تحديات أهمها الانهيار الاقتصادي الذي تلا اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وبذلك ظهر منافس قوي لطريق التجارة المصري الذي كان يربط آسيا بأوروبا، وكان يحيى يرد عليه بأن مشكلة أغلب السلاطين هو انغماسهم بالمؤامرات الداخلية ولا يحسبون أن كل حركة خارجية قد تكون الأساس المباشر للانهيار، فكان يحيى قد تحدث مسبقًا معه عن أزمة البرتغاليين وخطرهم على البحر

الأحمر، ولكن الغوري لم يكن كاقايتباي في شيء يذكر، فقد اختير للسلطنة من جانب المماليك الأقوياء الذين عجزوا عن تصفية بعضهم البعض، فقرروا أن يولوا أضعفهم الحكم حتى يتحن لأحدهم الفرصة لكي ينقض على الزعامة، فكان ينقصه كثير من القوة، والعزم لتوحيد الصفوف والرؤية للتحديث، من هنا علم يحيى علم اليقين أن الأمور ستنتهي بكارثة، فكان كلما تحدث مع طومانباي لا يخفي عليه ما يراوده من ظنون ويرد عليه صديقه، يسأله ما العمل؟ فيرفع يحيى عصاه التي يجمع بها غنمه ويقول له كلكم راعي وكل راعي مسؤول عن رعيته، فيتساءل طومانباي لكن كيف؟ فلا يجيب بل ينظر إلى النهر كما لو أنه يتجنب الحديث، حتى جاءه يوم فطلب منه بأن يقوم معه لرعاية الغنم، سارا معا كرفيقي درب، حتى توقف يحيى ثم أمسك بيد صديقه ووضع العصا بيديه، أمره بأن يهش الأغنام، فتعجب طومانباي من هذا الطلب، فأصر، فلم يجد طومانباي إلا أن ينفذ أمر صديقه دون أن يدرك ما وراء ذلك، اجتهد في جمع الأغنام حتى صاروا متقاربين، ثم أشار له يحيي إلى طريق المرعي فوحدهم حتى سارا إليه، وما أن انتهي حتى نظر إلى يحيى متسائلًا، إلا أن يحيى لم يعره انتباها بل أجابه، أنه لا يجب أن يشغل نفسه بشيء طالما يرعي غنمه، فلم يفهم طومانباي، فأشار له يحيي إلى إحدى الغنمات كانت كبيرة وتنقض على أخرى أصغر حجمًا منها، فأجابه بأنه دوره

أن يضمن للكل حرية المرعى، وأن يحفظ الصغير من الكبير، ويبسط يد الرحمة للغنم الضعيف أو المريض، حينها فطن طومانباي لمعنى الدرس.

أعوام وأعوام والرضيع صار طفلا، والطفل الصغير يكبر يومًا بعد يوم، والإمبراطورية العظمى في الشرق تتكالب عليها الأمم، البرتغال هم الخطر الأكبر أم هم الصفويون في بلاد الفرس، لا يعلم أحد من أين ستتأتي الضربة القادمة، لكن الأحوال من سيئ إلى أسوء، وفي كل ليلة يجلس يحيى بجوار الصغير بعد أن يضعه بالفراش ليقص عليه إحدى القصص عن عجائب وأخبار أخبره بها والده من قبل، أو عما رآه رأي العين من أعاجيب الكون، والتي لم ير مثلها إلا في مكان واحد مهما تغيرت الأزمنة وتغيرت الوجوه، تبقى دائمًا أرض العجائب التي تسير كما لا يسير غيرها، وعن أناس إن فقدوا إيمانهم بأنفسهم تطول بهم الغيبة، وتسوء أفعالهم وينغمسون في الفقر ومستنقعات الرذيلة، ولكن وثبتهم لا يضاهيها أحد من الأجناس، فيتساءل الصبي أسئلة تزعج الأب الذي ظل الشيب يزحف في رأسه، فيخبره أن للحديث بقية، هكذا ظلت حياة يحيى لأعوام، لا يخرج إلا لقضاء حاجة بعينها، أما الأخبار فتصله بانتظام من العوام عن طريق عليا وعبد السلام، فيحكون له على كل ما رأوا وما شاهدوا من

أوجاع أو نكات أو حتى شجار، يحكي له عليا كيف تشردوا العياء وضاعت أمالهم وباتوا يطوفون البقاع البعيدة بحثًا عن مولد أو فرح ليظهروا ألعابهم التي هزمت الروم من قبل في عقر دارهم مقابل قوت يومهم، يحملون ذكرى حسن الجني في ضمائرهم، يخشون أن يظهروها فيتكالب المماليك عليهم، فيجيبه يحيى بأن حسن مات وقد حلم باليوم الذي يأتي فيه ألف جني وجني ولكن متى؟ أهذا الجيل أم أجيال أخرى؟

أما زينب فقد بقت الشيء الوحيد الذي له طعم في الحياة ليحيى وابنها، أصبحت الواحة الخضراء التي يستظل بها يحيى، يسكنها ولا يريد سواها، يحمد ربه على اليوم الذي رآها فيه، يوم الغارة، يبتسم ويضحك أحيانا عندما تذكره بيوم حفل السلحدار الذي تنكر فيه يحيى، تؤكد أنها عرفته من أول وهلة ولكن دلالها منعها من الاعتراف، فينغمسا في نعيم الحياة لحين، قليل من الحب وقليل من الحنان وسط الأهوال المحيطة بهم، يأتيه طومانباي صديقه ليأخذه من واحته الناضرة الخضراء إلى صخور الحقيقة المؤلمة، فيحكي له عما يدور بالدولة من مؤامرات من بلاد الروم الذين عادوا بقوة سليم الأول والبرتغاليين بوثباتهم المدمرة والتي أطاحت بأهم مورد اقتصادي عندما أخرجوا للبشرية أكبر اكتشاف جغرافي أطاح بسيطرة مصر التجارية، يحكي له عن التفوق

الباهـر والتطـور العجيـب لأسـاليب السرقـة والنهـب بالبـلاد، فيجيبـه يحيـى أنـه قـضى عـلى سـلحدار ليولـد ألـف سـلحدار، أمثال خاير بك والغزالي بك وأبو الجود المحتسب الذي سرق كنـوزا وكنـوزا، وأخطرهـم الزينـي بـركات الـذي تغلـب عـلى أبـو الجـود وأخـذ منه منصـب المحتسـب وبـات أكثرهـم فسـادًا وغـلا عـلى العبيـد، تتـوالى الأعـوام، العـام بعـد عـام، تتغـير المواسـم، ويظـل الوضـع كـما هـو، أخطـار مـن الخـارج وفقـر وجهـل وفسـاد مـن الداخـل.

***

مجـرد أخشـاب جافـة، تلـك هـي أغصـان العنـب في الشـتاء بعدمـا أسـقطت كل أوراقهـا لتعلـن عـن مـوت وحيـاة، باختـلاف الأيـام والفصـول، يجففهـا الصقيـع إلى أن تعـود لتزهـر مـن جديـد، وقـف يحيـى صباحًـا ينظـر إلى الأشـجار الجافـة مـن شـدة الشـتاء ويتأمـل الطقـس البـارد الـذي قـد بـدأ يؤثـر في عظامـه التـي نخرهـا الزمـان، النيـل في الشـتاء لـه رائحـة أخـرى إن كان ياتـى مولـده كل عـام مـع عيـد النـيروز فى عـز قيـظ الحـر، لكـن فى الشـتاء فلـه رداء أخـر أكثـر غمومـا» وهيبـه، أخـذ يتابـع السـحب الكثيفـة وهـي تمـلا السـماء وتسـبح في الفضـاء اللامتناهـي لتعلـن عـن موسـم قـارص الـبرودة، هـذا الجـو يذكـره برحلـة الشـام، بـلاد الأناضـول التـي كانـت أهـم مغامـرة حدثـت لـه في شـبابه، يتذكـر الأحـداث

كما لو حدثت بالأمس القريب، يرى ولده وقد شب سريعا وهو يجمع الحطب المتساقط من الأشجار، يجمعها ويقسمها إلى حزمات خشبية ليحفظها من الرطوبة للتدفئة، بينما وهو يجلس يتأمل في لحظة سكون انتابته، سمع أصوات أقدام الخيل من خلفه تدب في الأرض، فرجع ببصره ليرى صديقه طومانباي قادم يعدو وخلفه ثلاثة من المماليك حتى توقفوا فنزل طومانباي وعلى وجهه علامات الضيق، قام يحيى مقتضبًا من مكانه ينظر إلى صديقه ولا يدري ما سبب قدومه ومعه رجاله، فعادته أن يحضر لوحده لينفس عن نفسه مع أعز أصدقائه.

التقا الصديقان وقد اتكأ طومانباي على صديقه يحيى أثناء سيرهما، يحاول أن يزيح حملا أثقل كاهله، فما أن جلسا عند حافة النهر حتى نظر له يحيى يتطلع للسؤال عن سبب زيارته بشيء من الريبة سائلًا...

- لماذا اليوم تبدو لي الزيارة غريبة؟

- اليوم جئت أسال عن صديق كي أساله العون؟

اقترب من يحيى متسائلًا

- ماذا بك يا أخي؟

- الـروم سـيهاجمون مـصر مجـددًا، قالهـا بعينـين زائغـة، مضطربـة.

- فبـادره يحيـي، كيـف هـذا أليسـت العلاقـة بـين السـلطان وسـليم الأول عـلى خـير مـا يـرام؟

- نعـم كانـت، ولكـن كل مـا سـبق كانـت مناورات، فقـد أمـد الدولـة بالخشـب الـلازم لإنشـاء سـفن حربيـة جديـدة بعـد خسـارتنا الفادحـة في البحـر الأبيـض مـن البرتغاليـين، بـل بعـث بخير قادتـه للسـفر مع السـفن المصريـة في الحملـة التـي خرجـت لمحاربتهـم بالمحيـط الهنـدي، سكت قليـلًا ثـم أكمل، كل هـذا كان ينـاور وأصـاب بذلـك، فقـد ضمـن غيـاب البحريـة المصريـة لمـدة شـهور طـوال.

اتـكأ يحيى عـلى جـزع الشـجرة الجالـس عليه يحـاول أن يـدرك حقيقـة الأمـر، يسـتجمع الكلـمات ثـم نطـق كـما لـو عـادت لـه الذاكـرة.

- إذن يجـب تأمـين حدودنـا الشرقيـة بـأسرع وقـت، يجـب تجميـع العربـان وضمهـم للتجريـدة.

- الأغـرب أن السـلطان نقـل كل مدافـع المملكـة للحـدود الشـمالية بزعـم أن البرتغاليـين قـد يسـتغلوا غيـاب الأسـطول البحـري ليهاجمـوا الإسـكندرية.

– هل هناك أي معلومة مؤكدة بذلك؟

– كلها اجتهادات حاشية القصر.

– إذن قواتنا ستدخل الحرب دون مدافع.

– على ما يبدو هذا.

– صرخ، لا يمكن، فالروم طوروا أسلحتهم وأن واجهناهم بالسيوف فسيحصدونا كالغلال في موسم الحصاد.

– هذا ما أخشاه، فالدولة أصبحت في وضع صعب، قالها وهو يتمزق ويديه ترتعش يحاول أن يمسك بها كي يسيطر عليها ولا يدري أهو الصقيع أم الحقيقة.

أخذ يحيى ينظر إليه ويفكر، يحاول أن يفيق من الصدمة ولا يدري الآن ما العمل، فأكمل طومانباي.

– لقد نويت أن أتخذ كل السبل للدفاع عن هذا البلد وأريدك أن تعاوني على ذلك.

لم يتوقع منه هذا الطب، فقد غطي الشيب رأسه ولم يعد يمتلك القوة أو الروح لأي شيء فسكت برهة ثم قال...

– أظنك تحتاج لسواعد الشباب من المصريين، هم خير مني.

- لذلك جئتك يا أخي، فلا يوجد مملوك قادر على جمع كلمة العامة سواك.

- أنسيت إني أول من خذلتهم بعد وفاة حسن الجني، لا أعتقد أنهم يريدوا أن يسمعوا مني.

- لازال اسمك يذكر كلما تذكروا أيام العياء... قالها عليّا الذي اقتحم حديثهما بانفعال، يذكرونك كلما تذكروا أن قله من المصريين حاربوا ببلاد الأناضول.

- ابتسم يحيى قائلًا، كما قلت يا صديقي من زمن وقد ولى، ثم توجه إلى طومانباي، أي نقطة اختارها السلطان للتمركز.

- لقد قرر أن يعسكر الجيش بمرج دابق بالشام.

- لا نمتلك الآن إلا الدعاء والاستعداد، وتذكر فأنت الآن الراعي، بذلك ستضمن العامة دون وسيط وسوف يكونون ساعدك الذي ستضرب به.

***

عادت الجنود، عادت مهزومة تزحف على المحروسة في تتابع، مشهد لم يراه المصريون من قبل، فلم يدخلوا الجند والمماليك كعادتهم بزينتهم البهية، بل عادوا بملابس مهلهلة بالية تنم عما ذاقوا من هزيمة، دخل الجيش المهزوم يجرون

أقدامهم غير قادرين على المشي أو حتى الوقوف، تلقاهم أهالي المحروسة بالدهشة ثم العويل والنواح، وقف يحيى الذي خرج أخيرًا من عزلته التي دامت سنوات يستطلع الوجوه وتعلو وجهه كآبه وحنق، دقات قلبه تنطق الما مما هو قادم، مشى يتطلع في وجوه العسكر حتى وجد أحدهم وقد تجمع حوله عدد من العوام يتساءلون عن أخبار المعركة، تقدم يحيى يسترق السمع وهو يرى الجندي يبكي ويتحدث بصوت مهزوم، يصف المعركة وعليه علامات الذهول، يؤكد أنه لا يدري إلى الآن كيف انهزم الجيش أمام الروم، أخذ يحكي عن وقائع المعركة ويؤكد أن الجيش المصري كان له السبق بالميدان وبالهجوم، كان يُلقي بالرمال على رأسه مؤكدا أن الجيش المصري كاد يهزم الروم، يصيح قائلًا إن ضرباتهم كانت أسرع منهم، ونبال المصريين كانت تحصد منهم بلا عدد أو حساب، فانهزمت ميسرة الجيش العثماني وكادوا أن يهزموا، ثم سكت قليلا وهو يتحسر، ثم أكمل، لكن الأمور تغيرت باستعمال المدافع الكبيرة التي لم يحسبوا لها جيدًا، فكان الدمار رهيبًا بصفوف المصريين حتى حدثت الخيانة وانسحب خاير بك وهرب بميسرة الجيش وتوالت الإشاعات لتؤكد الانهيار داخل الصفوف، ففي ثواني معدودة بعدما كان لهم الغلبة انقضى كل شيء وأصبحت علينا.

اقترب منه يحيى واضعًا يديه على كتفه متسائلًا...

- أتقول انسحب خاير بك بميسرة الجيش؟

- نعم يا سيدي، فقد انضم إلى العثمانيين

- وأين بقايا الجيش؟ أين السلطان؟

- لا جيش، ولا سلطان، فقد قتل السلطان، سقط من فوق فرسه وغاب بين أقدام الخيل.

كانت الأخبار الواردة كفيلة بأن تهد جبل المقطم، فنزلت على يحيى كالصاعقة، دكت كل عروش عقله وفرائسه، لتقضي على باقي الشعيرات السوداء برأسه، سقط جالسًا بجوار الجندي وهو ينظر إلى الوجوه المتألمة، وجوه اصطفت ليتحدثوا وهم يخبطون الأكف، يتهامسون حول مصير طالما كان سؤالهم عنه بلا إجابة، لم يطل النظر للعامة فأخذ يسير في المحروسة وهو يرى الذعر والرعب يملأ الوجوه من حوله، حالة الفوضى والهرج تضرب كل مكان بالمدينة، تذكر يحيى رسالة الروم للسلحدار التي قبض عليها أيام الشباب، ما جاء بها من ضرورة إحداث الفوضى قبل دخول القاهرة، ظل يسير بين الحواري والربوع يبحث عن شيء لا يعلمه، تائه الخطي، حائرًا لا يدري أيعود إلى معزله بالوقف ينتظر مصيره كغيره من العامة أم يرحل، لكن إلى أين؟ ظل يسير حتى جاءه

صوت صراخ وصياح علم من خلاله أن هناك قتال عنيف بخان الخليلي، فقد ذهب بعض المماليك المنهزمين بمجرد دخولهم إلى القاهرة فقاموا بقتل ونهب التجار الروم انتقامًا منهم علي هزيمتهم، بينما حاول الأهالى نجدتهم فرأى الصراخ والعوام وهم يهرولون، ظل واقفًا لبرهة مأخوذا مما يراه، أخذته أقدامه حتى أعتاب القلعة فصعد إليها دون تفكير أو تدبير حتى وصل إلى بوابة السلسلة فرأى الحرس متأهبين، مذعورين هم الآخرين، حتى اقترب منهم طالبًا لقاء الأمير طومانباي، لم يهتم أحد بسؤاله، لم يصحبه أحد للدخول، دخل وحده ليجد القلعة خاوية لا أثر لأي استعدادات كما لو أن العسكر قد رحلوا، هربوا حتى من الموقع الوحيد المحصن بالمدينة.

صعد يحيى حتى التقي بالحرس المكلف بمصاحبة نائب السلطنة فطلب منهم لقاءه فسمحوا له بدخول قاعة السلطان، فوجد طومانباي جالسا على العرش وحوله بعض المماليك الذين عادوا بمجرد الهزيمة ليجتمعوا معا لدراسة الوضع، دخل يحيى وسطهم وهو ينظر إلى طومانباي الذي بات محتارًا، كما لو توه قد أفاق من كابوس ليلة صيف حارة، الصهد والعرق على وجهه، ينظر إلى الوجوه ويتطلع الآراء دون أن يتحدث، فجلس يستمع إلى حديثهم عن وسائل الدفاع

وبينهم الأمير جان بردي الذي كان يحاول أن يقنع طومانباي بتحصين القاهرة وانتظار الروم فيها،لم يستطع طومانباي الرد، فقط أشار لهم بالانصراف طالبًا الإنفراد بصديقه يحيى، خرج الجميع فنزل طومانباي من على عرشه وجلس على عتبتة، المكان الذي يضع عليه قدمه عند جلوسه على هذا الكرسي الذي كان سبب البلاء لكثيرين، استند بظهره على عرشه ينظر إلى صديقه بألم.

اقترب منه يحيى حتى جلس بجواره، لا يدري أيترك الصمت يقتلهما أو يترك الحديث ليزيد من الهم لكن طومانباي كان أسرع منه في الحديث، فبصوت يحمل كل هموم الكون وما فيه بادره...

- أظنها النهاية يا يحيى.

- حتى وإن كانت، فيجب أن تأتي ونحن ثابتون.

- أتعتقد أننا قادرون على كسر الروم أو منعهم من دخول القاهرة؟

- لا وقت للتكهنات، نحتاج إلى عمل جاد وشاق من الآن.

- أريدك بجواري يا صديقي في تلك النهاية، أريدك أن تطوف بين العوام لجمعهم، لم يعد لمصر إلا أهلها.

سكت قليلًا يحيى، لا يريد أن يثقل على صديقه، لكنه لم يجد سبيلًا إلا الحديث...

- سأفعل، لكن هل اخترت موقع المواجهة القادمة؟

- كل الآراء تقود إلى الريدانية، حيث نستطيع أن نعوض النقص العددي بحفر الخنادق وتدعيم مراكز مدافعنا، فقد أمرت بسحبها من الحدود الشمالية لإدخالها المعركة.

- اليوم سأعود أنا وأسرتي إلى بركة الرطلي، سنعمل جميعًا بين العامة.

قالها وانصرف يحيى وقد دبت فيه روح الشباب من جديد.

***

دخل يحيى بن زكريا القلعة من باب العزب، نفس البوابة التي قابل فيها قايتباي لأول مرة وهو شاب يافع يملاؤه الطموح والعزة بالنفس، اليوم يدخله وهو أحد خاصة السلطان طومانباي بعدما اعتلي عرش خاله وسط إستهلال الشعب بذكر سيرته الطيبة بينهم، فوسط المحنه فرح العوام به وإستبشروا بالنور وسط الظلام، فاعتلي هو أيضا منصب والده القديم. وقف يحيى ثم التفت إلي الخلف يتأمل المنظر من حوله، القاهرة أمامه لوحة فنية بكل ما فيهما من مسجد

السلطان حسن بن قلاوون وحدائق البرك ومسجد أحمد بن طولون واقفًا بعزة فوق جبل يشكر، مآذن تتجلى وسط النهار، ونمل يزحف يسعى كل وراء عيشه، ما أغرب ما فيه، هكذا يحدث نفسه، فقد اعتلى نفس المنصب الذي تنحي عنه والده منذ عقود يصعد ليحمل على كاهله ما لم يكن يتوقعه أو يتصوره، ما بين قايتباي صديق والده وطومانباي صديقه سنوات تحولت فيها المملكة من حال إلى حال، فلو قدر الله لهذا الوطن أن يجد من يصونه بالعدل، من يصونه بالعلم ينير به العقول الغائبة، لما وصل لهذا، إن كان لها جيش موحد على قلب رجل واحد ينتمي لوطن لا ينتمي لأحد لكان الحال تغير كثيرًا، لكان المشهد اختلف، لم يعد ليحيى سوى الصعود للقلعة ليكتب بيده مصيره هو وصديقه.

ما أن دخل القاعة حتى وجد طومانباي يقف وحيدًا يتطلع خلف نافذة تشرف على منظر القاهرة يتأمل هو الآخر حاله وحال دولته وما وصلت إليه، فقد رفض السلطنة وتمنع أشد التمنع لكن الأمراء أصروا، فلن يرضى أحد أن يقود سفينة تجرفها المياه إلى هاوية محققة، أصبح سلطانا لعدد غير قليل من الجواسيس والخونة يتلقون أوامرهم من سليم الأول وليس منه، كيف وصل الفساد إلى هذا الحد؟ كم من الوقت يحتاجه الفساد لزرع كل تلك الخونة

داخل قصر الحكم؟ الغزو قادم وعليه أن يتحلي بالشجاعة، وقف يحيى خلفه ينظر إلى صاحبه الذي نظر إلى السماء داعيًا الله عز وجل، سمعه وهو يناجيه، يا رب ألهمني الصبر، يا رب ثبت قلبي وامددني بالشجاعة لمواجهة مصيري.

- اللهم آمين، قالها يحيى مقاطعًا صديقه، ليقطع حالة الشد والجذب التي قد تفقده عقله.

فالتفت إليه طومانباي مبتسمًا بشيء من المرارة...

- لم يبقَ إلا أنا وأنت يا صديقي.

- الجميع تركها ولم يبقى غيرنا.

تقدم ليقف بجواره محاولًا أن يخفف عنه أو أن يخرجه من حالة البؤس التي عليها فسأله...

- هل من أخبار عن الروم؟

- جاءتني اليوم رسالة سليم الأول، يطلب فيها التسليم مقابل أن أحكم مصر تحت اسمه، يذكرني بأصلي الشركسي، يقول فيها إني مملوك الأصل ولا علاقة لي بهذه البلد.

- وما هو رد مولاي؟

- نعم أنا مملوك الأصل، لكني مصري، هذه الأرض من جعلت مني عزيزًا.

– أعلم يا أخي، فالأصل لا يجب الهوى، والوطن هوى ومشاعر وذكريات لا يمكن أن يشعر بذلك إلا لأصحاب البصائر.

– نعم سأبذل كل عزيز وسأزود عندها حتى آخر نفس.

– ماذا عن الداخل؟

– لقد أمرت اليوم بحبس الزيني بركات، هو أحد رجال سليم، وسأخرج المال الذي سرقه لإعداد الجيش، تعلم أن الغوري أضاع الخزانة السلطانية عندما أخذها معه إلى المعركة، فكانت هدية مجانية لسليم، ولم يعد لدينا المال اللازم لتجهيز أي دفاع.

– لقد مررت على العامة منذ أمس، وبعثت لأهالي زينب زوجتي بالصعيد، فسوف يحضرون للذود عن القاهرة، هم من الهوارة وبعضهم من بنى هلال، رجال أشداء، وقد أبلغوني أنهم قادرون على جمع الكثير من الرجال.

– يبقي الأمراء، وهم أصعب جانب، فلا نضمن جانبهم، ثم سكت قليلًا لكن لا مفر من استخدامهم.

– يبقي أهم شيء، المدافع يا طومانباي.

- لقد أمرت بتحضيرها، كما أنشأت جماعة تستخدم الرصاص، هؤلاء حاول الغوري إستخدامهم من قبل، لكن مدافعنا أثقل من مدافعهم لذا سيصعب المناورة بها.

- ما الحل إذن؟

- دعني إريك؟

أشار إليه فمشيا حتى كرسي العرش فتعداه ورفع الستار وراءه ليكشف خريطة تجسيمية مصنوعة من الرمال المتماسكة فتحدث وهو يشرح له قائلًا...

- سنحفر خندقًا من الجبل الأحمر ووصولًا إلى المطرية، وبذلك سيفقد سليم الأول التفوق العددي، وسنضع المدافع والمجانيق في تلك النقاط، بالتالي سنغمر العدو بوابل من النيران تعيننا على الكر من خلف الخندق ثم العودة له مرة أخرى عند الحاجة.

- هذا آخر خط دفاع لنا، لا بديل إلا النصر إلا فقدت مصر حريتها لقرون قادمة.

- ليس مصر وحدها، فإن سقطت ستدخل الأمة العربية بأكملها في تيهه إلى أن يشاء الله.

***

وقف يحيى بالريدانية ينادي في جموع العامة الذين تجمعوا بدعوته إلى صحراء الريدانية، التي بدا يتوافد عليها كثير من الخلق، المماليك بعد طول شد وجذب بينهم وبين طومانباي والذي هددهم بالنزول عن العرش إن لم يستجيبوا لأمر القتال فاضطر بعضهم إلى المثول بالمعسكر بينما تكاسل البعض الآخر، أما العامة فقد حضر منهم الكثير بعدما جاب كل من عبد السلام وعليا أنحاء المحروسة لتجميعهم، فقد طاف عبد السلام في جموع أحياء المحروسة القديمة لتجميع الشباب والرجال حتى الخميسين من عمرهم، طاف ببركة الرطلي يتحدث مع العوام الذين اشتغل أغلبهم في الحشيش والمسكرات، فلاقى قبولهم جميعًا، تناسوا في لحظة همة الهوى والمحرومات، ومشوا معه يبشرون، يطلقون النداءات حي على الفلاح في كل ربوع المحروسة، بينما طاف عليا يبحث عن بقايا العياء الذي تغرب منهم من تغرب وانزوى آخرون على أسرهم، فاجتمع بهم يحثهم على الجهاد، ذهب إلى هضبة الكبش وجمع وأخذ يهم العزم ليذودوا عن وطنهم ويكون لهم دور بعدما همشوا لقرون، كما استطاع أن يجمع عددًا من المغاربة المقيمين بجوار الأزهر للدراسة لمساندة المصريين، فمنهم من امتثل ومنهم من امتنع بحجة رفضهم قتال مسلمين حتى وإن كانوا معتدين، اجتمع من العامة والمماليك ما يقرب من عشرين ألف نفس، جميعهم قدموا ليسطروا آخر

مقاومة شعبية في تاريخ مصر المملوكية، فكان المشهد يضم كل الطوائف والعباد من مصريين وعربان وشركس، بالإضافة إلى بعض العربان الوافدين من كل الأقطار للدراسة بالأزهر.

وقف يحيى يتأمل الوجوه وهي تملاها العزيمة وهو يمسك بفأسه للاشتراك في حفر الخندق بجواره السلطان الذي شمر عن ساعديه للاشتراك مع الخلق في الحفر، ليزعق صوتا» فى السماء من أحد رجال بنى هلال ممسكا» ربابته يتغنى وسط الجمع فزادت همة الجميع إستثارت الكلمات العزم والثقة التي ملأت نفوسهم وهو يعاونون السلطان، يتساءل أين كانت تلك العزيمة طوال السنوات الماضية، فيتغنى المنشد

أنا باوَحِّد اللي خلق الناس

خلق مسلمين ونصارى

وناس نامت على فَرش وِكْناس

وناس ع المعايش حيارى

فيزيد الضرب فى الصخر وهم يتساؤلون فيما بينهم، لماذا دائما لا نفيق إلا بعد فوات الأوان، الكل يعمل بلا ملل حتى

الباعة الجائلين تركوا الأسواق والسكك وحضروا إلى الريدانية بأمر من السلطان لتزويد الرجال بالزواد.

يتناقلون بين الجمع والمنشد ينشد :

ولا حد خالى من الهم

حتى قلوع المراكب

إوعى تقول للندل يا عم

وإن كان على السرج راكب

حتى اللصوص والخارجين عن القانون فقد قدموا بعدما نالوا العفو السلطاني مقابل الجهاد في سبيل الوطن، لحظات تملأ النفس بكل الفخر والقوة، يستمعون إلى المنشد وهو يتمايل قائلا» :

أنا لم لقيت لي سعد ولابخت

ولا خِل صادق ..قناني

جيت عند بيت عزولي اتلبخت

عبوا لي الدوا في قناني

مجرد لحظات في تاريخ هذا الشعب، تأتي فواصل في مسيرة مليئة بالمشقة والاستعباد، لحظات يقدمون فيها ما لا يمكن لغيرهم أن يفعلوه، الإنشاد واصوات الضرب تسخنهم فيزيدوا فى الهمه، هكذا ولد هذا الشعب، فتاريخ مصر ما هو إلا محاولة دائمة لصد غزو أو لفرض سيادة، فتاريخ مصر ما هو إلا تاريخ أخطار تتلوها أخطار، وشعب إن صحا من غفوته كانوا خير الأمم، وإن عادوا إليها أصبحوا أندر الأمم في الانصياع والبدع والخرافات، ظل يحيي يرى بعينيه وعقله يحدثه حتى رأى عبد السلام وعليا يغزوان الصحراء قادمين يقودان حشودًا من العياء، فاستند على فأسه ليصعد من الحفر الذي ظل فيه طوال النهار، وحتى منتصفه، ما إن اقتربت الوجوه حتى عاد له حنين الماضي، نفس الوجوه التي وقفت قديما بقلعة الروم ترد الصفعة لسلحدار وجوه زادتها التجاعيد ومرارة الأيام وأهوالها، فبدأت الابتسامة ترتسم على شفتيه متذكرًا أيام الشباب وأيام غلبوا فيه المستحيل، أيعود الزمن ويعودوا ليهزموا المستحيل مجددًا، نادي عليّا صائحًا...

- لقد جمعنا ألفين يا ريس يحيى، قالها عليا بصوته العالي مبتسما وهو يشير إلى الحشود القادمة خلفه.

- ابتسم يحيى، لم أناد بالريس منذ سنين.

- طالما عاد العياء، فأنت ريسهم، والآن يريد الرجال أن يسمعوا منك يا ريس.

التفت يحيى إلى الجموع القادمة نحوه ثم تقدم حتى صعد إحدى الصخور الراسخة في الأرض لكي يستطيع الحديث إليهم، فبدأ حديثه بالسلام على القوم الذين ردوا بصوت جعلت الأنظار تلتف إليهم، ثم سار يحثهم على أهمية الجهاد والدفاع عن الأرض والعرض حتى قاطعه أحد الواقفين الذين حضروا من الجمع.

- لقد جئنا للحفر ولم نأتِ للقتال، مالنا بالكر والفر، هذا عملكم يا مماليك.

صمت يحيى حتى صارحت همهمة بين الجمع بين مؤيد ومعارض لما قيل، فرفع يحيى يديه ليهدئ الجميع حتى بدأت الأصوات تهدأ، أخذ ينظر إلى الوجوه أمامه، حاول أن يرتسم بسمه على وجهه فلم ترتسم وإن ظهرت بدلًا منها عرق بجبينه الذي مال إلى الحمرة، لحظات من الصمت تتطلع إليه الوجوه البعض يرفق والبعض الآخر يتهكم إلى أن صاح ووجه يزداد احمرارًا..

- لو كنت جئت اليوم كمملوك لما كان يشغلني دخول الروم من عدمه، يكفيني أن الم أغراضي وأهلي وأرحل بهم أو

أن انتظر الروم حتى أرتمي في أحضانهم مستغلا أصولي ولوني، ما جاء بي اليوم هو إنني مصري قرر أن يدافع عن أرضه كما يدافع الرجل عن شرفه وعرضه، كما يدافع الليث عن عرينه، وإن توفاني الله ستكون نهايتي واقفًا بشموخ ماسكًا سيفي وأنا علي يقين أن التاريخ، وإن ذكر سليم الأول فلن يذكره بمثل ما سيذكرني، لهذا أنا هنا اليوم، يا أبناء مصر، هذا يوم الدفاع عن شرف أمتنا، هذا يوم الدفاع عن أقدس ما نمتلك، فإن هانت علينا فلن يعد لنا أقدس منها، لقد تكالبت علينا الدنيا ولكن الآن تأتي الساعة لنثبت لأنفسنا أن مصر لم يجعلها الله كأي وطن ولم يجعل شعبها كأي شعب، فقد وهبنا الله سرًا لا يعلمه إلا من عاش بهذه الأرض ولن نموت على فراشنا كالعجزة أو النساء، ثم رفع يده بقوة، سنموت ونحن رافعين سواعدنا، سنموت ونحن على يقين أن هذا هو الحق، أن هذا هو شرف الرجال.

قالها فصاحت الأصوات تهليلًا ودبت الحماسة في نفوس الجميع حتى من يقوموا بالحفر زادت عزيمتهم بأصوات التهليل القادمة من خلفهم، حتى وقف طومانباي يدعو الله أن لا يخيب أمل هؤلاء القوم في حين بدا العياء ومن جاءوا معهم ينتشروا بالمعسكر، وكل يعمل على تحصين الخندق بلا كلل أو ملل، أما يحيى فقد عاد ليتفقد زينب

ويتفقدني وأنا أسن السيوف، بينما زينب كانت تعد أطعمة للجموع، فدخل علينا الخيمة ليستريح من طول الجهد والعرق فإقتربت منه متسائلًا...

- هل تظن يا والدي أن لنا الغلبة؟

- يا بني لا يعلم نتيجة أي معركة إلا الله، فأنت تعد والله وحده الناجز لأمره.

- لكن يا والدي لدينا من الرجال الكثير، كما أن هذا الخندق كاف لإعاقتهم.

- لا يوجد شيء يعيق حكم الله ولا قدره يا ولدي، لكن هناك شيء أريدك أن تتعلمه وبذلك أكون قد علمتك ما استطعت.

- سأحضر ريشة جدي والقرطاس، حاولت أن أهم بالوقوف..

- لا أريدك أن تسطر هذا على ورق، بل أريده في عقلك ووجدانك.

فعدت إلى مجلسي، فابتسم والدي ثم أمسك بيدي وبنبرة خافته كما لو أنه يبلغني سرًا...

- الدنيا غول قوي لا يقهر، ستصارعك وقد تكسر عظامك وتنهش من لحمك.

- إذن كيف سأتغلب عليها يا والدي؟

- ستتغلب عليها عندما تعود لتقف من جديد لتتلقى الضربة تلو الأخرى، كلما ضربت ووقفت كلما قوي عودك وكلما أصبحت قادرًا على التغلب عليها، ولكن لن تستطيع أن تفعل هذا دون العون بالله.

دخل عليّا سريعا إلى الخيمة ينادي عليه لملاقاة طومانباي، فاحتضني ثم نظر لي، لحظات أخذت أتأمله فيها، ظللت أنظر إليه حتى غاب عن نظري، وغطت الخيمة أي أثر له، ذهب مسرعًا إلى طومانباي الذي اجتمعت حوله القادة والأمراء يتحدثون ويتدبرون، أهي لحظة الحسم، قالها يحيى يحدث نفسه، فخفق قلبه وارتجف، فامسك بمقبض سيفه يستأنس به، تقدم الجمع حتى صار بجوار طومانباي الذي أخذ يقسم الأدوار بعدما جاءته الأخبار بأن العدو عبر المطرية في طريقه إلى الريدانية، فقسم جيشه بأن يتولي الميمنة أحد أمرائه الذي كان قد حاول إيقاف جيش العثمانيين قبل أيام بغزه وعجز، وترك الميسرة للأمير جان بردي، وترأس هو القلب، وبجواره يحيى، وخلفهم من الجنود والمماليك وكل المصريين المنضمين للحملة بما فيهم العياء الذي أخذوا أولى المراكز بالتشكيلات الأمامية،

وقبل أن يتخذا طومانباي ويحيي مركزيهما بالقلب أخذوا في تفقد مواقع المدافع المنصوبة على طول الخندق والسور الذي بني أمامه، قد أختار طومانباي مئتي مدفع هي مجموع المدافع المملوكية، ووضعها بأدق المواقع، لما أن تلك المدافع لا يمكن تحريكها من موقعها لثقل حجمها وبدائية صنعها، فكانت مواقعها هي الأنسب، بعدما انتهوا من تامين كافة المواقع بالخط الدفاعي، وقف الصديقان يتابعان الجراد الزاحف عن بعد تغطيه رمال الصحراء، الرمال تختفي أمام رؤؤس تزحف نحو المحروسة، أعداد هائلة تدفع مدافع لا عدد لها، العيون خلف الخندق تتابع الزحف وجوه تبهت من الخوف ووجوه تتمني الفرار، وبينهم وقف يحيى يتأمل المشهد، ينقل بصره بين الوجوه الحائرة، يعلم علم اليقين أنهم لم يروا مثل تلك الأعداد من قبل ولم يواجهوا تحديًا كالذي يواجهون في هذا اليوم، كم يلزم من الشجاعة لمواجهة هذا المصير، ليسطر التاريخ نهايتنا لكن إن قدر لهم هذه النهاية، فلتكن أشرفها، هكذا خبر نفسه، الآن فقط أدرك كثير من الأمور لم يستوعبها من قبل، أن تتعلم الحكمة شيء وأن تختبر بها فهذا شيء آخر، أن تتعلم مفاهيم الشجاعة والرجولة شيء وأن تختبر فيها فهذا شيء آخر، اليوم هو يوم الاختبار، اختبار كل ما تعلمه، اليوم اختبار لمعدن كل رجل واقف خلف هذا الخط، ما أصعب اختبارات الحياة، قالها يحيى ليعود إلى وقائعه المفروض عليه،

إشارة طومانباي للطوبجية ببدء القذف المدفعي جعله يتأكد أن كل ما يراه واقع، أن مصر كلها تحت الاختبار، اختبار وجود.

وقف الصديقان يتابعان النيران التي بدأت في القذف، ومدى دقتها في إصابة الجموع الزاحفة، كانت المدافع تطلق صرخاتها التي تصم الأذان لتعلن عن انفجار مدوي، لكن الفعل كان أضعف كثيرًا من الصوت، فلم تكن المدافع قادرة على التصويب الجيد، خاصة بعدما بادلتها المدافع العثمانية الأصوات ولكن قوة نيرانها أخذت تحصد الصفوف، تهشمها، تلقي الذعر في نفوس المذعورين فتزيد من خفقات قلوبهم، بدأت الصفوف ترتجف، وباتت صفوف العثمانيين تقترب من الخندق أكثر وأكثر والمدافع تدق الحشود هنا وهناك، فحرك طومانباي يديه للقلب بالهجوم، ثم انطلق هو ويحيي يجتازان الخندق وخلفهما أبناء مصر وعيائها مع عدد غير قليل من المماليك، الخيل تزحف لمصير الأبطال وكل منهم ينطلق ولا يملك إلا قوة العزيمة وسيف في يده، اقتربوا من الصفوف الأولى، بدأت الوجوه تتميز لهم، رجال مصطفين في خط واحد يحملون البنادق الخشبية، يعمرونها ويدخلون البارود فيها استعدادًا للضرب، الخيل تزحف والأيادي ترفع السيوف، وأصوات التكبير تعلو صوت الرصاص، الغبار ودخان

الرصاص أصبح يغطي المكان، يدفئ برد الشتاء القارص، نيران تخترق الأحشاء وجياد تخترق الصفوف الأمامية، أجسام تسقط بلا تمييز وقتال عنيف، التحام وصراع وسيوف تجز الرقاب ونيران تطلق في الهواء، دقائق تمر ولكن تقاس بالعمر، يعود يحيى إلى شبابه من جديد، يقف وسط الرجال يقاتل بكل خفه ورشاقة، تعود به الأيام إلى يوم قلعة الروم، صرخات الرجال مع دخان الرصاص مع غبار المعركة مشهد لا يراه الكثيرين طوال حياتهم، هكذا تكون النهاية، وسط كل هذا تأتي صيحة لتعلن عن سقوط سنان باشا الصدر الأعظم للجيش العثماني، قالها أحد المصريين والتكبير والتهليل يعلو المكان، الغلبة لنا، اثبتوا أيها الأبطال، يصرخ يحيى محمسًا عياءه، فيثخنوا أعداءهم بجراح سيوفهم، الجيش العثماني ينقسم إلى قسمين، اقترب يحيى من طومانباي، وهم يرون الجيش العثماني ينقسم إلى قسمين، يتساءلون هل ينسحبون؟ هل يتقهقرون؟ يرد عليه طومانباي، بل إنهم يلتفون حول ميسرة الجيش المصري، هناك خيانة، لقد انكشفت الثغرة، يحدث طومانباي نفسه، كيف يعلم سليم مواقع المدافع المصرية، كيف علم أن المدافع لا يمكن تحريكها عند تلك الزاوية؟ أخذ يصرخ من أبلغ سليم الأول، النيران تنهال على الجموع المصرية والمدافع تطبش بكل ما وراء الخندق وجيش سليم يلتف خلف الخطوط ويفاجئ المدافعين خلف الخندق.

الخط المصري ينهار والمماليك يفرون غير مكترثين إلا بحياتهم، فالحياة لهم أثمن من الوطن والأرض، إنها الهزيمة، قالها طومانباي وهو يتحسر إلى أن جاءهم عليّا وسط الغبار ويعلوه الإعياء، يصرخ في يحيى، يجب أن نرحل، يشده من ذراعه، يحيى متصلب يرى الهزيمة بعينه، لا يقدر على فعل شيء، عليّا يشده من ذراعه ويصرخ بأعلى صوته ليعيد له تركيزه، يحيى إن سقط طومانباي انتهت المقاومة، يجب أن ننسحب، يندفع يحيى إلى طومانباي وخلفه عليّا وعدد من العياء يلحق بهم عبد السلام مع من بقي من المصريين، يصل يحيى إلى صديقه وسط القتال، يدفع بيده وسيفه كل من يقابله يخترق الصفوف ممسكًا بطومانباي الذي رفض الانسحاب، يدفعه يحيى والرجال من حوله حتى غابوا عن الأنظار، إلى أين نحن ذاهبون فقد سقطت المحروسة، قالها أحد العياء وهو يلهث، فيرد عليا إلى طره حيث سنجد العون من عربان الهوارة.

***

14

السلطان الشهيد

ثلاثة أيام مرت وسليم الأول يخشي دخول المحروسة رغم انتصاره السهل في معركة الريدانية التي لم تستمر أقل من الساعة، بعامل الخيانة والأسلحة الحديثة، إلا أنه آثر الانتظار خوفًا من طومانباي ورجاله الفارين، حتى اطمأن له الحال، فدخل المحروسة في موكب ضخم يضم الخليفة العباسي ورجال القضاة وعدد من المماليك يترأسهم السلحدار الذي عاد من الماضي يسير بجوار سليم الأول، والابتسامة تعلو وجهه الذي غطته تجاعيد الزمان، بجوارهم خاير بك أمير حلب، الذي سلم لسليم في معركة مرج دابق، أخذين طريقهم حتى استقر سليم الأول ببولاق على ضفة النيل، أما طومانباي ويحيى والعياء فقد استقر بهم الأمر بطرة يومين، أعدوا فيهم العدة للمقاومة، فجمعوا من المصريين قرابة

الألفين، وكان العياء هم القوام الأول لأفراد المقاومة الشعبية، كان يحيى بين الحين والآخر يداعب طومانباي ويحفزه فيقول له لقد انتهت حياتنا كمماليك بلا رجعة، وجاء زمن العياء، فيبادله طومانباي الابتسامة التي تعلوها المرارة والحسرة على وطن كان له شأنه يوما فانحط بانحطاط أبنائه وسقط كما سقطت أخلاقهم، حتى زينب وأنا فقد جاورنا الفارين في مخابئهم، كنا نعلم أن الزمان لن يعطينا أكثر من ذلك، بل سيأخذ دون رحمة، على الرغم من ذلك كانت الهمم عازمة على الثأر، فقد فقدوا كل عزيز، وبعد ما رأوا الموت بالريدانية لم يعد يهابوا الموت، عادت الأحاديث تأخذهم ليتذكروا حسن الجني الذي لم أكن أعلم عنه شيئًا حتى ذلك الوقت، وأيام مغارة جبل زينهم، تلك الأيام التي حلم بها العياء بالحياة الرغدة، الآن هم أيضا مطاردون كعادتهم، كل أمانيهم أن تنتهي حياتهم وهم يأخذوا بالثار، اجتمع طومانباي ويحيي فيما بينهما ليدرسا خطواتهم القادمة، فلم يجدوا أفضل من اقتحام معسكر بولاق، معسكر السلطان العثماني وليكن ما يكون، استحسن الجميع الفكرة وإن بدت مجنونة، حتى ظن البعض أنهم ذاهبون إلي نزهة ليس إلى معقل السلطان الذي يحرسه قوة ضاربة تمنع دخول حتى الطير في السماء، فأخذوا يعدوا صفوفهم ثم تحركوا مندفعين للانتقام، ما أن ظهروا بالشوارع حتى علت صيحات المصريين تكريمًا لهم، فكانوا

كارهـين للـروم، كارهـين لمناظرهـم حتـى وملابسـهم، وكانـوا يلقبوهـم بالأجـلاف، انطلـق الرفـاق يغـزون المحروسـة والعامـة يهللـون حتـى وصلـوا إلى بـولاق ليقتحمـوا المعسـكر عـلى حـين غفلـة، رغـم قلـة أسـلحتهم ورغـم التفـوق العـددي للعثمانيـين إلا أن القتـال اشـتد عـلى العثمانيـين وكاد أن يبلغـوا سـليم الأول وسـط حراسـة، أربعـة أيـام والمصريـين يمارسـون قتـال الشـوارع داخـل بـولاق، والوضـع يتـأزم أكثـر بكثـير عـلى العثمانيـين حتـى عـاد العـوام يتحدثـون عـن هزيمـة سـليم، وعـاد الخطبـاء ينـادون باسـم السـلطان طومانبـاي بخطبـة الجمعـة في كثـير مـن جوامـع المحروسـة، ليعـود الأمـل مـن جديـد في النفـوس ويسـتمر العـراك حتـى يقـع الكثـير مـن الجانبـين، فيقتـل عـدد مـن المصريـين وتعـود الغلبـة للعثمانيـين الذيـن اعتمـدوا عـلى عددهـم وأسـلحتهم المتقدمـة، فسـكنوا أسـطح البيـوت وركبـوا مـآذن الجوامـع، فاسـتطاعوا بالبنـادق أن يظهـروا عـلى المقاومـة ليقضـوا عـلى آخـر محاولـة للحريـة، اليـوم الرابـع مـن القتـال رأى العيـاء أن الوضـع لا يمكـن أن يتحمـل المزيـد مـن المقاومـة وأن الانسـحاب هـو الأمـل الباقـي الوحيـد لمصر للبقـاء فطالمـا بقـت المقاومـة طالمـا بقـي الأمـل في الحريـة.

***

أخذت زينب تضمد جراح يحيى التي أصابته أثناء القتال العنيف، جلست بجوار سفح الهرم تعالجه وهو ينظر إلى الهرم بشموخه، ما هذا الإصرار على البقاء؟ ما تلك القوة التي يبعثها هذا الجسم الحجري الضخم في نفسك من شموخ؟ إحساس بالتمييز والقدرة على الفعل، أيام ودهور ومصر تمر كالسفينة بين الأهوال مهما طال الظلام يأتي يوم لتفيق وتعود، الهرم خير دليل على هذا، سمع يحيي عليًّا جالسًا على إحدى الصخور القريبة منه يدندن بصوت مخنوق وهو يبكي ويقول:

دموع العين فاضت من مـــآّق

طــريحًا والدماء لفي انهراق

وقلبي ذاب من كثــر احتراق

وكـــان الخائن الكلب الغزالي

فلا ناري طفاها دمـــع عيني

وخـاير بك مبوطن في النفاق

ولا دمعي يفيض من اختناق

هما أصل الهزيمة عن حقيق

وشمس السعد في شرق المعالي لدى

حـلـب كـخيـل في سبـاق

أتـانـا الـروم من جـهـة الـعـراق

لما استجمعوا في مصر قالوا

وكـان الـحـرب يـوم الـحـد لـكـن

وكـان الشر يوم الحرب راقي

انتهـي عليّـا مـن غنائـه لـيري الجميـع حولـه ينصتـون لمـا غنـي، مـا بـين باكـي وبـين متجهـم، ويحيـى يتحـسر عـلى مـا كان يقطـر ألمـا وهـو يـرى النهايـة أمـام الأهرامـات التـي شـهدت بدايـة الحكايـة، حكايـة وطـن شـاء أم أبي فهـو دائـما يتربـص بـه المتربصـون وتـدور عليـه دوائـر الدهـور، فالتفـت عـلى صـوت يناديـه بجانبـه إذا بـه طومانبـاي المناضـل يطمئـن عـلى جرحـه ويحيـي يجيبـه.

- مـاذا بعـد يـا صديقـي؟ قالهـا وابتسـامة التسـليم بالقـدر هـي الغالبـة عـلى وجهـه.

- سنختبئ عند عرب البحيرة.

- هل لدينا رجال تمنع عنا وتدافع؟

- أولاد عمر أخذت عليهم العهد والوفاء.

- وهل تأمنهم؟

- لم أعد أهتم بحياتي.

هـز يحيـي رأسـه مستسـلما» للفكـرة، ثـم أمسـك بيـد حبيبتـه وقبلهـا، فامتزجـت دموعـه بدمائـه في يديهـا ثـم قـال لهـا مبتسـما..

- أظنه وقت الفراق قد جاء.

انكمـش وجههـا غضبـا وحاولـت أن تتكلـم، لكـن يـد يحيـى أوقفـت شـفتاها وبادرهـا قائـلًا..

- لم يعـد هنـاك وقـت ولا أمـل، سـترحلين عـن القاهـرة الآن، ومعـك عليّـا وعبـد السـلام، أريـدك أن تتوجهـي إلى الصعيـد لتحتمـي بأهلـك ولينشـأ ابننـا هنـاك، هـذا الفتـى هـو آخـر مـا تبقـى لنـا، فهـو أمانـة بيـدك.

بكـت زينـب حتـى عـلا نحيبهـا، لا تـدري مـا تفعـل أتوافقـه أم ترفـض وتـصر عـلى الذهـاب معـه، لم يطـل يحيـى فـترة الصمـت بـل حـاول أن يخفـف مـن حزنهـا بصـوت حنـون وبقلـب يمـلاه الحـب بادرهـا قائـلًا...

- لطالما تذكرت رائحة العبير منذ يوم غارة السوق، لطالما تذكرت دكان العطارة الذي جمعنا أول مرة.

ابتسمت، ثم نظرت إليه متسائلة في قلق.

- ولكن ماذا ستفعل؟

- سأذهب مع طومانباي، قد نستطيع أن نجمع رجال للمقاومة، وإن حالفنا الحظ سآتي لك إلى الصعيد، عندما يأذن الله بذلك.

قالها ووقف ينادي عليا وعبد السلام، لم يترك لها فرصة للرد أو التفكير، إلى أن حضروا أمامه فأمرهم بتحضير الزاد والزواد للرحيل، استأمن صديقاه على زوجته وابنه، أيقن الجميع أن الفراق أصبح هو الأمر المكتوب، لا مجال للاعتراض عليه، على يحيى أن يذهب مع صديقه طومانباي إلى النهاية معا».

إنتهوا من التحضير ووقف يودعهم بعيون دامعة، طال الوداع وأنا أنظر إلى والدي، أحاول أن أفهم حتمية هذا الفراق، لماذا لا يرحل معنا أو لماذا لا نبقي معه؟ إلى أن اقترب مني وضمني إلى صدره ثم نظر لي بابتسامة توحي بالثقة، أمسك بذراعي قائلًا...

- ستذهب مع عماك إلي أهلك بالصعيد.

- أسنتركك هنا يا والدي؟ تساءلت بحيرة.

- نعـم، سـأذهب مـع السـلطان لقضـاء أمـر هـام، وسـأعود قريبًـا.

- أريد أن أبقي معك يا والدي، أريد أن أحارب مثلك.

- لا تستعجل يـا ولـدي، سـيأتي يـوم تجـبر فيـه عـلى القتـال، مـن الآن حتـى هـذا اليـوم أريـدك أن تحافـظ عـلى والدتـك.

أخـرج سـيفه مـن جرابـه وأمسـك بي بقـوة ثـم أعطـاني إيـاه، كان يحـاول أن ينظـر إلى عينـي، أن يعطنـي الثقـة والثبـات، لكنـه ظـل مبتسـمًا كـما لـو أن الأمـور كلهـا طيبـة، قائـلا لي...

- هـذا سـيفي، أريـدك أن تحافـظ عليـه ولا يفارقـك طـوال حياتـك.

أخـذت أتأمـل السـيف اللامـع أمامـي، سـيف قـد أكـون أطـول منـه قليـلًا، عـاد لي التفكـير فتسـاءلت.

- لكن إن أخذت سيفك، فبماذا ستحارب؟

ضحـك بصـوت عـالٍ، ضحـك ودموعـه تنهمـر فتغـرق وجـه، لم أفهـم إن كان يضحـك مـن مزاحـي أو مـن سـخرية الأقـدار، لم يجـب عـن تسـاؤلي ولكـن رد قائـلًا...

- أتعلم لماذا سميتك حسن؟

- لا يا والدي.

- إذن أريد منك أن تطلب من عمك علي أن يحكي لك في الرحلة عن حكاية العياء؟ أريدك أن تعلم منه حكاية حسن الجني؟

- حسن الجني؟!

- تلك الحكاية ستخبرك، كيف جئت إلى هذه الدنيا، ولماذا سميتك حسن؟

قالها ثم سلم على صديقاه، نظر إلى والدتي نظرة حب وشوق لم أر مثلهما طوال حياتي، ثم أشار إلى عليا لكي ننصرف، أخذت أتلفت ورائي وأنا أرى والدي يبتعد عنا، واقفًا يبتسم بوجهه البشوش وما زالت دموعه تنزل ولا يواريها أو يمسحها، يشير لنا بيديه محييًا ووالدتي تنوح بجواري، انطلقنا ولم يبق عند سفح الهرم سوى يحيى وطومانباي يطالعهما أبو الهول، ذلك الحارس الأمين عبر الزمان.

***

دقت الطبول إعلانًا عن انعقاد المجلس، تدفق العامة من كل الحواري والربوع لاهثين يسرعوا للحاق بالمجلس المنعقد عند باب زويل، الجميع يريد أن يتابع ماذا سيكون مصير السلطان طومانباي وصديقه بعدما تم القبض عليهم بالبحيرة

بعد غدر أولاد عمر لهم، كانت العيون جميعها تتطلع رؤيته والاطمئنان عليه، مصريون من كل الطوائف والوجوه جاءوا، ازدحم المكان بأنفاسهم، اجتمعوا ليلقوا التحية الأخيرة على السلطان المناضل ورفيقه الذين لم ينصاعا لأمر سليم الأول ولا إغراءاته، ظللا على إيمانهما بتلك الأرض لآخر نفس، لقد أرق طومانباي ورفاقه سليم وجنوده لأيام طوال، فلم يغمض له جفن إلا بعد أن ألقي القبض عليه، لعل الخيانة هي عنوان رواية مصر الحديثة في صراعها مع آل عثمان، فبالخيانة هوت الدولة لسنوات أمام فساد خونة وصلوا لأعلى المناصب، بالخيانة كشف للجيش العثماني ثغرات الخطوط المصرية، رغم ضعف الإمكانيات، مع ضعف العتاد المصري أمام العتاد العثماني، لكن تبقى الخيانة عنوان الرواية، وأخيرًا بالخيانة يقع طومانباي في يد من لا يرحم وإن كان رحم جان بردي الغزإلي وعفا عنه وعينه من خاصته إلا أن لطومانباي أمر خاص فقد حاول شراءه من قبل وإستعصى عليه.

بدأ موكب سليم في المسير حتى وصل إلى باب زويل وأنظار العوام تنظر إليه باحتقار، كان المصريين يرون في أل عثمان أنهم أدنى منهم، مجرد قبائل من الأجلاف، همج لا يرتقون إلى تاريخهم، لا يروا فيهم دين ولا عهد، بل رأوا فظاعة أفعالهم منذ اليوم الأول لدخول البلاد، سرقة واغتصاب وقتل، عمالة

جمعت وسخرت وتم نقلها كالدواب للعمل فى القسطنطينية.
بات واضحًا أن المشانق تعلق، فالحكم معلوم مسبقًا، لا شفقة أو رحمة في ضمائرهم، هذا كل حكم على أي مناضل، خاصة السلطان ورفيقه، حتى الخونة من أعوان سليم لن يرضوا أن يتركوا طومانباي أو يحيى لينعموا بالعيش في هذا الوطن، فإن لم تكن فاسدا فليس لك مكانًا وسطهم، تقدمت أمي وهي تمسك بيدي وسط الجمع، لقد فرضت رأيها على عبد السلام وعليا بعدما علمت بأمر القبض على حبيبها، رفضت السفر قبل أن تراه، رفضت أن تفوت المشهد الأخير، اندسينا وسط الجموع لمشاهدة المشهد الأخير، مشهد الوداع للبطل، أخذ العسكر يضعون الحواجز لإيقاف العامة عن التدافع، وبات الطريق خاويا لقدوم سليم الأول ليستعرض المحكومين عليهم، بدأت الخيالة تظهر في الأفق حتى عبرت الباب العتيق وخلفهم موكب سليم ورجاله، كانت تلك أول مرة للعامة يروا فيها حاكمهم الجديد، ملابسه هو ورجاله تختلف عن ملابس السلاطين السابقين، تنم على عدم ذوق قله ذوق في الاختيار، ليست مهندمة ولا مزكرشة كمماليكهم السابقين الذين كانوا يهتموا بملابسهم كمظهر من مظاهر الفخر والفروسية، لا يمكن أن يحاربوا إلا وهم في أبهي صورهم، أما هؤلاء تحسسهم عبيدًا، دخل سليم الساحة ينظر لوجوه العامة بتجهم واستعلاء غير مبال لمناظرهم، هم مجرد عبيد له، مشى

وخلفه خاير بك نائب حلب السابق وذراع سليم الأول الحالي بالدولة، يصحبه الزيني بركات الذي أطلق سراحه بمجرد دخول العثمانيين وخلفهم جميعًا مشى السلحدار منحنيًا وقد عمل الزمان بوجهه وبجسده ما فعل، يسير ببطء، كالمتشبث بالحياة، يبتسم تلك الابتسامة الماكرة، يتأمل الحبال المدلاة من أعلى بوابة زويل، فتزداد ابتسامته، آخذا مجلسهم في مقدمة الساحة على المصطبة المعدة لهم، أشار قائد الحرس فأخذت الطبول تدق من جديد إعلانا عن عرض المحكوم عليهم، فتهامس العوام، وثبتت الأنظار ناحية البوابة، كل الأعين تتطلع في انتظار أن يظهر السلطان ورفيقه ليواجها مصيرهما بكل رضاء، بدأت طلائع الحرس المصاحب لهم في الظهور، ثم ظهر طومانباي وخلفه والدي مكبلان بالسلاسل الحديدية من أيديهم وأرجلهم، واقفين على عربة خشبية يجرها الخيل، مصلوبان من أيديهما، تزحف بهما العربة إلى الساحة، ما أن ظهروا حتى علت الصيحات تحية لهم، الوجوه تتألم من مشهد السلطان وهو مكبل الأيدي، يودون تخليصه، لا ليس لهم من سلطان الان فقد عادوا عبيدا» مجددا» بعد الريدانية، أما يحيى والدي فقد ظل واقفًا بجواره رافعًا رأسه في عزة لا تنم عن ضعف الحال الذي هو به، تساءل البعض عن والدي وعلاقته بالسلطان، فترددت الإجابات وسط الجموع، منهم من علق أنه ابن الشيخ زكريا العالم الجليل، وأخذوا يترحمون

عليه، بينما أخر صاح بل هو الريس يحيى كبير العياء ووارثها من الريس حسن الجني حكاوى المصريين، أخذوا يتحدثون وأنا أقف بينهم وبجواري والدتي لا تلتفت إلى أحد، تنظر فقط إلى زوجها وحبيبها، تودعه والدموع تنهمر من عيناها، وقفت العربة التي تحملهم، وأنزلوهم منها وسارا حتى وصلا إلى سليم وجمعه، تقدم منهم سليم يتفحصهم بنظرة منتصر قادر، ظفر الأرض وأنهى المقاومة فبدأ يحس بريق الحال فزادت ابتسامته، اقترب من طومانباي، بل أخذ ينظر له بازدراء ثم تحدث إليه قائلًا...

- لقد أخطأت التصرف عندما تحدتني يا طومانباي، لم يرد عليه بل أخذ هو الآخر ينظر له باحتقار، فتابع سليم، لقد عرضت عليك الملك مقابل الولاء لي، ومازلت أعرض نفس العرض، ثم بصوت أكثر ارتفاعًا ليسمع العامة، يمكنني الآن أن أمر جنودي بأن يفكوا قيودك لتجلس بجانبي كأمير.

ازدادت ابتسامة طومانباي، ابتسامة ساخرة لا تليق مع وضعه الضعيف، بدأ التوتر يدب في وجه سليم وهو ينظر إليه كان يتوقع منه طلب الرحمة أو الغفران، وطومانباي ينظر إلى العوام المجتمعين بالساحة حتى تحدث بصوت عال صافي قائلًا...

- والله ما غلبتم إلا بالسلاح الحديث والخيانة، لولا ذلك ما تجرأ مثلك على دخول هذه البلد، أنت أدنى من أن تحكم أو تتحكم في هذا الشعب.

حاول الحراس أن يمنعوه من الحديث، وسليم في شدة غيظه يكاد أن يفتك به، إلا أنه عاد للابتسام مشيرا إلى حراسه لبدء تنفيذ الحكم، وقف يحيى يتابع المشهد، لم يلاحظ وجود السلحدار إلا عندما قام من مجلسه، اقترب منه فبانت ملامحه، كاد أن يجن، أمازال هذا الذئب على قيد الحياة ولم يفنى؟ ظل يحيى ينظر إليه وهو يخطو نحوه حتى وقف أمامه، كادت زينب هي الأخرى أن تجن فور ما رأته، هذا رجل البلاء الأول، لا يأتي إلا والخراب معه، حاولت أن تتوارى وسط الجمع، على الرغم من اهتمامها ألا يفوتها شيء مما يحدث، وقف السلحدار وجهًا لوجه ينظر إلى يحيى يتطلع وجه عبر السنين ويحيى ينظر إليه متحفزًا ينظر ليعينه وهو يتحداها، مخبرًا إياه أنه لم يهابه، فخرج صوت السلحدار ليحدثه بعد تلك الأعوام...

- ها قد جئنا يا يحيي، ألم تتوقع ذلك؟

نظر له دون أن يرد، لكنه كان يبادله النظر وما زالت الابتسامة مرسومة على وجه، ابتسامة لم يكن يتوقعها السلحدار، أفقدته عقله فبادره...

- لقد أخبرتك، لن أموت إلا بعد أن أقتل قاتل ولدي بيدي.

- لقد قتلته في لحظة، لم يكن إلا كلب مثلك.

- أحمق، امسك بثيابه، كان يمكنك أن تكون سيد تلك البلد اليوم، هذا ما كنت أعدك له، كنت أشاركك في صنع جيل من أحفادي ليجلسوا على عرش مصر، لكنك غبي وأحمق.

ثم بصوت أكثر ارتفاعًا للجند، آمرًا بأن يسرعوا في تنفيذ الحكم، ارتفعت أصوات النحيب والبطلان يصعدان إلى مصطبة الإعدام، وقفت بجوار والدتي أنظرها، كانت تقف تنظر إلى زوجها بعزة ممسكة بي في ثبات لم أراه عليها من قبل، وقف الرجلان أعلى المصطبة، فحاولت أن أداري وجهي في ثوبها، كدت أن أصرخ، لولا أنها وضعت يديها على فمي، ثم أزاحت رأسي بعدما دسستها في حضنها، أمسكت برأسي وثبتتها نحو مصطبة الإعدام بإصرار وغضب، كانت تريدني أن أرى بعيني هذا المشهد، كانت تريد أن يحفر في ذهني طوال العمر، لم تشفق علي، فلم يعد للشفقة مكان الآن، لم يعد في عقلها إلا الثأر، بدؤوا في تجهيز السلطان الذي سمع أصوات الناس وهي تودعه، تدعوه بالسلطان الشهيد، حاولوا أن يضعوا عصبه على عينيه فرفض بإباء، ثم بهدوء الواثق أطل بنظره إلى العامة سائلًا إياهم أن يقروا له الدعاء، أن يترحموا

عليه بين الحين والآخر، ثم قرأ الفاتحة والشهادة ووقف ينفذ حكم الشنق الذي سار إليه منذ اختياره وبخاطره منذ البداية، شهقت النساء وتحولت الساحة إلى مأتم يعلوه العويل والبكاء في كل مكان، أنزلوا جثمانه والنساء يصرخن، وجاء الوقت على يحيى الذي ظل مبتسمًا رافضا أن يغمض عينيه كحال صديقه، وضعوا الحبل السميك حول عنقه فأطل بنظره وسط الجمع فرآني ورأى حبيبته، فزادت ابتسامته، ابتسامة تقول إنه يوم مولده، نفس الابتسامة التي رأتها زينب على وجهه بمغارة زينهم يوم العرس، يتطلع إلي بابتسامة وعلى وجه جَلد الرجال، جاءت لحظة الوداع، وقضي الأمر، فجاه سمعت زغازيد تنطلق من جواري، أنها والدتي التي أحنت رأسها حتى لا يراها أحد وأطلقت الزغاريد، كانت مفاجأة للجميع، لكنها لم تصدمهم، بل صدمت الحرس، إلا تعالت الزغاريد بين أركان الساحة، ووقف الحرس ينظر إلى قادته يحاولوا أن يجدوا عندهم أي معني لما يحدث، أو أي أمر للتصرف مع الجمع، فأمروهم بصرف الجماهير، وسليم والسلحدار وقفا ينظران إلى الجثتان وهم ينزلان من المشنقة ليوضعان على عربة خشبية تجرها الدواب، إلا أن سليم أمر الجند بأن تعلق جثة طومانباي مجددًا على باب زويل، لكي يؤكد للجميع سيادته، لكي يرهب أي إنسان يحاول أن يقاومه أو يتحدى ملكه، طلب من الأمراء الانصراف للقصر، لكن

السلحدار ظل واقفًا يشاهد جثمان يحيى الملقى على العربة، والجنود يقومون بتغطيته، بادره خاير بك من خلفه يتساءل...

- هل مازال لك ثأر آخر معه؟

- نعم لدي، وبصوت عال حاول أن يخرجه من جسده المتهالك صاح، هذا قد سرق مني جارية تعد من أملاكي، ولها ولد الآن، سأكافئ مع يأتني بهما.

- لا تقلق سيعمم النداء على جميع الأقطار بمكافأة لمن يقبض عليهما.

تلك هي رواية يحيى بن زكريا، بل هي رواية وطن تقلب عليه الدهور، وها أنا أبدأ أولى رحلاتي خارج المحروسة متجهًا إلى الصعيد، رحلة لا أعلم مداها، ولا أعلم متى سأعود، كل ما يعنيني الآن هو إنقاذ والدتي ونفسي، نهرب حتى لا تطولنا أي من أيادي سليم أو رجاله الذين خانوا وباتوا سادة من جديد لعصر جديد، سأرحل الآن وقريبًا سأعود.

تمت بحمد الله

المعادي، القاهرة

أكتوبر ٢٠١٦

شكرا» لانكم أدخلدونى إلى عالمكم

محمد ابن إياس الحنفى المصرى (بدائع الزهور فى وقائع الدهور)

ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة)

د. هانى حمزة (مصر المملوكية الجزء الثانى)

الفارابى

جلال الدين الرومى

أبن العربى

ابن الفارض

بهاء الدين الجيوشى

أبو الفوارس عنتره

التواصل مع داركتاب

Email : darkitabone@gmail.com

fasbook : darkitabone

البدج داركتاب

٠١٠٩٧٥٥٣٣٢٨